الكولونيل لورنس

توماس إدوارد لورنس

الثورة العربية

تعريب: شعبان بركات

الأهلية

الثورة العربية

الأهليّة للنشر والتوزيع
e-mail : alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)
المملكة الأردنية الهاشمية ، عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين، بجانب مطعم القدس - بناية رقم 12
هاتف 4638688 6 00962 ، فاكس 4657445 6 00962

الفرع الثاني (المكتبة)
عمّان ، وسط البلد ، شارع الملك حسين ، بجانب البنك المركزيّ ، مكتب المقاصة - بناية رقم 34

مكتب بيروت
لبنان ، بيروت ، بئر حسن ، شارع السفارات
هاتف : 824203 1 00961 ، مقسم 19

◆

الثورة العربية

توماس ادوارد لورنس

الطبعة الثانية، 2009
حقوق الطبع محفوظة

◆

الغلاف والصف الضوئي : علي الحسيني 99782270 7 00962 ، عمّان ، الأردن

***All rights reserved**. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without the prior permission of the publisher.*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو أي جزء منه ، بأيّ شكل من الأشكال ، إلا بإذن خطّيّ مسبق من الناشر

الفهرس

المقدمة 5

الفصل الأول : ستورس في جدة..... 9

الفصل الثاني : الذهاب إلى فيصل..... 15

الفصل الثالث : فيصل وجيشه..... 21

الفصل الرابع : وصف دقيق لحياة فيصل في المعسكر 31

الفصل الخامس 48

الفصل السادس : فن القيادة والسياسة..... 53

الفصل السابع..... 57

الفصل الثامن 64

الفصل التاسع 70

الفصل العاشر : العقبة والسويس واللنبي..... 79

الفصل الحادي عشر..... 88

الفصل الثاني عشر..... 95

الفصل الثالث عشر 100

الفصل الرابع عشر : شهر الانتظار 105

الفصل الخامس عشر 113
الفصل السادس عشر 118
الفصل السابع عشر..... 126
الفصل الثامن عشر 134
الفصل التاسع عشر 141
الفصل العشرون..... 149
الفصل الحادي والعشرون 157
الفصل الثاني والعشرون..... 163
الفصل الثالث والعشرون..... 169
الفصل الرابع والعشرون..... 181
الفصل الخامس والعشرون 186
الفصل السادس والعشرون 198
الفصل السابع والعشرون..... 210
الفصل الثامن والعشرون 214
الفصل التاسع والعشرون : الخاتمة 221
ملحق الصور 225

مقدمة

ولـد تومـاس إدوارد لـورنس Thomas Edward Lawrencw في 16 آب (أغسطس) عام 1988 ، وهو الابن الثاني لـ (إدوارد روبرت لورنس) .

بدأت حياة لورنس العسكرية عندما عمل ملازماً ثانياً تحت رئاسة الكولونيل "هيدلي" في مكتب الخرائط التابع لمكتب الاستعلامات البريطانية في القاهرة ، ولكن شخصيته ومعلوماته المتفوقة جعلته يترقى حتى أصبح يدير مكتب بمفرده ، وقد رُقي لورنس في نوفمبر عام 1914 إلى رتبة كابتن .

عندما جاءت أخبار الثورة العربية في الحجاز إلى رونالد ستورس السكرتير الشرفي للسفارة البريطانية ـ وهو من أصدقاء لورنس المقربين ـ أرسل ستورس مذكرة مطولة إلى وزير الحرب حينذاك ، كيتشنر ، يطالب فيها بزيادة المساعدات للشريف حسين ، فرد كيتشنر على ستورس يطالبه بضرورة ذهابه بنفسه إلى الحجاز .

أعدَّ ستورس إجراءات سفره إلى الحجاز ، وقد قرر أن يقوم لورنس بمرافقته ؛ هناك بدأت علاقة لورنس بالثورة العربية ، حيث سيزور برفقة ستورس الشريف حسين بن علي بالحجاز .

كان للشريف بن علي أربعة أبناء ، هم : علي وعبد الله وفيصل وزيد .

في عام 1916 وجد الشريف حسين أن الفرصة قد حانت لقيام الثورة على

الأتراك، حيث أن تركيا سحبت أعداداً كبيرة من جنودها في الدول العربية لمواجهة الوضع المتدهور في قاطع روسيا.

هناك سنتركك عزيزي القارئ مع لورنس نفسه وهو يروي لك أحداث الثورة العربية الكبرى بأدق التفاصيل من خلال مذكراته عن تلك الثورة التي فصّلها بـ تسعة وعشرين فصلاً تعيش خلالها أجواء القتال تارة وأخرى، وتتعرف على الصعاب والمعاناة التي تعرضوا لها، وتارة أخرى أجواء الخوف والحذر، وأخبار الانتصار ومظاهر الفرح.

الفصل الأول

ستورس في جدة

رست الباخرة في مرفأ جدة الخارجي. في ظهيرة يوم من أيام تشرين الأول سنة 1916، وكان الكولونيل ولسن معتمد بريطانيا لدى الدولة العربية الجديدة قد بعث بزورقه البخاري لاستقبالنا، فلما نزلنا إلى البر دخلنا دار القنصلية البريطانية فرأينا ولسن جالساً قرب نافذة غرفة ظليلة وقد اشتد عليه الحر فهو يترقب نسمة تهب من البحر.

قال لنا الكولونيل وهو يصافحنا:

"إن الشريف عبد الله، ثاني أنجال الحسين، شريف مكة المكرمة سيصل إلى المدينة بعد قليل. وكنا أنا ورونالد ستورس قد ركبنا البحر الأحمر من القاهرة لمقابلة هذا الأمير العربي ورحنا نفكر في وسيلة نتذرع بها لتبرير قدومنا إلى جدة ـ وهي باب مكة التي يحظر دخلوها على غير المسليمن".

كان في إمكاني أن أزعم اني جئت للنزهة، أو لرؤية الخيول العربية، أما ستورس فكيف نعلل وجوده وهو السكرتير الشرفي لدار الاعتماد في القاهرة، ومعاون السر لدى هنري مكماهون. وأمين سره في المفاوضات الدقيقة الجارية بين إنجلترا وشريف مكة. لقد كان ستورس خبيراً بشؤون البلاد العربية، خبرة اقترنت بحصافة السر هنري وعطف كلايتون، وكان لهذه العوامل تأثيرها في نفس الحسين

فأقنعته وحملته على قبول عهود الحلفاء على ما فيها من حيطة وتحفظ حتى إنه حسب تلك العهود مواثيق ثابتة يصح له أن يعتمد عليها ويركن إليها في إعلان الثورة على الدولة العثمانية.

وقد وفى الحسين بوعده للحكومة البريطانية طول مدة الحرب العالمية المليئة بالشبهات. والمغامرات.

كان السر هنري في الشرق الأوسط يد إنجلترا اليمنى في إشعال الثورة العربية، أما السر مارك سايكس فكان يدها اليسرى؛ فلو أن وزارة الخارجية زودتهما بالأوامر الصريحة وأحسنت تسيير الأمور لما ساءت سمعتنا ولا اتهمنا بالنكث في العهود.

زارنا الأمير عبد الله وهو يمتطي ظهر جواده الأشهب وهو محاط بمجموعة من الأفراد المسلحين لحمايته. وكان سكان المدينة ينحنون أمامه بالتحية صامتين. وكان مستبشراً بالنصر الذي أحرزه في الطائف. وما كاد الحديث يدور بينه وبين ستورس حتى أدركت أن الأمير مفطور على بشاشة لا تفارق محياه. ورأيته بديناً لا يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره. وربما كانت بدانته ناشئة عن إغراقه في المرح والضحك فهو يمازح كل وافد عليه دون أي كلفة ولكن لما أخذنا في الحديث غاض البشر من محياه وطفق يتخير كلماته. ويدلي ببراهينه وحججه. في دهاء عجيب. ولا يخفى أنه كان يجادله ستورس، ومن يجادل ستورس يجب أن تتوافر فيه المقدرة العظيمة على الجدال.

أما أنا فحاولت أن أؤثر عليه فأخذت أراقبه. وأنتقده. لأن ثورة الشريف لم تكن منذ بضعة أشهر تسير كما ينبغي. وقد ثبت عندي يومئذ أن الثورة العربية لا ينقصها غير الزعامة؛ أما العقل. والنظر الصائب. والدهاء السياسي، فكانت كلها متوفرة. وكانت الحماسة تشتعل في البادية كلها فتجعلها كالجمر.

وكان القصد الأول من زيارتي هذه التفتيش على رجل ذي سيادة يستطيع أن يقبض على مقدرات الثورة، كفوء للسير بها إلى الغاية التي تصورتها فكنت كلما طال بنا الحديث أزداد يقيناً بأن الأمير عبد الله يصلح للسلم لا للقتال.

واستمالني ستورس إلى الحديث باستطلاع رأي الأمير عبد الله في الموقف الحربي، فقال عبد الله:

" ينبغي الإلحاح على البريطانيين لإعارة الثورة العربية ما تستحقه من العناية لا سيما وقد تمكن الأتراك، نظراً لإهمالنا قطع السكة الحديدية الحجازية، أن يجمعوا الذخيرة والجنود لتعزيز حامية المدينة فاضطر فيصل أن يتراجع عنها بينما العدو يستعد للزحف على رابغ وإن ما عند العرب المرابطين في الجبال على طريق العدو من الذخيرة الحربية، والرشاشات، والمدافع غير كاف للثبات في الدفاع طويلاً".

وقد انضم حسين مبيرج رئيس عشيرة حرب في رابغ إلى الترك فلو زحفت جيوش الترك من المدينة لانضمت إليها قبيلة حرب وعندئذ لا يبقى لوالده الملك حسين إلا أن يتولى بنفسه قيادة أهل مكة وأن يموت في الدفاع عن هذه المدينة المقدسة.

وبينما نحن نتجاذب أطراف الحديث، قرع جرس التلفون وكان المخاطب هو الشريف حسين وقد أطلعه الأمير على حديثه إلينا فأجاب الملك حسين بما يؤكد كلام ولده، ثم انقطع حديث التلفون فالتفت الأمير عبد الله وقد أشرقت في ثغره ابتسامة خفيفة وقال:

"إن السبيل الوحيد لدرء هذه الكارثة هو أن تحشد الحكومة البريطانية فيلقاً من الجنود المسيحيين في السويس مزوداً بوسائل النقل الكافية للإسراع إلى رابغ عند هجوم الترك من المدينة". فأجبته إنني سأنقل مقترحاته هذه لولاة الأمر في مصر

ولكن البريطانيين لا يرغبون في إيفاد أي فرقة من فرقهم المخصصة للدفاع عن مصر لأن ذلك من المسائل الجوهرية عندهم، كما أنهم لا يوافقون على إيفاد المسيحيين لحماية سكان المدينة المقدسة خشية أن يسيء فريق كبير من مسلمي الهند الظن في نياتنا وأعمالنا لأنهم يرون أن للحكومة التركية حقاً صريحاً في الحرمين الشريفين. وقلت إني أبغي مقابلة الأمير فيصل لإحادثه فيما يراه من الوسائل اللازمة لإطالة الدفاع فنهض عبد الله إلى التلفون لاستئذان والده في ارتيادي البلاد شمالاً ولكن الشريف حسين داخلته ريبة شديدة فأخذ عبد الله يجادله مبيناً الفوائد التي تنطوي عليها الرحلة. ثم سلم سماعة التلفون إلى ستورس فطفق هذا يقنع ذلك الشيخ الجليل بكل ما عنده من قوة الإقناع في الجدل السياسي.

ويروق المرء أن يسمع ستورس يتكلم العربية متحمساً، وخليق بأن ينسج كل إنجليزي على منواله في معاملته أبناء الشرق إذا اشتدت ريبتهم إذ لم يكن في وسع المرء أن يثبت إزاء معارضته أكثر من بضع دقائق وقد نال مرامه في المسألة التي نحن بصددها فطلب الملك حسين الأمير عبد الله مرة أخرى وأمره بالكتابة إلى أخيه علي يستشيره في السماح لي بزيارة فيصل.

أما عبد الله فبفضل المساعي التي بذلها ستورس قلب هذه الرسالة المقيدة فجعلها أمراً جازماً إلى علي بأن يعدَّ لي جملاً، ويوفدني سريعاً إلى معسكر الأمير فيصل مع اتخاذ الاحتياطات الكافية لسلامة حياتي، فتم لي كل ما طلبت.

ولما خَفَت وطأة الحر قليلاً خرجنا نطوف في البلدة وكان دليلنا يونج معاون ولسن.

جدة مدينة غريبة حقاً... شوارعها أزقة ضيقة، وسوقها مسقوفة، وبيوتها مبنية من أربع طبقات أو خمس من الصخور المرجانية. ولم نر زجاجاً في جدة، ولم

نصادف عجلة في طريقنا لأن الشوارع ضيقة لا تستطيع العجلات أن تمر فيها ولم نسمع جلبة أينما سرنا بل كان كل شيء صامتاً.

وفي المساء دق جرس التلفون وبه سأل الشريف عما إذا كان ستورس يرغب في سماع الموسيقى، فشكر لجلالته هذا اللطف فقال الشريف: إنه كان لمقر الجيش التركي في الحجاز فرقة موسيقية تطرب الوالي كل ليلة. ولما أسر عبد الله الوالي في الطائف كانت الفرقة الموسيقية في جملة الأسرى وقد أبقى رجالها عنده.

وكان الشريف حسين قد وضع سماعته في بهو الاستقبال في قصره فقمنا واحداً تلو الآخر إلى التلفون وأصغينا للموسيقى التي كانت تعزف في مكة على مسافة خمسة وأربعين ميلاً. وقد أعرب ستورس لجلالته عن ارتياحنا جميعاً فبالغ الشريف في الكرم وقال إنه سيوفد الموسيقيين إلى جدة للعزف في دارنا أيضاً وزاد قائلاً:

"أرجو أن تتلطفوا عند العزف بدعوتي إلى التلفون لأشاطركم أفراحكم".

وفي اليوم التالي زار ستورس الأمير عبد الله في خيمته قرب ضريح حواء فتفقد المستشفى، والثكنة، ودواوين البلدة، فأضافهما، رئيس البلدية، والحاكم. وكانا في خلال ذلك يبحثان في المال، ولقب الشريف، وعلاقته بباقي أمراء الجزيرة العربية، وسير الحرب العام، فتناول بحثهما كل الشؤون التي يبحث فيها عادة ممثلاً حكومتين وقد ضجرت من ذلك الحديث، وأحجمت عن الاشتراك في معظمه لأنني قررت في ذهني أن عبد الله ليس هو الزعيم المنشود.

أخذت أتحدث إلى الشريف شاكر، ابن عم عبد الله، وصديقه الأقرب.

والأمير شاكر من أشراف الطائف. وكان رفيقاً لأولاد الشريف حسين في الصغر، وبينما تراه على غاية الجد والرزانة إذا به ينقلب إلى مازح مداعب، وهو خشن، صعب المراس، مغرم بالرياضة البدنية، قد شوه الجدري وجهه واستأصل كل شعر لحيته.

كان الأمير عبد الله يقود حصار الطائف ولكن الشريف شاكر هو الذي غامر في تلك الحملات فلم يبلغ المرام منها ولم يشد العرب أزره فلم يبق للأمير شاكر إلا أن يقفل راجعاً يصب اللعنات على رجاله ويضحك منهم ويسخر أشد السخرية من هزيمة العدو. فانتقم الترك منه بصب البترول على قصره وإحراقه بما فيه المكتبة العربية المشهورة بكتبها المخطوطة.

وفي ذلك المساء جاء الأمير عبد الله ليتعشى مع الكولونيل ولسن ووراءه خدمه وعبيده ونفر من رجال ضامرين رسمت الهموم آياتها على وجوههم، ورثت بزاتهم العسكرية، وكانوا حاملين آلات موسيقية نحاسية ذهب جلاؤها. فقال الأمير مشيراً إلى رجال الفرقة وقلبه يطفح جذلاً:

"هذا جوقي"!... فأجلسهم على مقاعد في صحن الدار، وبعث إليهم ولسن بالسجائر. أما نحن فصعدنا إلى غرفة المائدة ولما جلسنا للطعام طفقت الموسيقى تعزف ألحاناً تركية فارتاح الأمير عبد الله إلى الموسيقى، أما نحن فسئمنا من هذه الألحان وطلبنا أن يعزفوا لنا ألحاناً ألمانية فعزفوا:

"ألمانيا فوق الجميع"... ثم "نشيد الكره".

وكافأنا رجال الجوق بما أرسلنا إليهم من فضلات الوليمة ولكنهم لم يرتاحوا إلى ثنائنا عليهم بل توسلوا إلينا أن نردهم إلى وطنهم!

الفصل الثاني
الذهاب إلى فيصل

وفي صبيحة اليوم التالي، تركنا جدة في سفينة قاصدة إلى "رابغ" مقر رئاسة الجيش، حيث كان يقيم الشريف علي بن الحسين.

ولما استلم علي "أمر" والده بإرسالي فوراً إلى فيصل نهض مسرعاً وقدم لي جمله الخاص الذي كان موضوعاً عليه سرجه الخاص وأغطية مبهرجة، مزخرفة، فاخرة، من عمل أمهر الصناع في نجد ألوانها متعددة بديعة. وكان الشريف علي قد زين هذا السرج البديع بالشراريب المضفورة والحواشي المجدولة المزركشة.

وقدم لي دليلاً يثق به من بني حرب ليرشدني لمعسكر فيصل.

ولم يدعني الشريف علي أسافر إلا بعد أن غربت الشمس خشية أن يراني أحد من أتباعه أغادر معسكره، وقد أخفى رحلتي هذه حتى عن عبيده. وأتى لي بعباءة عربية، وغطاء لف به جسمي وثوبي الرسمي فكنتُ أبدو على جملي كشبح أسود.

ولم أكن أحمل زاداً فكلف الشريف علي الدليل أن يعد لي ما أتناوله عند وصولي إلى "بئر الشيخ" أول مكان مأهول بالسكان، على بعد 60 ميلاً من رابغ وشدد عليه أن لا يسألني شيئاً في أثناء الطريق وأن يتجنب خيام الجيش ولا يأذن لأحد بالتحدث إليّ.

وسرنا وسط أدغال النخيل وهي أشبه شيء بزنار حول المساكن المبعثرة في قرية رابغ، ثم أخذنا نسير في منطقة تهامة الرملية الواقعة على حدود الساحل الغربي من بلاد العرب على امتداد مئات الأميال وقد تولانا في المسير ضجر شديد.

وكان هذا السهل المنخفض حاراً في النهار لدرجة لا تطاق كما أن فقدان المياه في هذه الأماكن صعّب هذا الطريق الذي لا مفر من السير فيه وكانت التلال وعرة المسالك تُعجز المطايا المثقلة بالأحمال.

ولما أقبل الليل أنعشتنا برودته وكانت الجمال تسير هادئة فوق الرمال الناعمة المنبسطة.

وأخذت أفكر طوال الطريق في سوريا.. وفي "الحج" وأتساءل: هل تتغلب القومية ذات يوم على النزعة الدينية، وهل يغلب الاعتقاد الوطني المعتقدات الدينية. وبمعنى أوضح هل تحل المثل العليا السياسية مكان الوحي والإلهام، وتستبدل سوريا مثلها الأعلى الديني بمثلها الأعلى الوطني؟

هذا ما كان يجول في خاطري طول الطريق.

ولقد توقفنا عن المسير قبل منتصف الليل لأنه كان من الصعب علينا رؤية الأنجاد والأغوار في طريقنا.

وتدثرت جيداً بعباءتي واخترت كهفاً نمت فيه نوماً عميقاً حتى الفجر.

ونهض الدليل في الصباح الباكر فأيقظني. واستأنفنا المسير، ولم تنقض ساعة حتى أشرقت الشمس فشعرنا بالدفء، وبعد مدة غير طويلة وصلنا إلى بئر "مستورة" فتوقفنا قليلاً لنشرب. وقد كان هذا الجمل مصدر سروري وابتهاجي فإني لم أكن قد ركبت الجمل في حياتي، وليس في مصر جمال من مثل هذا الجنس

الطيب، وجمال صحراء سيناء، وإن كانت صبورة وقوية إلا أنها لم تمرن على السير السريع الجميل الهادىء كجمال أمراء العرب.

ولم أكن قد تلقيت درساً واحداً في ركوب الجمال، ووجدت أنه من السهل عليّ أن أركب على ظهر الجمل دون أن أسقط عنه، ولكن من الشاق جداً أن أحمل الجمل على قطع المسافات الطويلة دون أن أتعرض للتعب أو دون أن أرهقه.

وسرنا في وادي"مراد" وانبثق الفجر، وظهرت بئر ابن حسان إلى جانبنا الأيمن.

وخرج من بين الدور جمّال طاعن في السن، مهذار، وأخذ يسير الهوينا وراءنا ليلحق بنا وقال إن اسمه "خلف"... وكان لطيفاً فابتدرنا بجمل ترحيبية حشاها وسط ثرثرة مبتذلة وعبارات طويلة لا نهاية لها. ولما رددنا تحيته حاول أن يتابع حديثه معنا فكره الدليل ذلك وأخذ يجيب على سيل أسئلته إجابات قصيرة لا تدل على شيء من الاهتمام، ولكن هذا لم يكن ليؤثر في "خلف"، وما كان هذا ليمنعه عن مداومة الحديث، وأبى أن يتركنا وشأننا، وشعرت بالجوع ولكن العرب يرون أنه من التخنث أن يحملوا زاداً معهم لرحلة لا تزيد عن المائة ميل.

وكان قد ارتفع التكليف بيننا فبدأنا نتسامر فأخذ "خلف" يقص علينا ما جرى في آخر موقعة ويقول: إن فيصلاً قد غلب في وادي صفراء وأنه قصد الحمراء ويظن أنه على مقربة منا. ولم يكن في استطاعتنا الوقوف على الحقيقة قبل وصولنا إلى أول قرية في طريقنا. قال خلف:

لم تكن المعركة حامية، ولم يكن القتال الذي دار شديداً وكل القتلى الذين وقعوا، وكل الجرحى من قبيلتي ثم أخذ يسرد علينا أسماء هؤلاء القتلى والجرحى واحداً واحداً.

وقطعنا سبعة أميال قبل الوصول إلى مجرى ماء منخفض وصادفنا في طريقنا أكواماً من حجارة الجرانيت أشبه بالسور أو الحاجز فسألت "خلف" عنها وعن أصلها ولكنه بدلاً من أن يحدثني عنها انتقل إلى موضوع جديد لا يمت لهذا الموضوع بأية صلة قائلاً إنه كان في دمشق. وزار اسطمبول والقاهرة. وأن له أصدقاء كثيرين. بين عظماء المصريين، ثم سألني: هل تعرف أحداً من الإنجليز الذين في مصر؟

وتبين لي أنه لا يريد أن يحدثني عن السور. أو الآثار إنما يريد يعرف القصد من زيارتي هذه. وأنه يجب أن يقف على تاريخي منذ ولدت.

وكانت تجربته الأولى أن لجأ إلى اللهجة المصرية، واستعمل العبارات المصرية أملاً في أنْ أقع في الفخ الذي نصبه لي ولما أجبته باللهجة الحلبية أخذ يحدثني عن السوريين البارزين فقلت له إني أعرفهم فانتقل إلى السياسة المحلية، وأمطرني بوابل من الأسئلة مما يدل على عنايته بالشؤون السياسية. وأخيراً أراد أن يقف، بطريقة غير مباشرة على رأيي في الشريف حسين، وفي أنجال الشريف حسين وكان حديثه يدل على لباقة وأي لباقة.

قال لي:

ـ ماذا تنتظر من فيصل؟ وهل يا ترى يوفق في إشعال نار الثورة في شبه الجزيرة؟

ولكن معرفتي في هذه الأمور كانت لا تزيد على معرفته ومع هذا لم ينقطع عن الحديث إلا عندما جاء الدليل فأنقذني بأن غير الموضوع.

وتبين لنا فيما بعد أن خلفاً هذا كان جاسوساً يشتغل لحساب الأتراك. وأنه اعتاد أن يرسل التقارير عن الحركة العربية وما يجري في بئر ابن حسان.

وبلغنا فجأة وادي صفراء ونزلنا قرية (الوسطى) أكبر قراه وهي غاصة بالدور المنخفضة كالأعشاش. قرعنا باب دار كبيرة فخرج إلينا أحد العبيد وأدخلنا غرفة الضيوف، ولم يمضِ وقت قصير حتى استغرقنا في النوم يشنف آذاننا طنين النحل في الحدائق بينما كان الذباب يحوم فنغطيها بعباءاتنا.

وبينما كنا نغط في نومنا كان أهل الدار يعدّون لنا عشاء من خبز وتمر فلما استيقظنا وجدنا هذا الطعام الشهي جاهزاً.

ثم عدنا ثانية الى ظهور الجمال. وتجولنا في وسط القرية ومررنا بسوقها فوجدنا الحوانيت شبه فارغة.

وقابلنا بعض جنود فيصل فأخذوا يحيون دليلنا تحية الانشراح واغتبط هو فأخذ يلوح لهم بيديه مسرعاً للقائهم.

ثم بلغنا (الحمراء) فوجدناها قرية تتألف من مئة بيت مدفونة وسط الحدائق بين الروابي والتلال التي كان لا يقل ارتفاعها عن عشرين قدماً.

ووجدنا على باب أكبر المنازل عبداً أسود شاهراً سيفاً قبضته من الفضة فهمس الدليل كلمات في أذنه فقادني العبد إلى إحدى الغرف الداخلية فوجدت رجلاً أبيض الوجه لم أشك لأول وهلة أنه الرجل الذي جئت قاصداً إليه، فيصل الزعيم الذي أشعل الثورة العربية، وأوقد نارها لتحرير شبه الجزيرة من الرق التركي.

تطلعت إلى فيصل فإذا هو طويل القامة، أشبه بدعامة من الدعائم، ضعيف الجسم، نحيل، وكان يرتدي ثوباً طويلاً من الحرير الأبيض وعلى رأسه كوفية سمراء شد عليها عقال من الخيوط القرمزية والذهبية.

كان فيصل مسبلاً جفونه وله لحيه سوداء تُزين وجهه الشاحب وقد شبك يده

فوق خنجره كعادته... حييته فسار معي حتى جلسني في صدر الغرفة وجلس على سجادته قرب الباب، وتطلعت فإذا في الغرفة بعض رجال حسبتهم تماثيل وكانوا لا ينفكون عن النظر إليَّ وإلى فيصل، الذي كان لاهياً عنهم يلعب بخنجره.

وأخيراً سألني في لطف عن أثر هذه الرحلة في نفسي، أخذت أحدثه عن حرارة الشمس... فذكر أني قطعت المسافة في وقت أقصر من المعتاد في فصل شديد الحرارة كهذا، ثم سألني عن رأيي في وادي صفراء، فأجبته بأنه بعيد عن دمشق فوقعت هذه العبارة في نفوس الحاضرين كالسيف وساد الصمت لحظة وقد يكون بعضهم انصرف إلى التفكير في النصر المنتظر، بينما البعض الآخر انصرف إلى التفكير في الهزيمة الماضية. وأخيراً رفع نظره وابتسم في وجهي قائلاً:

ـ "نحمد الله لوجود الأتراك في مكان أقرب إلينا من دمشق".

وشاركناه في الابتسام وأستأذنت للمبيت على أن أعود اليه.

الفصل الثالث

فيصل وجيشه

وجدت نافع بك القائد المصري مع رجال حاميته. وقد أرسله السير وينجيت حديثاً من السودان لمساعدة الثورة العربية. جالساً بين أشجار النخيل وسط المروج.

وكانت الفرقة المصرية قد جاءت بعدد من المدافع.

وكان نافع بك من الأشخاص القريبين إلى القلوب. وعلى قسط كبير من كرم الأخلاق. وأنا مدين له بما لاقيت من لطف وكرم ضيافة.

وتعرفت بـ "مولود المخلص" وهو من العرب الذين يتقدون حماساً ووطنية. كان في البداية في الجيش التركي ولكن الأتراك لم يعجبهم منه وطنيته العربية المهددة لكيانهم. ولا غيرته القومية المفرطة التي كان يظهرها في جرأة لا نظير لها فعمدوا إلى تخفيض درجته مرتين ثم نفوه إلى نجد فقضى فيها سنتين كسكرتير لابن الرشيد وقد قاد فرقة تركية في معركة وقعت أمام "شيبا" ولكنه وقع أسيراً في أيدينا فما أن سمع بثورة الشريف حتى تطوع للجهاد وكان أول ضابط نظامي انضم إلى فيصل.

أخذ مولود يحدثنا عن شدة افتقار العرب إلى المعدات الحربية وأن هذا هو سبب الورطة التي وقعوا فيها والحالة السيئة التي كانوا يعانونها. وأنهم يأخذون

شهرياً من الشريف 30 ألفاً من الجنيهات ولكنه لا يقدم إليهم سوى قدر ضئيل من الدقيق، والأرز، والشعير، ولا يقدم لهم مدفعاً واحداً، ولا معلومات، ولا مساعدات فنية. فقلت له إني ما جئت إلا لأقف على الحالة بنفسي وأن مهمتي تنحصر في تبليغ السلطات الإنجليزية عن احتياجاتكم، ولكني لا أشتغل معكم إلا على شرط واحد وهو أن تصارحوني الصراحة كلها عن موقفكم العام، وأصل هذه الثورة، والغرض الحقيقي منها، فوافق فيصل على ما طلبت وبدأ يحدثني عن تاريخ الثورة منذ نشأتها، فقال: إن الهجوم على المدينة لم يكن موفقاً وكان يعد من الأعمال الجنونية دفعهم إليها خيبة آمالهم وشدة افتقارهم للسلاح والذخيرة وكانت قوة الأتراك عظيمة جداً وبينما كانت الأزمة بالغة اشدها قام بنو علي بثورتهم فقابل الأتراك تمردهم بإطلاق النيران الحامية عليهم ولم يكن العرب قد تعودوا الوقوف أمام المدافع فاستولى الرعب عليهم، وتملكهم الفزع.

وعاد عرب عقيل، وعتيبة إلى خيامهم في أمان رافضين أن يتحركوا لمقاومة الأتراك مرة أخرى بعد أن وجدوا أن هذه النار الحامية لا ترحم أحداً.

وتقدم قسم من بني علي إلى القائد التركي يعلمونه برغبتهم في الاستسلام بشرط أن يُبقي الأتراك قراهم ولا يدمرونها تدميراً فأخذ القائد التركي فخري بك يتلاعب بهم، وأحاطت جيوشه بضاحية "أوالي" ثم أمر الجنود بالهجوم فجأة فأخذوا المدينة عنوة وذبحوا كل حي وجدوه داخل أسوارها وهتك الأتراك أعراض المئات من النساء ثم ذبحوهن مع رجالهن وأطفالهم وأشعلوا النيران في الدور فالتهمتها بمن فيها من الأحياء والأموات.

وكان فخري بك وجنوده قد تمرنوا على هذه الأعمال الوحشية في أثناء تفظيعهم في الأرمن وحذقوا فن التقتيل البطيء منه والسريع.

ولم يكن العرب قد ألفوا هذا النوع الفظيع من القتال فوقعت المشاهد الأليمة موقعاً سيئاً جداً من نفوسهم؛ فإن العرب في قتالهم لا يتعرضون للنساء بل يحافظون على أعراضهن وأعراض الصغار كما أنهم يراعون في القتال مبدأً عاماً وهو أن الأشياء التي لا يمكن حملها يجب تركها كما هي دون أن يلحقوا بها الأذى والتدمير.

ولكنهم لما وجدوا أن الأتراك أقدموا على هذه الفظائع المنكرة تركوا فيصل وأبوا إلا أن يستميتوا في القتال حتى يقضى عليهم عن آخرهم. وكان من الجلي أن عملهم هذا يطول شأنه. ولم يكن من المتوقع فوزهم على الأتراك.

وأخذ علي وفيصل يرسلان الرسل واحداً بعد آخر إلى رابغ ـ قاعدتهم الحربية ـ للسؤال عن موعد وصول المدد. والأسلحة والمؤونة.

أجل، كانت الثورة في أولها عبارة عن جهود عرضية اتفاقية وبلغ من استقلال الشريف حسين بنفسه أنه كان لا يثق حتى بأولاده وكان لا يعمل وإياهم يداً واحدة بل يكتفي بأن يرسل إليهم مقادير صغيرة من الطعام ثم أخذ يرسل إليهم بعض البنادق اليابانية التي كان معظمها لا يصلح لشيء. ولم يكن يرسل إليهم مالاً على الإطلاق لهذا كان فيصل يلجأ إلى الحيلة فيملئ الصناديق الجميلة بالأحجار ليوهم البدو أنها مملوءة ذهباً وكان يغلقها إغلاقاً محكماً ويلفها في عناية قصوى ولا يتركها إلا في أيدي عبيده الذين يثق بهم ثقة تامة وكانت هذه الصناديق تعرض أمام البدو، دون أن تفتح طبعاً.

أجل، هذه بداية الثورة العربية المتواضعة فإذا كنا نُعلي من شأن فيصل فإنما هذا ليقيننا أنه أبو الثورة ويحق لنا أن نلقبه بمنقذ العرب.

وأخيراً قصد الشريف علي "رابغ" ليستقصي أخبار والده ويقف منه على السر في امتناعه عن تلبية رغائبه الملحة فتبين له أن حسين المبيرك الزعيم المحلي قد اتخذ

كل التدابير لنجاح الأتراك وكان على اتصال بهم ولما كان المدد الذي يأتي للشريف حسين يسلمه الإنجليز إلى هذا الزعيم المحلي فقد تمكن هذا من نهب أكبر مقدار ممكن من الذخيرة الإنجليزية وخزن هذه المنهوبات في دوره العديدة فلم يكن من الشريف علي عندما رأى هذه الخيانة إلا أن قام بمظاهرة وكتب إلى أخيه زيد أن يأتي على جناح السرعة.

وخاف حسين فانسل إلى التلال شريداً واستولى علي وزيد على قراه ووجدوا فيها مقادير كبيرة من الأسلحة والأطعمة تكفي البدو الذين معهما أكثر من شهر.

وقد غرتهما حياة الهدوء والنعيم ففضلاً البقاء في رابغ وتركا فيصل.

وشعر فيصل بأنه قد بات وحيداً... في عزلة.. وليس في مقدوره أن يعتمد إلا على موارده فتحمل هذه الصدمة إلى حين ولكنه انتهز في شهر آب فرصة زيارة الكولونيل ولسون لـ"ينبع" التي كانت قد فتحت منذ أمد غير بعيد وأخذ يحدثه عن حاجاته القصوى إذا كان يريد الإنجليز حقاً مقاومة الأتراك.

وتأثر ولسون من حديث فيصل ومن قصته التي رواها ووعده بإرسال المدافع في الحال.

ووفى ولسون بوعده فأرسل إليه عدداً من رجال وضباط الحماية المصرية في السودان. وهذا هو السر في مجيء نافع بك ومن معه.

وانشرح صدر العرب بقدوم هؤلاء الضباط والجنود فاعتقدوا أنهم أصبحوا لا يقلون عن الأتراك شأناً ولكنهم في الواقع كانوا لا يملكون غير أربعة مدافع من نوع "كروب" القديمة التي لا ترسل القنبلة إلى أبعد من ثلاثة آلاف ياردة.

ولم يكن هؤلاء الجنود يعرفون القتال غير المنظم ومع هذا فقد هجموا مع البدو

غير النظاميين على المراكز الحربية التركية فاستولى الذعر على فخري وجاء لمراقبة ما يجري في الجبهة الحربية بنفسه. وفي الحال أمر بتحصين الحامية التي كانت مرابطة في بئر عباس، وزيادة عددها إلى ثلاثة الآلاف رجل من الأشداء.

وكان الأتراك يملكون عدداً كبيراً من المدافع المتنوعة وكانوا في مركز مرتفع يسمح لهم الإشراف على كل ما يدور حولهم فبدأوا يقلقون العرب، ويوقعون الخوف في قلوبهم بإطلاق الرصاص في الهواء ولكن حدث أن أصابوا خيمة فيصل بينما كان كل شيوخ العرب يتحدثون إليه في داخلها فطلب فيصل من القوة المصرية مقابلة النار بالنار فاعتذرت أن مدافعها غير صالحة للاستعمال وأنه ليس في وسعها أن تصيب هدفاً على بعد تسعة آلاف ياردة كما تفعل المدافع التركية فلم يكن من البدو إلا أن ازدروا بهذه القوة وسخروا منها، واستولى اليأس على فيصل.

وكان رجال فيصل في حالة الإعياء كما أنه كان قد فقد العدد الكبير منهم وكان كل ما في وسعه عمله أن يصيد الأتراك صيداً فينقض على الذين كانوا يسيرون منهم في مؤخرة الجيش ويخطفهم خطفاً وكان عمله هذا ولا شك من الأعمال التي تتطلب جرأة وأعصاباً من حديد.

فقد فيصل العدد الكبير من القتلى والجرحى كما أنه فقد عدداً من جماله وكان يشعر أنه وحده المسؤول عن هذه الثورة العربية بينما كان يقيم عبد الله في مكة ويقيم علي وزيد في رابغ يستمتعون بالحياة الناعمة الهادئة.

وأخيراً جمع فيصل كل رجاله ولم يترك غير رجال قبيلة حرب لتضايق الأتراك بغزواتها الفجائية التي كان يرى أنه من المتعذر، بل من المستحيل عليه القيام بها، ولكنه كان شديد التخوف من عودة الأتراك إليه. والانقضاض فجأة عليه.

ولم تكن عزلة فيصل في الحمراء إجبارية. ولكنها كانت تدل على مبلغ

امتعاضه من الحالة فقد كان يشعر شعوراً عميقاً بعجزه الواضح. وكان يريد أن يتخفى ليحافظ على مهابته حتى تتبدل الحالة تسعفه الظروف.

وقد سألته عن الخطة التي ينوي اتباعها في الوقت الحاضر فقال إن الأمور كلها معلقة على سقوط المدينة وأن الأتراك يحاولون الاستيلاء مرة ثانية على مكة. وأن العرب قد أصبحوا في ذعر مستمر فالقوات التركية لا تستقر في مكان بل باتت تنتقل كما تشاء حول رابغ، وأن مقدرة العرب لا تظهر بجلاء عند المقاومة السلبية وعلى هذا ففي الوقت الذي يتحرك فيه الأعداء ينبغي أن نقابلهم بالهجوم حالاً.

وأما مولود الذي كان يصغي إلى هذا الحديث الطويل البطيء متململاً فقد انفجر أخيراً صارخاً إذ لم يعد يحتمل أكثر مما احتمل: "دعنا من هذه السيرة... إن الشيء الوحيد الذي نحتاج إليه هو أن نقاتل. ونقاتل. إلى أن نقضي على الأتراك عن آخرهم... قدّم لي المدافع وأنا كفيل بأن أقوم بكل شيء، إننا نكثر من الأقوال ولكننا لا نفعل شيئاً".

وفي الواقع أن مولود هذا كان من مهرة المقاتلين الجبابرة... وكان يعد المعركة التي لا يُجرح فيها لا قيمة لها بل هي من المعارك الذاهبة سدى فقد كان الجرح في نظره دليلاً صحيحاً على اشتراكه في القتال. وقد طلب اليَّ أن انهض ليحدثني حديثاً خاصاً فنهضت فأخذنا نتمشى معاً بينما فيصل ينظر إلينا قرير العين لا يخفي سروره.

تبين لي من حديث مولود أنه رجل شرس، مذبذب مضطرب. لا يدري هل يستسلم للتفاؤل أو للتشاؤم وكان في ذلك الوقت يكاد يموت من التعب كان يبدو أكبر سناً مما هو، مع أنه لم يتجاوز الحادية والثلاثين، وكان مظهره الخارجي يدل على انصرافه إلى التأمل والتفكير.

هو طويل القامة، جميل المنظر، ذا همة ونشاط، ويمتاز بمشيته البديعة، وتظهر عليه دلائل المهابة وعلى الأخص عندما تتطلع إلى رأسه وكتفيه.

أما حركاته فكانت تنم عن تسرع وتهور كما تنم عن عنف وشدة وكانت الدلائل كلها تدل على سرعة تأثرة بل وعلى تجاوزه الاعتدال في كل عمل يقدم عليه. وكانت شخصيته القوية، وشجاعته النادرة، ومباهاته بنفسه، من الأسباب التي جعلته معبود محبيه ومريديه.

وقد تلقى أفانين السياسة على يدي السلطان عبد الحميد فبرع فيها كما أن مواهبه الحربية أكسبته المقدرة في فن القيادة، وتنظيم الجيوش وأن حياته في اسطمبول قد أتاحت له الاطلاع على القضايا الأوروبية، وعلى العادات الأجنبية فهو ممن يعرفون كيف يحكمون على الناس وكان حكمه يدل على فطنة وذكاء وعناية.

وهو رجل يعيش لعمله، ولعمله وحده لا لشيء آخر. يفني نفسه قبل الأوان بمحاولته الظهور بمظهر أرقى من حقيقته وقد يكون انهماكه الشديد في العمل هو العامل الأكبر في موته الباكر.

وقد حدثني رجاله عن قواه البدنية وكيف انحطت على أثر اندفاعه في القتال، وأنه وقع بينهم مرة فاقد الرشد لشدة ما بذل من جهد.

وبعد أن حققت الغرض الذي جئت من أجله رأيت من واجبي أن أعود إلى مصر متخذاً أقصر الطرق لأحمل هذه الأخبار التي تزودت بها.

وكانت المعلومات التي استقيتها في هذه الأيام بين غابات النخيل سبباً في تفرعها في مخيلتي، وقد أيقنت أن الثورة العربية ستكون السبب في تمزيق تركيا، وتحرير بلاد العرب ولكن الإنجليز الذين كانوا في القاهرة، يفتقرون لهذه الثقة، وهم يكادون لا يعرفون عن العرب شيئاً.

أجل صممت على خدمة العرب بالتحدث للإنجليز في مصر عن الحاجات القصوى التي تنقصهم. والواقع أن العرب استقبلوني بترحاب وقد توهموا في بادئ الأمر أني من الضباط الأتراك الذين انفصلوا عنهم وهجروهم وكان يخيل إليهم أن الحرب العالمية ستستغرق عشر سنوات وقد جئتهم بالخير والذهب. وأخذوا ينعمون بسنوات شبع لم يروا مثلها في كل تاريخ حياتهم، فإن الشريف أصبح لا يطعم فقط الرجال الذين انضموا إليه. بل يطعم أيضاً الأسرى.

وكان البدوي يتقاضى شهرياً جنيهين إنجليزيين ذهباً... وكان الإنجليز يبتاعون الجمل منه بثمن طيب.. والذهب الإنجليزي هو الذي جعل البدو يقومون بهذه المعجزة. معجزة الاستمرار في القتال خمسة شهور كاملة.

وكانت العائلة التي تملك بندقية واحدة تنظم أمورها فتترك أحد أفرادها يقاتل مع فيصل أياماً قليلة ثم يعود ليحل شقيقه أو والده مكانه.

وكان البدوي المتزوج في حيرة لا يدري هل ينصرف إلى القتال أم إلى الحياة الزوجية لهذا كان يتنقل بين ساحات القتال وأحضان نسائه.

وفي بعض الأحيان كانت القبيلة برمتها تأبى القتال وتستسلم إلى الراحة.

وكان جيش فيصل مؤلفاً من ثمانية آلاف عربي تسعة أعشارهم من سكان التلال لا يخضعون إلا لأوامر شيوخ قبائلهم.

وذات مساء عدنا مع فيصل ومولود من تجوالنا بين النخيل فجاء بعض العبيد يحملون المصابيح لينيروا لنا الطريق وكانت صالات الاستقبال غاصة بالزائرين الذين كانوا يترقبون عودتنا.

ومن أحاديث تلك الليلة اعتقدت في الحركة العربية وأيقنت أن سحر الغنائم

هو الذي يدفع البدو إلى اقتلاع الخطوط الحديدية. ونهب القطارات. وسلب القوافل وسرقة الجمال.

إن البدو لا يحبون أن يتلقوا الأوامر من أحد أو أن يحاربوا حرباً منظمة فكانوا في الحقيقة من المحاربين الأحرار: والمحارب الحر لا يمكن أن يكون جندياً من النوع المطلوب. لهذا كان من العبث محاولة تدريبهم، وكان كل ما هم في حاجة إليه أن تمدهم بالمدافع.

وكانت المعارك الحجازية تدور رحاها في مملكة صخرية جبلية فاصلة وكان خصوم العرب أقوياء قد أعدوا العدة الكاملة للقتال يساعدهم الألمان.

أما البدو فكانوا يظنون أن الأسلحة تكون مبيدة على قدر الأصوات التي تحدثها فقد كانوا لا يخافون من الرصاص. وكانوا لا يبالون كثيراً بالموت الطبيعي ولكنهم كانوا يهلعون أشد الهلع من القنابل التي لا يريدون أن تمزق أجسادهم بشظاياها.

وقد تبين لي أنه بوسعنا أن نعيد الثقة إلى نفوسهم بتقديم المدافع إليهم سواء كانت من النوع الذي يفيدهم أو الذي لا يفيدهم ولكن ينبغي أن تكون هذه المدافع من النوع الذي يحدث أضخم دوي. وكنا لا نسمع طول مدة إقامتنا مع فيصل غير حديث عن موضوع واحد.

المدافع!... المدافع!... المدافع...

وفي الواقع أني سررتُ باتساع الثورة العربية. ووعدت فيصل بأن قومي سيمدونه بعدد من أسرى الضباط العرب الذين وقعوا في أيديهم في العراق أو في مصر. وأنهم سيقدمون إليه عدداً من المدافع الموجودة الآن في القاهرة وأخيراً أشرت عليه أن يستعين بالضباط الإنجليز الفنيين على أن تقتصر مهمتهم على الإرشاد والنصح فقط.

وكان فيصل يصغي إليَّ منشرحاً، وقد أخذ يغمرني بفيض من المديح والشكر. وقلت له إن رؤسائي قد يسمحون لي بزيارته في المستقبل إذا قدر لحركته أن تنجح، كما أني سألته أن يقدم لي التسهيلات اللازمة لعودتي إلى مصر.

وقد بلغ من عناية فيصل بأمري أن أرسلني مع حارس خاص إلى ينبع وكان حاكمها مكياً فاستقبلني استقبالاً طيباً وأضافني عدة أيام.

وكان سر دار الجيش المصري السير ريجنالد هو القائد الحربي للثورة العربية. فكان من الضروري أن أطلعه على هذه الأخبار التي توصلت إليها. فسافرت معه إلى الخرطوم وقد كان يومئذ بالصدفة في جدة. وهناك أخذت أقدم له التقارير الطويلة التي أعددتها. وفيها أظهر الأماني والآمال التي أعقدها على الثورة العربية التي كانت في حاجة إلى المساعدة الفنية الحاذقة. وضرورة إرسال بعض الضباط الإنجليز من أصحاب المواهب الفنية والذين يستطيعون التكلم بالعربية لمساعدة قواد العرب كمستشارين فنيين، وأن هذا هو الطريق الوحيد لتحكيم الصلات بيننا وبين العرب.

وكان يصغي إلى هذه الأحاديث مسروراً من تفاؤلي فقد كانت الثورة العربية حلمه الذي ملك عليه كل تفكيره طوال السنوات الماضية.

وبعد أن قضيت ثلاثة أيام في الخرطوم عدت إلى القاهرة وأنا أشعر بأن الرجل المسؤول قد قبل كل الآراء التي عرضتها عليه.

الفصل الرابع
وصف دقيق لحياة فيصل في المعسكر

بعد أن قضيت أياماً قليلة في القاهرة طلب اليَّ رئيسي الجنرال كلايتون أن أعود إلى بلاد العرب لمقابلة فيصل. فقلت إني لا أصلح لهذا العمل مطلقاً وإني أتحاشى المسؤولية ولست جندياً، وأكره الحياة العسكرية.

وأرسل السردار برقية إلى لندن يطلب أحد القواد البارزين لقيادة الثورة العربية، وقد صرح كلايتون أن هذا العمل يستغرق شهوراً وأن فيصلاً لابد أن يكون على اتصال دائم بنا. وقد أبلغنا حاجاته ولهذا كان عليَّ أن أذهب إليه وقد تركت لغيري الجريدة العربية التي أسستها والخرائط التي كنت عاملاً على وضعها.

قصدت ينبع التي كانت يومئذ القاعدة الخاصة للجيش الفيصلي وبينما كنت في طريقي لزيارة فيصل علمت أن الأتراك انهزموا واضطروا للفرار إلى التلال، ولكن العرب أخذوا يقتفون أثرهم حتى شتتوهم، لهذا بدأت رحلتي مع الشريف عبد الكريم وأنا جد مغتبط بهذا الخبر.

وكان مع الشريف عبد الكريم ثلاثة أو اربعة من رجاله يمتطون جمالهم وأسرعنا في المسير بسرعة جنونية فوصلنا إلى "نخل مبارك" في جنوب جهينة فلما اقتربنا وجدنا ناراً مشتعلة بين أشجار النخيل، وآلاف الجمال الهائجة، وأصوات الطلقات النارية، وصراخ الأفراد الذين ضلوا الطريق في الظلام تصم الآذان وكنا قد سمعنا في

ينبع أن هذه المنطقة ـ أي نخل مبارك ـ مهجورة فعجبنا لمثل هذه الضجة وخيل إلينا أننا قد وقعنا في أيدي الأعداء فزحفنا رويداً رويداً حتى وصلنا إلى مكان هادئ فيه بعض الدور، فدخل عبد الكريم فناء إحداها، وأدخل الجمال وعقلها ثم انسل على أطراف أصابعه إلى الجهة التي كان يأتي الصوت منها ثم عاد إلينا بعد نصف ساعة يقول إن فيصل قد وصل مع رجاله وإن علينا أن ننضم إليه. فأخرجنا الجمال وسرنا وسط جمهور كبير من العرب... والجمال... وكان الازدحام كبيراً إلى حد لا يتصوره العقل. وكان هؤلاء البدو يصرخون صراخاً يشق عنان السماء ولكننا مع هذا استطعنا أن نشق لأنفسنا طريقاً حتى وصلنا إلى وادي ينبع وهو من الأودية المنبسطة في الفضاء الفسيح، شديد الرطوبة، وكانت الأرض لزجة فأخذت جمالنا تنزلق فوقها خائفة وكنا في الحقيقة لا نلاحظ شيئاً من هذا لأن حواسنا كلها متجهة إلى جيش فيصل الذي كان يملأ الوادي ووجدنا البدو قد أشعلوا النيران في مئات من الأماكن وجلسوا حولها يشربون القهوة ويأكلون وبعضهم استسلم إلى الرقاد.

ورأينا في منتصف الوادي الشريف فيصل فأوقفنا الجمال ونزلنا فإذا به جالساً بين الشريف شرف قائمقام الطائف وعمارة ومولود الوطني العراقي وأمامه بعض السكرتيرية يملي عليهم بعض الأوامر فابتسم فيصل في وجهي واستمر يملي رسالته ثم اعتذر لي عن استقباله إياي بمثل هذا الفتور، وطلب من عبيده أن ينصرفوا حتى يتاح لنا التحدث على انفراد فانصرفوا ثم أخذ فيصل يحدثني عما وقع في الجبهة خلال الأربع وعشرين ساعة الأخيرة قائلاً إن الأتراك زحفوا إلى وادي صفراء، وأنهم جاءوا من طريق وسط التلال ثم توقفوا فجأة. أما رجال قبيلة حرب فقد استولى عليهم الاضطراب والرعب فاختفوا بين الأودية والأخاديد التي كانت على الجانبين ونجوا.

أما الخيالة الأتراك فقد وجدوا الوادي فارغاً فقصدوا بئر سعيد حيث كان الأمير زيد شقيق فيصل الأصغر معسكراً مع فرقة من قبيلة حرب.

هجم الأتـراك على زيـد . على حين غـرة وهزمـوه وبـددوا شمـل رجالـه الـذين تلاشوا وولوا هاربين في الليل مولين وجوههم صوب ينبع وبـذلك أصبح الطريـق إلى ينبع مفتوحاً في وجوه الأتـراك ولهـذا جاء فيصل قبـل وصـولنا بـساعة واحدة ومعه خمسة آلاف مقاتل ليحمي مركزه إلى أن تتخذ تدابير الدفاع المنظمة.

وكان الموقف خطراً ولكن وجود فيصل في هذا الموضع كان من شـأنه أن يجذب الأتراك ويجبرهم على إضاعة بعض الأيام في محاولة الاستيلاء على هذه المنطقة بينما نكون نحن قد تمكنا من تحصين ينبع.

وفي الوقت نفسه كان فيصل يبذل ما في وسعه لإنقاذ الموقف ولم يكـن اليـأس قد تسرب إلى قلبه بل كان في الواقع منشـرح الصدر فجلسنا بجانبه. وأخـذت أصـغي إلى أخباره أو بالأحرى إلى مطالبه وشـكاويه والـصعوبات الـتي كانـت تحيط بـه فكنـا نعالجه أونبت فيها سريعاً.

وقد استغرق هذا العمل معظم ساعات الليل فلبثنا حتى الرابعة والنصف صباحاً نتحدث ونتشاور وكان الطقس شديد البرودة.

وكان المعسكر قد ساده الهدوء تدريجياً إذ بلغ التعب أقصى حدوده من نفـوس البدو فأخذوا يحيون وينصرفون.

وبعد أن انتهى فيصل من عرض الأعمال المستعجلة التهمنا ما قدم لنا من التمر ثم نمنا وبينما كنت راقداً أرتجف رأيت الحرس يتقدمون في هدوء ويغطون فيـصل في لطف بعباءتهم بعد أن تأكدوا أنه قد نام.

وبعد ساعة استفقنا من نومنا، وكان الرسل لا يزالون يتوافدون من كل حـدب وصـوب حـاملين الإشـاعات المقلقـة عـن قـرب مباغتـة الأتـراك لنـا فـصمم فيـصل علـى الانتقـال إلى مكـان آخـر وذلـك لأن الـسيل كـان يغمرنـا إذا هطـل المطـر، ومـن جهـة

أخرى كان فيصل يريد أن يصرف عقول رجاله عن التفكير بالأتراك وهجماتهم المنتظرة.

قُرعت الطبول. وحملت الجمال بسرعة وكان عددنا في ذلك الصباح ثمانمائة.

وقضيت اليومين التاليين مع فيصل وخبرت موقفه في القيادة عندما تشتد الخطوب ويدب اليأس إلى القلوب نظراً للأخبار المزعجة التي كانت تصلنا. ولارتداد بعض رجال قبيلة حرب الذين كانوا يقيمون في الشمال... وكان فيصل يشترك في القتال بنفسه ليبعث الأمل والحياة في رجاله. ويقاوم روح القلق التي استولت عليهم وكان يقف أمام خيمته بحيث يمكن لأي بدوي أن يجتمع إليه ويحادثه. ولم يكن يهمل أي شكوى ترفع إليه حتى ولو كان المشتكون على جماعته وجاءوا بشكاويهم ليلاً. أجل، كان يصغي على الدوام، وإذا لم يكن في وسعه أن يحل المسألة بنفسه فإنه كان يدعو شرفاً أو فائزاً لحلها.

وإن هذا الصبر العظيم كان درساً جديداً لي، وكانت الزعامة في بلاد العرب تتطلبه قبل أي شيء آخر.

وجاء مرزوق التهامي يقص قصة اندحار زيد فأظهر فيصل استهزاءه علناً وترك ذلك الرسول وقام لمقابلة شيوخ قبيلة حرب وعقيل الذين كانوا السبب الرئيسي لوقوع هذه النكبة بسبب إهمالهم. لهذا عمد فيصل إلى تأنيبهم بلطف عما بدر منهم.

ثم استدعى مرزوقاً وأنزل حاشية الخيمة فخشيت أن يقع شيء لا تحمد عقباه ولكنه أشار إلى الشيخ مرزوق وقال:

"تعال، وقص علينا أعمال البطولة التي قمتم بها في تلك الليلة وصف لنا كيف هربتم، تعال".

وكان صوت فيصل موسيقياً مشبعاً وكان يعرف كيف يستخدمه في التأثير على رجاله.

وكانت عادة فيصل أن يحدث البدو بلهجة القبائل بطريقة عجيبة كأنه يتردد بين كل عبارة وأخرى تردداً يدل على ألم وتوجع ويحاول أن يتعمق ليصل إلى الكلمة المطابقة لما يجول في نفسه، وعباراته التي ينتقيها في نهاية الأمر هي عادة أسهل ما يورده في حديثه الذي يمكن أن تستدل منه على مبلغ إحساسه وإخلاصه وعظمة جرأته.

أما حياتنا في المعسكر فكانت بسيطة وعلى وتيرة واحدة. كان ينهض أمام الجيش قبل الفجر مؤذناً للصلاة بصوت جاف قوي جداً فكنا نضطر إلى القيام سواء صلينا أو أمطرناه وابلاً من التذمر ولا يكاد ينتهي حتى يقيم إمام فيصل الصلاة بصوته الرخيم الموسيقي وكان الفرق بين الصوتين وتأثيرهما عظيماً.

وبعد دقائق قليلة يتقدم أحد عبيد فيصل الخمسة يحمل إناء القهوة فيدور بها علينا وبعد ساعة يتقدم إلى الأمير فيصل أقرب الناس إليه. وبعد أن نستمع الأخبار ونتبادل تحيات الصباح يطاف علينا بصينية لا تخلو مطلقاً من التمر. وأحياناً كان يوزع علينا العبيد بسكوتاً غريباً. يصنعونه بأيديهم، ولكن تجاربهم هذه لم تكن موفقة أبداً. وبعد أن نتناول طعام الصباح نأخذ في شرب القهوة تارة والشاي تارة أخرى بينما ينصرف فيصل لإملاء رسائله على سكرتير.

وكان أحد هؤلاء الكتبة "فايز" من المخاطرين المقتحمين وكان "إمام" الكاتب الثاني لفيصل من النوع الذي لا يفارقه الحزن والاكتئاب وقد اشتهر في الجيش بمظلته التي كان يعلقها في قربوس سرجه.

وكانت خيمة فيصل الخاصة لا تخلو مطلقاً من السجاير. وبها سرير من أسرة المعسكر. وسجادة كردية جميلة. وبساط شيرازي. وسجادة قديمة يستعملها للصلاة.

وحوالي الساعة الثامنة صباحاً كان ينتقل فيصل إلى خيمة الاستقبال. ويحاول ان ينهي أعماله قبل الظهر.

ونعود إلى التلاقي في خيمة الجلوس العادية فيأتي إلينا سالم بصينية عليها طعام الغداء وكانت تختلف ألوان الطعام التي تقدم إلينا تبعاً للظروف.

ويعد فيصل من المدخنين المفرطين ولكنه لا يتناول غير مقدار صغير من الطعام فقابليته للأكل ضعيفة. وكان قد تعود أن يتظاهر بأنه يأكل فيحدث حركة بأصابعه أو بمعلقته وسط أطباق من الحبوب والعدس ،والسبانخ والأرز. والكعك اللذيذ حتى يظن جلساؤه أنه تناول قدراً كافياً من الغداء وبهذه الوسيلة يشجعهم على الأكل دون أن يشعرهم بذلك ثم تختفي الصينية بإشارة منه بينما يتقدم بعض العبيد لصب المياه على أيدينا ونحن وقوف على باب الخيمة. وبعد أن نتناول الطعام نقضي مدة وجيزة في الحديث وشرب القهوة والشاي.

ويظل فيصل في خيمته الخاصة حتى الثانية بعد الظهر يصرف وقته إما في النوم. أو القراءة أو الأشغال الخاصة. ثم يعود للجلوس في خيمة الاستقبال حتى ينتهي من الحديث مع كل من جاءوا لمقابلته ولم أرَ عربياً واحداً شكا من فيصل أنه آذاه أو ألحق الضرر به. وهذا كله ولا شك ناتج عن مهارته. وقوة ذاكرته التي كانت تتجلى لي عند كل حادث.

ثم يخرج إلى النزهة مع أصدقائه إذا اتسع له الوقت فيتناول العشاء بين السادسة والسابعة.

ويطوف عبيده على الحاضرين في مركز الرئاسة فلا يتركون واحداً منهم. وطعام العشاء لا يختلف عن طعام الغذاء.

وكان فيصل لا ينام إلا في ساعة متأخرة من الليل. وكان يعمد في المساء إلى

الاستلقاء متجنباً الأعمال التي لا ضرورة قصوى لها. ومن النادر أن تراه يقدم على لعب الشطرنج وإن كان يجيد هذه اللعبة إجادة تدل على عقل نير.

وكان يحدثني أحياناً عما شاهده في سوريا ويقص عليَّ قصصاً من تاريخ المؤامرات التركية السورية أو بعض شؤونه العائلية ولهذا استطعت الوقوف على الشيء الكثير من أحوال الرجال. والأحزاب في الحجاز من فم فيصل ذاته.

وسألني فيصل فجأة إذا كنت أريد ارتداء الثياب العربية التي كان هو نفسه يرتديها. على الأقل أثناء وجودي في معسكره، وقد وجدت هذا الاقتراح في مصلحتي لأن الثياب البدوية مريحة إلى الحد الأقصى وفضلاً عن هذا فإن البدو حينما يروني أرتدي ثيابهم تزول ريبتهم من وجودي بجانب فيصل فإن الذين كانوا يرتدون الثياب "الكاكي" كانوا من الضباط الأتراك وكان العرب يميلون بفطرتهم لمهاجمتهم والاعتداء عليهم فإذا ارتديت العباءة العربية كان ذلك سبباً لمودتهم ويصبح في مقدوري أن أدخل وأخرج من خيمة فيصل بسهولة.

وافقت على اقتراح فيصل حالاً. وأظهرت له شدة اغتباطي فأمر فيصل أن يأتوا لي بثياب عربية حريرية فاخرة، وبقمصان مزركشة بخيوط من ذهب، وبغيرها من الثياب التي كانت لا ترتدى إلا في الأعراس. وبمعنى آخر قد جعل مني عريساً بدوياً وكانت الثياب قد جاءته مؤخراً من مكة.

وبعد أن ارتديت هذه الثياب الفضفاضة الجديدة تجولت وسط أشجار النخيل لأعود نفسي عليها، وشعرت عند ذلك أن الأفضل أن أعود إلى ينبع لصيانة هذا الميناء ووعدت البحرية الإنجليزية بتقديم كل مساعدة ممكنة، لهذا قر قرارنا أن اجتمع بزيد وأن أعمل وإياه على الخروج من هذه الورطة، وبعد ست ساعات وصلنا إلى ينبع قبل الفجر. وذهبت تواً إلى (جرلند) واستغرقت في النوم على مقعد وجدته

هناك. ثم جاء إلي من يحمل خبر وصول الشريف زيد معه جماعته المنهزمين. فخرجت لمقابلته فوجدت معه ثمانمائة رجل عليهم إمارات الكمد. وذل الهزيمة. ولكن زيداً نفسه لم يكن يبالي بشيء. ولما دخل المدينة صرخ في وجه الحاكم عبد القادر الذي كان راكباً على جمله ويسير وراءه قائلاً:

- "لماذا مدينتك مخربة مدمرة؟... لابد أن أرسل برقية إلى والدي أطلب فيها 40 بناء لترميم الأبنية العامة"... وهذا ما فعله.

وطلب اليّ أن أرسل برقية إلى الكابتن بويل أكبر ضابط إنجليزي في البحر الأحمر أقول فيها أن ينبع مهددة تهديداً خطراً. فأرسل بويل في الحال رداً لبرقيتنا يقول بأن الأسطول سيصل إلى ينبع في الوقت المناسب. فكان هذا الاهتمام أعظم عزاء للشريف زيد.

وبلغنا في اليوم التالي خبر محاصرة الأتراك لقوات الشريف فيصل قبل تمكنها من الاستقرار والتأهب للقتال.

وبعد معارك بسيطة تقهقر فيصل ومن معه فحملت آلة التصويرووقفت على حاجز مرتفع في المدينة وأخذت أصور هذا المشهد. مشهد دخول هؤلاء الإخوان. وكان عددهم يقرب من ألفي رجل ولكن لم يكن بينهم أحد من قبيلة جهينة. وكان عمل هذه القبيلة يدل على الخيانة وعلى انقسام القبائل بعضها على بعض.

وقد أخبرني فيصل أن الأتراك جاءوا إلى ينبع وأطلقوا عدة مدافع على "نخل مبارك" وكان معهم سبعة مدافع ولكنه لم يستسلم للخوف. فأمر بإطلاق النيران على الأتراك بمدفعين من عيار خمسة عشرة ليبرة وكان راسم أحد الضباط السوريين الذين اشتغلوا في الجيش التركي هو الذي يطلق هذين المدفعين وقد عرف كيف يستغلهما استغلالاً عظيماً. وقد أرسلا إلى فيصل كهدية من مصر ولكنهما كانا من

النوع القديم. لهذا كان راسم يستغرق في الضحك وهو يستعملهما ويسخرمن هذا النوع من القتال. فلما وجد البدو أنه لا يبالي بالأتراك إلى هذا الحد عادت إليهم شجاعتهم وقال واحد منهم:

ـ والله هذه هي المدافع الحقيقية. ألا ترون أصواتها. وأقسم راسم أن جثث الأتراك أصبحت أكواماً... وصدق البدو هذا القسم فضاعف من حماسهم.

وكانت الأمور تسير سيراً طيباً. وكان فيصل يؤمل الفوز ولكن حدث أن قبيلة جهينة انشقت عن فيصل، فجأة. فأسرع فيصل إلى راسم وأخبره بأن بدو جهينة قد خانوه وغدروا به فعاد راسم ومعه رجال فيصل تاركين قبيلة جهينة مع قائدها الشريف عبد الكريم.

وبينما كنا نصغي إلى هذه النهاية المحزنة ونلعن هؤلاء الخونة الذين غدروا بفيصل سمعنا حركة على باب الخيمة ثم وجدنا عبد الكريم يشق له طريقاً بين عبيد فيصل وينحني أمامه ويقبله في رأسه تحية تدل على إجلال. ثم جلس بجواره.

وتفرّس فيصل فيه وأطال التحديق ثم أخذ يتنفس تنفساً سريعاً وهو يقول:

ـ كيف؟... كيف؟

وانفجر عبد الكريم في الحديث فأخذ يوضح الخجل الذي لحقهم بسبب سفر فيصل الفجائي.. وكيف قام هو وشقيقه ورجالهما الأبطال البواسل بمقاتلة الأتراك قتالاً استغرق الليل بطوله مع افتقارهم الكلي للمدافع وللذخيرة إلى أن اكتسحهم الأتراك فولوا هم أيضاً هاربين بين أدغال النخيل. وأقبل شقيقه وقصد رجاله في وادي ينبع يطلبون المياه لإرواء ظمأهم.

سأله فيصل:

ـ ولماذا تراجعت إلى الأراضي التي كانت وراءنا؟

أجاب:

ـ لأعد فنجاناً من القهوة.

لقد حاربنا منذ بزوغ الفجر... وكنا في حالة عطش لا توصف وقد أضنانا التعب.

وكنا نحن نسمع هذا الحديث فنستغرق في الضحك ثم نهضنا لنبذل كل ما في وسعنا لإنقاذ المدينة.

وينبع تعلو عن سطح البحر نحو 20 قدماً تكتنفها المياه عن جانبيها. والجانبان الآخران عبارة عن مساحات مترامية الأطراف من الرمال. مهجورة. موحشة لا ماء فيها وكنا نرقب المدافع كل دقيقة لتحصينها فإن الكابتن بويل قد وعد بمساعدتنا وكانت عادته أن يفعل أكثر مما يعد.

وجاءتنا خمس عشرة سفينة مشحونة وصلت عند اشتداد الحاجة إليها.

وأخذ العرب يعدون هذه السفن الراسية في الميناء وهم لا يكتمون غبطتهم الشديدة وتعالت أصوات الفرح. وقضينا الليل بطوله لا نذوق النوم فقد كنا ننتظر هجوم الأتراك في الساعة الحادية عشرة ليلاً. وكان رجالنا قد اكتشفوا الأتراك على مسافة ثلاثة أميال من المدينة ولكن شجاعة الأتراك قد خانتهم عندما رأوا الأنوار القوية في السفن. والميناء تعج عجيجياً بالحشد فلم يجدوا مناصاً من التقهقر. وفي هذه الليلة نفسها قطعوا الأمل من قتال العرب. وأعتقد أنهم أيقنوا من خسارتهم الحرب في الليلة نفسها.

ووصل رجال ابن عم أبو تايه ومن زعماء المقاتلين في السابع عشر من شباط

وكانت أيامنا فيه سعيدة. ففي فجر ذلك اليوم وصل خمسة رجال من قبيلة الشرارات قادمين من الصحراء الواقعة شرق تبوك يحملون معهم هدايا من بيض النعام العربي ثم جاء بعدهم جماعة من بدو الحويكات المخيمين في سهل معان وكانوا من اشد المقاتلين البارعين. وكانت الخصومة مستحكمة بينهم وبين رجال عودة وكان من دواعي سرورنا أن يتحمل هؤلاء الشيوخ مؤونة المجيء لتحيتنا من منازلهم النائية.

ودارت أحاديث خاصة فيما بيننا وبين زحال. وقدمنا إليه قبل رحيله الهدايا الثمينة. وأكثرنا له الوعود وانصرف حاملاً رسالة من فيصل إلى عودة يقول فيها بأنه لا يطمئن إلا بعد أن يراه رؤى العين في الوجه. أما عودة فهو من الشخصيات المشهورة بشهامتها، وقضية كقضية العقبة لا تحتمل منا الخطأ لهذا كان ينبغي حضوره لندرس حالته ولنتفاهم معه على خطط المستقبل.

وأقبل الشريف شاكر لزيارة فيصل وهو زعيم عتيبة وفارسها المغوار، اشتهر بإجادة ركوب الخيل والرماية. وهو شجاع مقدام وغني موسر. يميل إلى البساطة في ثيابه ومأكله بل كانت عاداته كلها كعادات البدو الرحل لا يختلف عنهم حتى في ضفائر شعره.

والواقع ان هذا اليوم كان خلافاً لأيامنا السابقة حافلاً بالحوادث التي أخصبت مذكراتي. وكانت الطرق الموصلة إلى الوجه غاصة بالرسل والمتطوعين. وكبار الشيوخ الذين جاءوا يقسمون لفيصل يمين الطاعة فكان يأخذ منهم العهود على الإخلاص للقضية العربية وحسن المعاملة لكل عربي. وأن يضعوا الاستقلال فوق الحياة، والعائلة، والمصلحة الشخصية.

وهكذا جمع فيصل بين الخصوم وأزال ضغائنهم وكانت هذه "المصالحات" تتطلب في بعض الأحيان مالاً فكان ينفق من ماله الخاص. وفي هذا من التضحية ما فيه.

وظل فيصل زهاء السنتين. وهو يجهد نفسه إجهاداً متواصلاً في سبيل تنظيم القوى وتوحيد الصفوف للقضاء على الأتراك.

وكان فيصلاً في أحكامه كلها مثال النزاهة وعدم التحيز كما أنه لم يأت بحكم واحد متعذر الإنقاذ أو رأياً يقود إلى الفوضى والارتباك. ولم يكن في استطاعة أي عربي تفنيذ أحكامه أو معارضتها كما لم يكن أحد منهم يرتاب في درايته بكل شؤون القبائل وجدارته في تصريفها تصريفاً لائقاً وصالحاً.

وكان فيصل يغربل الآراء التي تقدم إليه ومن النادر أن نجد عربياً يضاهيه لباقة ودهاء. وحسن ذوق. وقوة حافظة. إن هذه الصفات قد مكنته من السيادة على البدو الرحل بين المدينة ودمشق وما بعد دمشق وأصبحت الحركة العربية قومية ولم تعد قائمة على المصالح الذاتية.

والبدو قوم غريبون كل الغرابة فهم عبيد ميولهم وشهواتهم. لا يحكّمون عقولهم. يغرقون في شرب القهوة. والحليب والماء. ولا يجدون عاراً في شحاذة التبغ.

وبات مركزنا الحربي منيعاً في الوجه وأرسل إلينا اللنبي سيارتين من نوع "رولز رويس" المسلحة وأخلينا ينبع مما بقي فيها من الجنود والذخيرة كما هجرنا رابغ.

وفي ذات مساء أقبل سليمان الذي عهدوا إليه مهمة استقبال الضيوف. وهمس في أذن فيصل كلمات فأقبل فيصل متظاهراً بالهدوء ولكنه لم يستطع أن يخفي سروره الذي كان يبدو جلياً على أسارير وجهه وفي عينيه فقال:

ـ عودة هنا!... فصرخت: عودة أبو تايه؟

وهنا دخل رجل طويل القامة. قوي البنية. شاحب الوجه هزيل. وكان مظهره يدل على حدة وسرعة غضب كما يدل على حماسة وحمية. هذا هو عودة. وقد أحضر معه ابنه الذي لم يكن يختلف عنه وإن كان لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره.

قفز فيصل من مكانه لاستقبال عودة الذي أمسك في الحال بيده وقبلها ثم سار الاثنين معاً خطوة أو خطوتين لا يرفع الواحد نظره عن الآخر. والواقع أن مظهرهما كان جميلاً وإن كان الفرق بينهما جسيماً، هما يمثلان أفضل ما في بلاد العرب، فيصل نبي الوطنية، وعودة المقاتل الجبار، كل منهما يقوم بقسطه من العمل إلى حد الكمال والإتقان. وفي الحال تم التفاهم بينهما. وأحب الواحد الآخر من النظرة الأولى، ثم جلسا، وأخذ فيصل يقدمنا واحداً واحداً، وكان عودة بعد كل اسم يقول عبارة متزنة منتقاة تدل على معرفته بكل شخص ممن قُدموا له وكنا قد سمعنا كثيراً عن عودة، وكنا نؤمل افتتاح العقبة بمساعدته.

ولم أكد اسمع حديثه الدال على قوة واستقامة حتى اعتقدت أن في وسعنا تحقيق غايتنا هذه، جاء إلينا عودة كالفارس التائه (كانت العادة أن يجول الأبطال من الفرسان طلباً للشهرة باقتحام الأخطار) وأخذ يؤنبنا لأننا نضيع أوقاتنا في الوجه وأن الحالة تتطلب الإسراع في تحرير بلاد العرب. فقلت في سري لو كانت أعماله نصف أقواله لما كان هناك أي شك في نجاحنا وتوفيقنا.

وساد السرور الجماعة كلها التي كانت مؤلفة من نصيب وفايز ومحمد الدحلان وعودة وزحال والشريف ناصر.

وأخذت أُحدّث فيصلاً عما جرى في معسكر عبد الله والسرور الذي كان يتملكني عندما أرى أجزاء القاطرات التركية تتناثر وقضبان السكك الحديدية تقتلع وفجأة وجدت عودة قد نهض في حالة هياج وقال بصوت مرتفع:

معاذ الله! معاذا الله! وخرج من الخيمة فأخذت أتطلع إلى فيصل وهو يتطلع إليَّ ونحن لا ندري السر في هذه الحركة الغريبة ولكن سرعان ما سمعنا صوت، دق وطحن، فخرجت لأرى ماذا جرى... ولشد ما كانت دهشتي حين وجدت عودة أبو

تايه يطحن أسنانه الذهبية الصناعية بحجر. والتفتُ إليه مذهولاً فقال: "لقد نسيت أن جمال باشا هو الذي قدّم لي هذه الأسنان وكنت هذه الساعة آكل خبز سيدي فيصل بأسنان تركية!

ولسوء حظه كانت أسنانه الباقية قليلة ولهذا بات من الشاق عليه التهام اللحم، بل كان يقاسي كثيراً من الآلام بعد تناول شيء منه، وظل لا يتناول غير القدر الضئيل من المواد الغذائية دون الشبع إلى أن تم لنا احتلال العقبة فأرسل له السير ريجالند وينجيت طبيباً من أطباء الأسنان في مصر ليركب له مجموعة أسنان إنكليزية بدلاً من أسنانه التركية. وكان عودة قد تجاوز الخمسين وتكلل شعره الأسود بخيوط بيضاء، ومع هذا كان لا يزال قوياً ومنتصباً في ريعان الشباب وكان وجهه بشوشاً تظلله غمامة خفيفة من الحزن والكآبة استولت عليه منذ قتل ابنه العزيز في إحدى المعارك وقد لازمه الحزن طول حياته.

وكم كان يشق عليه أن يُحرم من لقبه "أبو تايه".

وعودة من الرجال الذين اشتهروا بزلاقة اللسان، والفصاحة. كنت أطيل التطلع إلى عينيه الواسعتين، وجبهته العريضة، وأنفه البارز كل البروز والملتوي كأنه الصنارة أو الخطاف وفمه الكبير المتحرك وذقنه وشاربيه اللذين كان يحلقهما على طريقة بدو الحويطات وهؤلاء البدو هاجروا من الحجاز منذ قرون طويلة وهم يفاخرون وعلى الأخص الرُّحل منهم بأنهم هم البدو الحقيقيون وأن عودة هو الرجل الذي يمثلهم بحق تمثيلاً صحيحاً.

وأما كرم عودة فحدث عن البحر ولا حرج بل هو قد تجاوز حدود السخاء وبلغ غاية التبذير فعاش به فقيراً رغم المغانم الوافرة التي كان يغنمها والأسلاب التي كان يجنيها من وراء غزواته الكثيرة.

تزوج عودة 28 مرة وجرح 30 مرة، وقتل معظم أقاربه في المعارك التي اشترك فيها أو جرحوا جروحاً بليغة.

وهو يقول إنه قتل 75 رجلاً في ساحات القتال ولكنه لم يقتل عربياً واحداً في غير وقت الحرب، أما الأتراك الذين قتلهم فإنه لا يعدهم ولا يحسب لهم حساباً على الإطلاق لشدة بغضه لهم.

وعودة من الرجال الذين ينتهزون كل فرصة للغزو، ويتوغلون في غزواتهم إلى أبعد الحدود.

وقد زار في أسفاره حلب والبصرة، والوجه، ووادي الدواسر.

وخاصم كل قبائل الصحراء تقريباً بسبب الغزوات التي كان لا ينقطع عنها، وقد كان حكيماً في سلبه كما كان عجولاً متسرعاً.

وفي الواقع أنه قام بعدة أعمال اقترنت بالبسالة وأكسبته فخراً وشهرة.

وهو رجل يتلقى النصيحة ولكنه يتجاهلها، ويرحب بالانتقادات التي توجه إليه ولكنه لا يعمل بها، ويستمع اللوم وهو يبتسم ابتسامته الساحرة الدائمة. أما إذا استولى عليه الغضب ينتفض أشد الانتفاض حتى يخيل للإنسان أنه أمام وحش مفترس وحيوان ضار فترى الناس يفرون من وجهه عندما تنتابه نوبات الغضب هذه وليس هناك شيء يغير رأيه أو يحوله عن قصده أو يدفعه إلى إطاعة أمر من الأوامر أو الإقدام على عمل من الأعمال التي لا يوافق عليها وتراه لا يقدر عواطف الناس ومشاعرهم عندما يأخذه الغضب.

وهو ينظر إلى الحياة نظرة فلسفية خاصة، يرى كل الحوادث التي تحدث في هذا العالم هامة وخطيرة ذات معنى، وكل الأشخاص الذين يحتك بهم من الأبطال الصناديد وهو يحشو دماغه بالقصائد الحماسية ويحفظ من أشعار البدو الشيء

الكثير فإذا ما التقى بأحد يميل إلى السماع أفاض إفاضة البحر الزاخر، وتدفق تدفق الشلال فإذا افتقر إلى السامعين لم يسعه إلا أن يترنم بهذه القصائد فيتلوها واحدة وراء أخرى ليسلي نفسه بصوته الهائل العميق الرنان.

وفي بعض الأحيان يطيب له التحدث عن حياة رفاقه فيروي عنهم أشياء قد تكون صحيحة وقد تكون مبتكرة لا أثر للصحة فيها وإنما لجأ إليها لإدخال السرور إلى قلوب الذين جاءوا لزيارته و مع هذا فهو يقسم أنها صحيحة. وإنها ليست من القصص الخيالية.

ولقد كان أكبر اعتمادنا في قتالنا مع الأتراك على البدو لسهولة حركتهم، وصلابتهم ولثقتهم بأنفسهم ووقوفهم على أحوال البلاد وشجاعتهم وذكائهم.

وكان من واجبنا أن نبلغ غايتنا دون أن تكون خسارتنا في الأرواح كبيرة لأن النفوس كانت في نظرنا أثمن من المال أو الوقت وكنا أغنى من الأتراك من حيث كثرة وسائل النقل ووفرة المدافع والسيارات.

وكان من الضروري أن لا نفكر في الاستيلاء على المدينة في ذلك الحين فقد كان لا يصيبنا أي ضرر من وجودهم هناك وكنا لا نريد أسرهم لأن وقوعهم في أيدينا كان يحتم علينا إرسالهم إلى القاهرة، وتقديم الطعام لهم، ووضع الحراس عليهم لهذا كان من الضروري أن نترك هؤلاء الأتراك في المدينة دون أن نزعجهم أو نقلق راحتهم وكان غرضنا أيضاً أن نجعل الأتراك يواصلون الانتفاع بالخط الحديدي بشرط أن يكلفهم هذا الانتفاع أكبر خسارة ممكنة ولم يكن في وسعهم الابتعاد عن الخطوط الحديدية فقد كانت القطارات هي التي تحمل إليهم الطعام والذخيرة وكانت حاجتهم شديدة لخط الحجاز، وخطوط شرق الأردن، وفلسطين وسوريا.

وكان ينبغي أن ننتفع من جهالة التركي واعتقاده أن في وسعه الاحتفاظ

بالأقاليم التي كان يحتلها وهذا الكبرياء التي كان يظهره ومحاولة الاحتفاظ بالامبراطورية العثمانية هي التي كانت تجعل موقفه جد سخيف.

وكان وجود الجيوش المصرية إلى جانب رجال القبائل مصدر ضعف لنا فإنه بينما يرى البدوي الجنود يحاربون يقف مكتفياً بمراقبتهم، وهو شديد الاغتباط لقيام هؤلاء الجنود بالحرب بل هو في الحقيقة يحسدهم ويغار منهم ولكنه لا يستطيع منافستهم.

وكان من الشاق علينا. من الوجهة الفنية. أن نحتفظ بقوة كبيرة من الجنود قرب الخطوط الحديدية التي كان الأتراك يعنون بحراستها.

وأخذت أفكر مع عودة أبو تايه في الاستعانة بقبيلة الحويطات في الهجوم على مراعي الصحراء السورية في فصل الربيع وهناك تؤلف قوة نهجم بها على العقبة من الجهة الشرقية دون حاجة إلى مدافع وكان الجزء الشرقي غير مصون. وأقل الأماكن مقاومة وأسهلها في نظرنا وكان عملنا هذا لا يعني غير قطع ستمائة ميل لاحتلال الخنادق مع أنه يمكن الوصول إليه عن طريق إطلاق النيران من مدافع سفننا ولكن عودة كان يرى أنه من الممكن أن يقوم بكل شيء فنستعين بقوتي الديناميت والمال في آن واحد ويقول إن المال سيجذب كل القبائل التي حول العقبة فتنضم إلينا بسهولة. وكان فيصل على اتصال بهذه القبائل ويرى رأي عودة فيقول إن هذه القبائل متى رأت نجاحنا في هجومنا الأول على معان ستساعدنا وتشترك معنا في الهجوم على العقبة.

ولكن البحرية حملت عنا هذا العبء حين كنا لا نزال نفكر وندبر ونضع الخطط.

ووقع بعض الأسرى الأتراك في أيدي الإنجليز فأخذوا يدلون بمعلومات على جانب كبير من الأهمية جعلتني أبادر بالذهاب إلى العقبة لوقوف على الحالة بنفسي.

الفصل الخامس

المسير إلى "الوجه" والاستيلاء عليها

جاء الكولونيل ولسن إلى ينبع لإقناعنا بضرورة اتخاذ التدابير السريعة للاستيلاء على "الوجه" لأن بقاءها في يد العدو كان خطراً على مؤخرة جيش فيصل.

وبما أن فيصل صلب الإرادة شديد الحماس. قرر الهجوم فوراً فأخذنا نفكر ـ وكان ذلك يوم رأس السنة ـ في تأثير هذه الحركة علينا وعلى الأتراك.

اقترح فيصل أن يصطحب إلى الوجه قبائل جهينة، وحرب، وعتيبة وعقيل، وكان من مصلحتنا أن نؤيد هذا الاقتراح ونؤازر هذه الحركة التي تعد الفصل الأخير في رواية الحرب الدائرة رحاها في شمال الحجاز.

على أن فيصل كان يكره أن يترك ينبع بلا حامية لأنه يعدها قاعدته الحصينة وميناء الحجاز الثانية لذلك أشار علينا أن ننتقل إلى وادٍ لا تبعد سوى مائة كيلو متر عن شمال المدينة يريد بهذا التدبير أن يقطع على الجيش العثماني المواصلات الحديدية مع دمشق وكان هذا الاقتراح وجيهاً فأرسلنا رجاء الخلوي حالاً إلى عبد الله نخبره بما تم عليه الرأي ثم ألححنا على فيصل أن يترك وادي ينبع ويتجه شمالاً إلى الوجه دون أن ينتظر جواب عبد الله.

وفي الثالث من كانون الثاني سنة 1917 سرنا في وادي "مسارح" قاصدين آبار "عويس" الواقعة على مسافة خمسة عشر ميلاً من شمال ينبع.

وكان الهواء قد اعتدل بعد أمطار كانون الأول، والأراضي تغطت بالعشب الأخضر في الأغوار والسهول.

وتعالت أصوات الهتاف للأمير فيصل وأسرته الشريفة.

وسار فيصل في الطليعة في ثوب أبيض وكنت إلى جانبه الأيسر في ثياب بيضاء ووراءنا ثلاثة يحملون الأعلام الحريرية الحمراء ومن خلفهم رهط يدقون الطبول، ويتلوهم الجيش مؤلفاً من ألف ومائتي جندي.

وكنا نتخوف من سقوط ينبع بينما نحن نعمل للاستيلاء على الوجه فرأينا من الحكمة أن ننقل ما هناك من المؤونة والذخيرة إلى مكان آخر.

وأقبل "بويل" يتفقد الحالة، ووعد بتقديم سفينة تنقل لنا الطعام، والماء.

والتقينا في الطريق بسكان "أم لج" فرحبوا بنا وسالمونا وانتظر فيصل فلم يبدأ الهجوم إلا في اليوم الذي تسلم رسالة من أخيه عبد الله يوافقه فيها على خطته.

وقصدت "أم لج" مع "بويل" وهو ضابط على جانب عظيم من الثقافة ال فنية والنشاط لا يبالي بغير أعماله الرسمية ولا يتسامح مع الرجال الذين يخطر لهم أن يعيشوا في راحة وهناء فكان يشبهه البدو بالزنجبيل لأنه حار، شديد الحماس.

وفي اليوم التالي وصل فيكري وهو من رجال المدفعية الذين خدموا في السودان عشر سنوات تعلم في أثنائها اللغة العربية الفصحى والعامية فاستغنينا عن أي ترجمان.

وقررنا الذهاب مع بويل إلى معسكر فيصل لوضع جدول بأوقات الهجوم وبعد أن تناولنا الطعام مع العرب جلسنا جميعاً نتفاوض في خطة الهجوم على "الوجه" فقررنا أن نقسم الجيش إلى عدة فرق تجتمع كلها في ابي الزريبات، وأن تحمل لنا إحدى السفن 20 طناً من الماء إذ لا ماء "في الوجه".

وكانت فرقة بويل مؤلفة من سبعمائة عربي من قبيلتي حرب وجهينة وقد

قصدت شمال المدينة مع ستة سفن فيها 50 مدفعاً وكان علينا أن نلحق بهذه الفرقة فنصل إلى ابي الزريبات في اليوم العشرين وإلى حبان في اليوم الثاني والعشرين وتنزل هذه القوة إلى الشاطئ في اليوم الثالث والعشرين فنسد مسالك المدينة كلها.

وكانت الأخبار التي تصلنا من رابغ حسنة كما أن الأتراك لم يحاولوا مطلقاً الانتفاع من جلائنا عن ينبع وكان عملنا هذا في الحقيقة من الأعمال التي تدل على مخاطرة ومجازفة وقد تشجعنا كثيراً عندما وصلتنا الأخبار اللاسلكية من بويل تعلمنا أن الأتراك لا يفكرون في القتال. وكان عبد الله قد وصل إلى طريق الوجه وبلغ من سروري أني لم أعد أستطيع أن أضبط نفسي فقلت في اعتزاز:

- "لا تمضي السنة حتى نكون قد قرعنا أبواب دمشق"... وقد تحققت نبوءتي فوصلنا دمشق بعد خمسة أشهر.

أما الجيش المخيم في بئر الوحيدة فكان يتألف من خمسة آلاف ومائة هجان، وخمسة آلاف وثلثمائة رجل من المشاة ومعهم أربعة مدافع "كروب" وعشرة مدافع رشاشة.

وقررنا أن نبدأ مسيرنا في الثامن عشر من كانون الثاني بعد الظهر فأتم فيصل أعماله عقيب الغداء. ثم أمر بحل الخيام وركوب الجمال، ودق النفير سبع مرات فساد الهدوء التام ورأينا فيصل يخطب في رجاله قائلاً بصوت مرتفع:

- "اتكلوا على الله وحده وهو ينصركم" ثم قفز على جمله فقفزنا نحن أيضاً وحذا البدو حذونا.

وأخذ رجال فيصل يتحدثون عن مولاهم وعن الخيرات التي سيجدونها في الوجه، وبدأنا نسمع الأغاني الحماسية، وكانت الطبول تقرع بشدة، وأصوات التهليل كالرعد القاصف.

وتقدم أحد الخيالة واسمه محمد علي البدوي أمير جهينة يحيي فيصل. والبدوي

هذا رجل طاعن في السن لا يعني أي عناية بالنظافة وكان معه رجل متنكر يرتدي ثياباً رسمية من الكاكي غطاها بعباءة ووضع على رأسه غطاء من الحرير ولكن لما رفع رأسه وأبصرته عرفت في الحال أنه "نيو كومب" فوجهه الأحمر يكاد الدم يتدفق منه وعيناه الصافيتين وفمه يدل على عنف وشدة، وعبوسته تنم عن قوة وميل للمجون وكان قد وصل في ذلك الصباح إلى "أم لج" فلما سمع برحيلنا أسرع إلينا فاستقبله فيصل كصديق قديم من أصدقاء الصبا.

وفي الحال تطرقا في الحديث إلى المواضيع السياسية الهامة، وأخذا يتبادلان الآراء ويتباحثان ويتفاوضان.

ولم يكن في وسعنا تقدير المسافات أو معرفة الوقت الذيت تتطلبه لأن الأدلاء أنفسهم كانوا لا يعرفون من وحدات الزمن إلا ما تجاوز النصف نهار وكانوا يقولون أحياناً إن المسافة التي سنقطعها تستغرق ست ساعات بينما لا نقطعها في أقل من ست عشرة ساعة وكان لهذا الجهل نتائجه الوخيمة فتعرضنا للجوع والعطش بسبب هذه الفوضى. حيث ظلت الجمال ثلاثة أيام كاملة دون أن نقدم لها الطعام كما أنها قطعت الخمسين ميلاً الأخيرة دون أن يتناول الجمل أكثر من ثلاثة لترات من الماء.

ولكن هذا لم يكن ليؤثر على البدو فقد كانوا يتقدمون إلى الوجه في طرب وابتهاج يغنون ويهزجون.

وبعد أن أنهينا أعمالنا قصدنا الخيمة التي أعدها لنا فيصل فدل بهذا العمل على عناية خاصة بنا.

واصطاد جهينة غزالاً اهداه إلى فيصل. فوجدنا لحمه ألذ أنواع اللحوم التي كانت تقدم إلينا في الصحراء.

وفي الساعة الثالثة وصلنا إلى وادي حمد واتساعه يقرب الميل.

وأقبل الشريف ناصر على غير موعد ولم نكن ننتظره فقفز فيصل حالاً وعانقه ثم قدمه إلينا وقد تركت مقابلتنا الأولى هذه أطيب الأثر في نفسي وكنت قد سمعت كثيراً عنه وكنا ننتظر منه الشيء الكثير.

وفي الواقع أن الشريف ناصر وهو مدني كان من الرجال الممهدين للسبل فهو الذي شق الطريق لحركة فيصل فهو أول من أطلق الرصاصة الأولى في المدينة. وهو آخر من أطلق رصاصته في المسلمية قرب حلب يوم طلبت تركيا الهدنة. وكان الحديث الذي سمعته عن الرجل يدل على عظمته وليس فيه ما يشينه.

والشريف ناصر مغرم بالحدائق وكان يومئذ قد بلغ السابعة والعشرين يمتاز عن غيره بفمه الجميل وذقنه الصغيرة ولحيته السوداء.

وتأخرنا يومين عن الموعد الذي ضربناه للبحرية ولهذا ركب "بويل" مسرعاً ليبلغ السلطات أسباب هذا التأخير ولما وصلنا وجدنا أن بويل ومن معه قد خشوا هرب الأتراك إذا طال انتظارهم فأطلقت البحرية المدافع على الجيش التركي.

وفي اليوم الذي وصلنا فيه إلى الزريبات خاطب أحمد توفيق بك الحاكم التركي الحامية قائلاً: بأنه ينبغي الاحتفاظ بالوجه حتى تراق آخر نقطة من دمائهم ولكنه قام من نومه عند الغسق وركب جمله مع عدد صغير من رجاله وفر طلباً للنجاة واحتلت البحارة الوجه وتقدمنا فوجدنا عدداً صغيراً من الأتراك فاستسلموا لنا دون أية مقاومة.

ونزل بدو عقيل عن جمالهم وأخذوا يخلعون عباءاتهم وأغطية رؤوسهم وقمصانهم بل كانوا يتجولون نصف عراة ولما سألناهم عن السر في هذه الحركة الجديدة التي قاموا بها قالوا إنهم يفعلون ذلك خشية أن يكونوا قد اصيبوا بجروح دون أن يشعروا وهم يريدون أن تبقى هذه الجروح نظيفة ولكن الحقيقة أنهم لم يصابوا بجروح أو شبه جروح فإن البحرية هي التي قامت بكل شيء وهم لم يفعلوا هذا إلا لشدة حرصهم على ثيابهم الأنيقة اتي كانوا يعتزون بها ويتباهون.

الفصل السادس

فن القيادة والسياسة

كانت مصر في ذلك الحين مستودعاً مهماً للمدافع والأسلحة والخيول وكانت السلطة الإنجليزية فيها تكثر لنا الوعود بأن تقدم لنا ما نحتاجه من العتاد والذخائر وقد وفت بشطر من وعدها ولكن المدافع لم تصلنا مطلقاً فكان مما أحرج موقفنا وآلم نفوسنا.

وكان في طليعة أنصار القضية العربية المخلصين جعفر باشا العسكري وهو ضباط بغدادي خدم في الجيشين الألماني والعثماني وأظهر تفوقاً وامتيازاً فاختاره أنور باشا لتنظيم جيش السنوسي فوصل إلى طرابلس الغرب في غواصة ونظم شؤون الطرابلسيين. وأظهر تفوقاً حربياً ضد الإنجليز في موقعتين ثم حدث أن قبضوا عليه، وأنزلوه في قلعة القاهرة مع بقية أسرى الحرب من الضباط ولكنه حاول الفرار ذات ليلة بأن دلى حبلاً ربط به حراماً وأنزله إلى الأخدود الذي كان حول الخندق ولكن الحبل انقطع به فأصيب برضوض فحمل إلى المستشفى لا يقوى على الحركة.

وحدث أن قرأ ذات يوم في الصحف العربية عن ثورة الشريف وإعدام الأتراك لجماعة من أبرز الوطنيين العرب، وكانوا من أصدقائه فأيقن أنه كان على خطأ في موالاة الأتراك.

وسمع فيصل عنه طبعاً وكان يريد أن يكون قائداً عاماً لجيوشه المنظمة التي

أخذنا على عاتقنا منذ ذلك الحين أن نرقيها ونرفع من شأنها.

وكان في القاهرة هوغارث، وجورج لويد، وستورس، وديدز، وغيرهم من الأصدقاء القدماء، كما كان يحيط بهم جماعة من الإنجليز الذين كانوا يتمنون الخير للعرب... وكان عدد هؤلاء في ازدياد متواصل.

وكان ويمس على استعداد لمناصرتنا كما ناصرنا في الأيام العصيبة حين كنا في رابغ.

وأما السير ريجالند وينجيت المندوب السامي في مصر فقد كان فرحاً لنجاح الثورة العربية وكان يحبذ الفكرة منذ سنوات.

وأما مكماهون الذي كان له أكبر ضلع في إشعالها فقد توارى قبل أن يحصد ثمار أعماله.

وعدت إلى "الوجه"، والحياة في "الوجه" ممتعة شائقة.

وكان يومئذ قد نظمنا معسكرنا... وكان فيصل قد نصب خيامه وهي على أنواع منها ما هو خاص بالحياة العادية اليومية، وما هو خاص باستقبال الضيوف أو للخدم. وكانت خيام الجنود والبدو تبعد ميلاً عن البحر، في الأودية الرملية... وكانت خيام قبيلة عقيل أقرب الخيام إلينا متقاربة بعضها من بعض ولا نظام فيها.

وكنا العادة في "الوجه" أن ينصبوا الخيام متباعدة، وقضيت وقتي في التنقل بين خيام فيصل وخيام الإنجليز وخيام الجيش المصري... بين المدينة والميناء والمحطة اللاسلكية، أطوف على قدمي سحابة النهار، لا أتمتع براحة، ولا يقر لي قرار... أسير في ممرات مرجانية لا أغطي قدمي إلا بصندل وأحياناً كنت أمشي حافياً وهكذا تعودت تدريجياً على السير في تلك الرمال اللاهبة وألفت أنواع المغامرات.

وكان البدو المساكين يعجبون أشد العجب لاعتمادي على المشي بدلاً من ركوب الدواب.

أما فيصل فكان يشتغل النهار والليل بشؤون سياسية لا يمكن أن يساعده فيها سوى أفراد منا.

وكنا نمتع النفس باستعراض الجيوش. وإطلاق النيران. وكثيراً ما كانت تحدث حوادث مكدرة في أثناء مظاهر البسط هذه فقد حدث مرة أن جماعة من البدو كانوا يلعبون وراء خيامنا بقنبلة من بقايا حصار "بويل" لإحدى المدن فانفجرت فمزقتهم وتلوثت خيامنا بالدماء فأمر فيصل بإحضار بعض الخيام الجديدة، وإتلاف القديمة. ولكن العبيد أبوا إتلافها واحتفظوا بها لإنفسهم بعد أن غسلوها ونظفوها.

وحدث مرة أخرى أن اشتعلت النار في إحدى الخيام فأحرقت ثلاثة من ضيوفنا ولكن البدو انتهزوا هذه الفرصة فاحتشدوا حول الخيمة المحروقة يضحكون ويقهقهون بينما النار تلتهم الخيمة فلما انطفأت من تلقاء نفسها أخذوا يهتمون بضحاياها!

وفي مرة ثالثة انطلقت رصاصة طائشة فجرحت فرساً. وكان رصاص هؤلاء البدو المستسلمين للمرح كثيراً ما يترك ثقوباً في الخيام.

وحدث ذات ليلة أن رجال قبيلة عقيل تمردوا على قائدهم ابن دخيل لأنه كان يغرمهم بغرامات كثيرة ويضربهم بقسوة هائلة فاندفعوا إلى خيمته وأخذوا يولولون ويصرخون ويطلقون الأعيرة النارية ثم قذفوا كل أمتعته. وأخذوا يضربون خَدمه. ولكن كل هذا لم يكن ليهدئ غضبهم. أو يخمد من ثَوَرانهم. فأخذوا يتذكرون حوادث ينبع فتهتاج أعصابهم. ورأى فيصل خطورة الموقف فجرى حافياً حتى لحق بهم فضرب أربعة منهم ببطن سيفه فلما وجدوه قد غضب إلى هذا الحد ترددوا في

التقدم. وبعد أن سقط اثنان من القتلى و30 من الجرحى. هدأت الفتنة. واستقال ابن دخيل في اليوم التالي.

وكانت قبائل عديدة تحت إمرة الأمير نوري الشعلان. زعيم قبائل الرولا، والشخصية الرابعة بعد الشريف. وابن السعود وابن رشيد. بين أمراء الصحراء.

ونوري هذا شيخ جليل ظل يحافظ على سيادته على رجال عنيزة أكثر من ثلاثين سنة. وكانت قبيلة عنيزة تعد أهم قبائل الرولا ولكن نوري ليس بأكرمهم نسباً ولم يكن محبوباً وليس من كبار المقاتلين وإنما استطاع المحافظة على الرئاسة بفضل اعتماده على قوته الشخصية. وهو في سبيل احتفاظه بهذه الزعامة قد قتل اثنين من إخوته ثم ضم إليه رجال قبيلة شرارات وكانت كلمته بمثابة قانون نافذ ولم يكن هذا الزعيم على شيء من دهاء الشيوخ العاديين الذين برعوا في المصانعة، وحذقوا التملق والمداراة، كان البدو يخافونه جميعاً ويطيعونه خصوصاً يوم كانت صلاته مع الأتراك ودية.

وكنا نعتمد على عودة أبو تايه في نقل القبائل من معان إلى العقبة للاستيلاء عليها مع تلالها وانتزاعها من الجنود العثمانية.

الفصل السابع

في التاسع من شهر أيار سنة 1917 كانت المعدات قد تمت فتركنا خيمة فيصل الذي ودعنا وداعاً حاراً وأكثر لنا من الدعاء بالتوفيق.

سرنا ومعنا الشريف ناصر بن علي ووجهتنا قلعة سبيل في داخل "الوجه" حيث كان الحجاج المصريون يأتون طلباً للمياه وكان معنا عودة وبعض نسائه. ونسيب البكري السياسي الدمشقي المشهور الذي كان رسول فيصل وممثله في القرى السورية.

ونسيب البكري يمتاز بعقله الجبار، ومقامه الرفيع، وبأخلاقه النادرة وحياته الموفقة، وقوة احتماله للشدائد وهو رجل يندر مثاله بين السوريين كما أنه يمتاز بفصاحته ووطنيته ومقدرته.

وقد اختار نسيب ضابطاً سورياً يسمى زكي ليكون رفيقاً له.

وأخذ يحدثني زكي فيقول: أتصور أننا سنصل إلى دمشق ونؤسس فيها إدارة للطب البيطري تكون تابعة للدولة السورية فنأتي بعدد من الأطباء الماهرين ونفتتح مستشفى خاصاً لمعالجة الجمال والخيول والحمير، ولم لا؟ حتى الخراف والماعز ولم لا؟ ولابد أن يكون في المستشفى بعض الفروع لإجراء الأبحاث العلمية والبكتريولوجية تهتم بوصف العلاجات العامة للأمراض التي تصيب الحيوانات ولم لا؟ ثم قال:

وماذا ترى في تأسيس مكتبة نملأها بالكتب الأجنبية؟ وماذا ترى في فتح فروع للمستشفى المركزي الذي سنؤسسه في دمشق في كل مدن الأرياف.

وكنا قد قطعنا 50 ميلاً فتوقفنا عن المسير طلباً للراحة ثم تابعنا سيرنا وكان ناصر قائدنا ودليلنا لأنه يعرف هذه الأماكن أكثر مما يعرف بلاده.

وكان ناصر بن علي يستسلم عادة للمرح إلا أنه يشعر أحياناً بالكآبة والألم فقد حدثني تلك الليلة عما يجول في نفسه فهو لا يستيطع أن يفهم كيف يترك – وهو أمير على المدينة. كل غناه وراحته واللذة التي يتمتع بها في قصره المنيف. وحدائقه الغناء، وبساتينه الجميلة ليكون زعيماً ضعيفاً على جماعة من بدو الصحراء ويضطر للمخاطرة بحياته والتعرض دائماً للهلاك؟.

ولكن وطنية هذا الزعيم هي التي دفعته ليظل أكثر من سنتين يحارب في صفوف المقاتلين بجيش فيصل ويهجم دائماً في الطليعة بينما كان الأتراك يلازمون داره ويتلفون أشجار فاكهته. ويقطعون نخيله ويلتهمون أثماره.

وأخذ يحدثني حديثاً طويلاً عن البئر العظيم الذي انقضى عليه أكثر من ستمائة سنة.

وبعد مسير أربع ساعات نمنا ساعتين ثم نهضنا عند شروق الشمس وكانت الجمال تسير وئيداً لشدة ما لاقته من العناء في الوجه وكانت أشعة الشمس في هذه المنطقة الرملية تبهر العيون وكان عودة يرغب متابعة المسير ولكننا عارضناه كلنا في رأيه فاضطر أن يتوقف عن المسير فارتمينا كلنا تحت الأشجار إلى الثانية والنصف بعد الظهر ثم نهضنا وسرنا ثلاث ساعات أخرى فوصلنا إلى "القر" وعزمنا أن نبيت فيها ليلتين.

وقد ابتعنا من "ضيف الله" ما نحتاج إيه من الخضار وكنا نجلس كل ليلة حول

النار نصغي إلى جوقة مولود الموسيقية. وكانوا يأتون بالجنود ليلعبوا على قيثاراتهم ويغنوا لنا بعض الأغاني السورية أو ينشدوا بعض القصائد الغزلية.

وكان الجنود يصغون إصغاءً تاماً إلى أن ينتهي المقطع أو الدور الشعري ثم ترتفع الآهات من كل جانب ولا يبقى أحد إلا وتنهد ويأخذ ضيف الله في رش الماء لترطيب المكان على أمل أن يذهب بعضنا ويشتري من فاكهته وخضاره وإلا لما حمل نفسه مؤونة رش الأرض.

وسار معنا حرس مكون من خمسة وثلاثين بدوياً من قبيلة عقيل تحت قيادة ابن دغيتر وهو رجل ذو مزاج خاص يندر أن لا تراه شارد الفكر مشتت البال.

وكان كيس فيصل الذي ينفق منه يحتوي على 20 ألفاً من الجنيهات، وكنا ننفق بسخاء على الرجال الجدد الذين ينضمون إلينا وندفع لهم دفعات أولية طيبة تنشيطاً لهم بدو قبيلة الحويطات فكان الذهب الآلة الفعالة لحمل البدو على تلبية الأوامر وسرعة تنفيذها.

وعند الفجر امتطينا جمالنا قاصدين "درعا" وبقينا فيها حتى العصر وكنا في ذلك الحين قد اقتربنا من السكة الحديدية وكان علينا أن نروي ظمأنا وأن نملأ الأوعية الجلدية التي معنا ولم أجد بين جمال فيصل ما يصلح للركوب فجمالنا آخذه في الهزال يوماً بعد يوم فكان ناصر يخشى أن تنحط قوى العدد الكبير منها في الطريق.

وحوالي الساعة الرابعة ركبنا جمالنا في طريقنا إلى وادي درعا وهو من الأودية الرملية الكثيرة الآكام وفيها صخور حمراء خشنة الملمس وتقدم ثلاثة أو اربعة منا في الطليعة وتسلقوا طرف الأكمة يزحفون على أيديهم وركبهم ليتجسسوا على الأتراك القريبين من الخط الحديدي فعادوا يؤكدون لنا أنه لا خطر على الإطلاق من تقدمنا.

وأخذت جمالنا البطيئة تجد السير في هذا الوادي وبدأنا عملية النسف.

ولم يكن عودة قد عرف الديناميت قبل الآن فتملكه السرور الذي يتملك الطفل عندما يقع نظره على شيء جديد غريب وكأن انفجار الديناميت قد حرك شاعريته الفذة فأخذ يفيض في التغني واتحفنا بقصائد ارتجالية نظمها في سرعة تدعو لأشد الدهشة وتدل على قريحة وقادة وكانت هذه القصائد تتحدث كلها عن قوة الديناميت المدهشة.

وسرنا في أماكن لا أثر للحياة فيها، فلم نجد آثار غزال ولم نسمع تغريد طائر وهبت علينا الرياح الحارة المعروفة في مصر برياح الخماسين فتشققت شفاهنا وتطاير الرمل إلى عيوننا وبقينا على هذا الحال حتى المساء.

وجاءنا رسول يقول إن عرب الحويطات ينتظروننا بين عيسوية والنبك وأنهم يترقبون أخبارنا وزاد قائلاً:

إنهم في حالة طيبة لا يشكون من شيء، فعدنا إلى جمالنا نجد السير فوصلنا إلى عيسوية بعد مسير ساعة واحدة ونزلنا في خيمة "علي أبي فتنة" فحيانا بحرارة وأدخلنا إلى خيمته وأراد أن يضيفنا فاعتذرنا لوفرة عددنا ونصبنا خيامنا قرب خيامه ولكن هذا الزعيم أحصى عددنا وأولم لنا وليمة فاخرة ولم نتناول العشاء إلا في ساعة متأخرة من الليل وكنت قد استغرقت في النوم لشدة ما عانيت من التعب ولكنني اضطررت للنهوض ولم أكد أتم التهام الطعام حتى عدت إلى الاستغراق في النوم.

ثم نهضنا ثانية وقصدنا عرب الحويطات فوجدنا أن ذهبنا لم يمس ومفرقعاتنا كاملة، ولهذا قررنا أن نقدم ستة آلاف جنيه لنوري الشعلان لأنه هو الذي سمح لنا بالبقاء في وادي سرحان وطلبنا منه أن يسمح لنا لقاء هذا المبلغ بالبقاء مدة كافية لجمع ما نحتاج إليه من الرجال وتنظيم شؤونهم وأن يُعنى بعد سفرنا بعائلاتهم.

وخيامهم وقطعانهم وقررنا أن يكون عودة رسولنا إلى نوري فزودناه بستة أكياس من الذهب ليوزعها على البدو ويجمع أكبر عدد من الرجال وكثرت الولائم في هذه المدة التي أغرقنا البدو فيها بالذهب فكانت الأسر تتنافس في دعوتنا وتغالي في الترحيب بنا وكان كرم عرب الحويطات غير محدود .

وكان يزورنا كل صباح بين الثامنة والعاشرة جماعة من الأصدقاء بينهم ناصر بن علي ونسيب وزكي فنخرج معاً مع اثني عشر رجلاً آخرين ونمتطي خيولنا ونسير في ممرات رملية حتى نصل إلى خيمة الزعيم المقصود ولا نصل إليها حتى تحيط الكلاب بنا وتأخذ في النباح الشديد فيسرع البدو الى ردها وكنا عادة نجد البدو متجمعين حول خيمة الرجل الذي جئنا لزيارته فلا يتركون الخيمة إلا بعد أن نغادرها وعندما ندخل القسم المخصص للضيف في الخيمة كان يتقدم المضيف مرحباً في تواضع وحياء ويجلس على السجاد الذي كان يبتاعه البدو من بيروت .

ثم تبدأ عملية عرض الأشياء الغريبة التي يحتفظ بها الزعيم فيرينا صقراً من الصقور أو طيراً من الطيور الغريبة التي اصطادها من ساحل البحر الأحمر وطوراً يعرض كلابه السلوقية أو وعوله الأليفة أو ظبياً من الظباء الأفريقية الكبيرة وبعد أن تتم عملية العرض هذه يحدثوننا في شتى المواضيع الطريفة ليصرفونا عن جلبة أهل البيت وعن ملاحظة التعليمات التي كانوا يقدمونها همساً والتي كانت لا تخرج عن موضوع الطعام وتجهيزه على خير وجه ممكن . وكانت رائحة السمن والطعام لا تفارق أنوفنا طول مدة إقامتنا .

ثم يتقدم صاحب الدار أو أحد عبيده فيسألنا إذا كنا نريد قهوة مرة أو شاياً فكان ناصر بن علي لا يشرب غير القهوة المرة فيقبل العبد ويضع بعض نقط منها في فنجان صغير يقدمه له ثم إلى نسيب وكان علينا تصفية هذه النقط عن آخرها في أجوافنا .

وبعد أن تتم الدورة الأولى ويشرب المدعوون جميعاً يعود العبد إلى الشريف ناصر بن علي من جديد وتبدأ الدورة الثانية ثم الثالثة. يؤتى بعد ذلك بصينية كبيرة من النحاس نقش حولها بحروف عربية بعض كلمات وعبارات خاصة وهي مملوءة أرزاً ولحماً ثم يقف المضيف في وسط الخيمة فيشجعنا على الأكل متمتماً بعبارات نفهم منها أنه يريد أن نلتهم كل ما قدمه لنا.

وجرت العادة أن لا نقصر في هذا الأمر فكنا نلتهم ما يعرض علينا في أقصر وقت ممكن كعادة البدو فنحشو معدنا بأكبر مقدار ممكن دون أن نفوه بكلمة واحدة فإن الحديث في وقت تناول الطعام يخالف الآداب البدوية العامة ولكن هذا لا يمنعنا عن الابتسام بين الفينة والفينة وعلى الأخص عندما كانت تقدم لنا قطعة من اللحم أو نوعاً لذيذاً من الطعام.

وكان يعمد محمد الدحيلان أحياناً إلى الدعابة فيقدم لي عظمة كبيرة خالية من اللحم ويأخذ في الإشادة بمحاسنها والتغني بها فكنت أتقبلها منه ثم أهديه قطعة من الأمعاء قبيحة الشكل شنيعة المنظر يستحيل عليه أن يأكلها فيستغرق الحاضرون في الضحك ويسر عرب الحويطات مني سروراً عظيماً ولكن هذه المقابلات لم تكن تقابل من الشريف ناصر بن علي بغير الامتعاض والعبوسة لما طبع عليه من ميل للأرستقراطية والرغبة الشديدة في المحافظة على مهابته.

وبعد أن نتناول الطعام ننهض معاً بسرعة فنقول في نفس واحد وبصوت لا يقل عن صوت المفرقعات: "الله بعوض عليك" وفي لمح البرق يحتل أماكننا عدد جديد من المدعوين.

وكانت الحيات قد تعودت أن لا تنام في الليل إلا بجوارنا وقد يكون ذلك طلباً للدفء وكانت أماكنها المختارة إما تحت أغطيتنا أو فوقها وكنا لهذا نتخذ آلاف

الاحتياطات ونقتل كل يوم لا أقل من عشرين حية وكنا في الحقيقة نتمنى أن نخرج من وادي سرحان هذا في أقرب وقت لأن الحيات فيه مرهقة مضنية ومناظره تدخل الحزن إلى قلوبنا أكثر من اي مكان آخر فنفضل المعيشة بين الرمال أو الإقامة بين الأحجار الصوانية على البقاء في وادي السرحان المملوء بالحيات والذي لا تجد فيه غير المياه المالحة وأشجار النخيل الميتة وأغصان الأشجار الذابلة التي لا تصلح للرعي ولا تفيد حتى للحريق.

واجتمعنا بعودة أبو تايه بعد مقابلته لنوري الشعلان فطلب إلينا زيارة نوري ففعلنا.

استقبلنا نوري في داره الخالية وسط مظاهر الترحيب المتنوعة من إطلاق أعيرة نارية من بنادق ومسدسات. إلى لعب بالرماح والسيوف وقد كان ناصر يصغي إلى القسم الذي يُقسمه كل بدوي يتقدم للانضمام وهو أن يخلص لفيصل وللحركة العربية.

وقد ترك لنا البدو مقادير كبيرة من القمل فما أن أقبل المساء حتى التهب جسمي وجسم ناصر.

وكان أحد ذراعي عودة متيبساً على أثر جرح قديم في مفصل مرفقه لهذا لم يكن في وسعه حك جسمه بيده فيضطر لاستعمال عصا من العصي التي يسوق بها الجمال.

الفصل الثامن

انقضت علينا في "الوجه" خمسة أسابيع أنفقنا خلالها كل ما جئنا به من أموال، والتهمنا كل أغنام الحويطات، واستبدلنا جمالنا المرهقة المنهوكة القوى، بجمال قوية جديدة فلم يبق لنا بد من متابعة السير.

ولكن قبل أن نرحل رأينا "عودة" يستورد مقادير كبيرة من اللحوم وعلمنا أنه يستعد لإقامة وليمة وداع فاخرة وكان له ما أراد فدعاً جمعاً كبيراً من البدو لتناول العشاء على أمل أن يكون الرحيل في صباح اليوم التالي. ومدَّ المنسف وهو قصعة كبرى فاستدرنا حولها نلتهم اللحم والأرز بشراهة.

وكانت الليلة مقمرة فاستلقينا بعد تناول العشاء خارج الخيمة وأخذنا نشرب القهوة، وننظر إلى النجوم، ونصغي إلى القصص التي كان يسردها عودة ومن معه من القصاصين على أن عودة تفوق عليهم جميعاً وكانت قصصه لا تنتهي، وفيها الشهي الممتع من النوادر والفكاهات.

ولما توقف عودة عن الحديث قلت له إني قصدت محمد الدحيلان في خيمته عصر ذلك اليوم لأشكره على ناقته الحلوب التي أهداها لي ولكني لم أجده فلم يسمع عودة كلامي حتى صرخ طرباً جذلاً.

- أتريدون أن تعرفوا لماذا لم ينم محمد خمسة عشر يوماً في خيمته؟ فاستغرقنا في الضحك قبل أن نعرف السبب.

وتوقف المدعوون عن الكلام استعداداً لسماع قصة عودة بالرغم من أنه أسمعنا إياها عشرين مرة وهي تلخص في أن الدحيلان هرب فراراً من نسائه ومن حقدهن عليه. وسبب هذا الحقد - على رواية عودة - أن محمداً اشترى عقداً ثميناً من اللؤلؤ ولم يقدمه لزوجة من زوجاته فأغضبهن ذلك واتفقن على مقاومته وطرده من الخيمة... وقد صاغ عودة هذه الأقوال في قالب روائي. شيّق. رغم أنها لم تكن على شيء من الصحة. وإنما هي من نتاج خياله الواسع.

وكان محمد الدحيلان يؤكد أن عودة اختلق هذه القصة اختلاقاً.

والتفت عودة إليَّ، ورجاني أن أؤمن على كلامه، ففعلت ولم يكن خيالي أضيق من خياله فتنحنحت وبدأت قصتي باسم الله الرحمن الرحيم قائلاً:

عندما قصدنا "الوجه" كنا ستة أشخاص: عودة ومحمد زحال، وقاسم، ومغضي، والفقير إليه تعالى. وحدث ذات ليلة أن سمعت قبل الفجر عودة يصيح قائلاً:

- "اليوم نشن الغارة على السوق وننهب ما فيها.

ونهضنا نحن الستة، معتمدين على بركة الله، لنؤدي مهمة النهب هذه. وكان عودة في ثياب بيضاء، وغطاء رأس أحمر وقاسم ينتعل صندلاً مرقعاً من الجلد، ومحمد يرتدي جلباباً، حريرياً، بديعاً. ولكنه يسير حافياً.

فأخذ عودة يؤيد أقوالي - المختلقة - بتحريك يديه وبصوته الجهوري الذي كان يرفعه ويخفضه تبعاً لدرجة تأثري... بينما كان عرب الحويطات يغطون وجوههم ليتاح لهم الضحك سراً ثم يكشفونها. ويحملقون في عودة لعلهم يدركون أجاد هو أم هازل؟

وبديهي أني لم أعمد إلى الابتكار إلا لأدفع عنه الخجل وكان هذا التحريف في الكلام من الفنون الجديدة التي لم يألفوها. ونسي "مغضي" الذي كان يعد لنا القهوة

أن يضع وقوداً جديدة لكومة الشوك التي كان يشعلها وذلك لانصرافه عن صنع القهوة إلى الحديث.

أخذت أقص عليهم كيف تركنا الخيام... وعدد أسماء أصحابها... وكيف سرنا نحو القرية... ووصفت كل جمل رأيناه... وكل جواد يقع نظرنا عليه... حدثتهم عن الرجال الذين مروا بنا... وعن الآكام قلت إنها كانت جرداء. قاحلة وأقسمت بالله. وبالله العظيم أنها قاحلة. وأنها جرداء... وتمهلت هنيهة. واستطردت الحديث قائلاً:

إننا لم نقطع مسافة لا تستغرق أكثر من تدخين سيكارة واحدة حتى سمعنا شيئاً، فتوقف عودة. وقال بصوت يقرب من الهمس: "اسمع شيئاً يا أولاد" فقال محمد:

- "اسمع شيئاً. يا أولاد" فما كان من زحال إلا أن قال:

- "والله صحيح أني أسمع شيئاً" فأرهفنا الآذان ولكننا لم نسمع شيئاً فقال زحال:

- "والله إني لا أسمع شيئاً وقال محمد:

- "ولله إي لا أسمع شيئاً".

فقال عودة:

- "معكم حق. والله. إني لا أسمع شيئاً".

وتابعت قصتي قائلاً: استأنفنا السفر في أراض قاحلة... قاحلة... لا نسمع ولا نرى شيئاً إلى أن التقينا بزنجي يركب حماراً أشهب اللون. أسود الأذنين. فلما وقع نظر عودة عليه صرخ قائلاً: والله. إني أرى حماراً فقال محمد:

- والله العظيم إني أرى حماراً وعبداً.

ثم استأنفنا المسير إلى أن بلغنا أكمة عالية. وأخذت أصف طول هذه الأكمة، وعلوها، إلى أن قلت. فلما وصلنا إلى رأسها. ولله العظيم أشرقت الشمس. كأن شروق الشمس من المعجزات التي لا تحدث إلا في النادر... وكنت أقصد طبعاً تسلية جماعة عودة، بعبارات آخذة بعضها برقاب بعض، لا تخرج عن الحشو، والتكرار. وإن كان في الحقيقة لم يحدث شيء... أردت أن أنحو نحو عودة في سرد قصته فمهدت لها هذه المقدمة. ثم أعدت ما قاله بطريقة روائية صادفت استحساناً فطفت موجة السرور على البدو وبرقت أساريرهم. ولما ازددت حماساً استغرقوا في الضحك حتى استلقوا على ظهورهم وكانت قهقهة عودة أعلى وأطول وأعمق من كل قهقهة وذلك لشدة غرامه بالمزاح والمجون ولإعجابه بمقدرتي على وصف الأشياء التي لم تقع.

وأخيراً عانق عودة صديقه محمد واعترف له أن القصة التي رواها، والتي وضعت حواشيها، ومقدمتها ونتائجها، قصة العقد الثمين. وإلى أي حد وصل الغضب بنسائه عليه إنما هي كلها من قبيل الخيال فضحك محمد وازداد سروراً وأبى إلا أن يكافئ عودة على ابتكاره بدعوته ومن معه إلى تناول طعام الصباح في خيمته قبل رحيلنا للاستيلاء على العقبة بساعة واحدة وأولَم محمد لنا وليمة فاخرة فقد طبخ نساؤه جملاً كاملاً في اللبن وهي من الطبخات العربية التقليدية المشهورة وقد أتقنت النساء طهيها أي إتقان.

وتحركنا قبل ظهر اليوم التاسع عشر من حزيران سنة 1917 تحت قيادة الشريف ناصر بن علي على ناقة يدعوها "غزالة" أشبه بالنعامة وكانت من خير أنواع الجمال التي تُعنى قبيلة الحويطات بتربيتها عناية فائقة.

وكان عودة إلى جانب الشريف ناصر على جمل من الجمال السريعة وكذلك كان جملي، وكان يسير وراءنا عقيل ومحمد وأحمد؛ وأحمد هذا فلاح أقام ست سنوات بين بدو الحويطات بفضل قوة عضلاته وحدة ذكائه مع أنه من رعاع القوم.

اضطجع ناصر بن علي وأخذ ينظر بنظارتي إلى النجوم يرعاها. وكان يملأ الدنيا صراخاً كلما اكتشفت نجماً صغيراً لم يلاحظه بعينيه دون نظارة.

وطلب إليَّ عودة أن أحدثه عن التلسكوبات، وعلى الأخص الأنواع الضخمة منها. المتقنة الصنع وأن أذكر له كيف ارتقى الإنسان في ثلثمائة سنة حتى استطاع أن يصنع منظاراً أطول من الخيمة، يرى به آلاف النجوم التي لا ترى بالعيون المجردة ثم طفق يسألني عن النجوم ما هي؟ وعن الشمس ما حجمها؟ وما المسافة بيننا وبينها؟ فتضايق محمد وصرخ به: بماذا تهمك هذه الأسئلة؟ فأجاب عودة:

اتركونا من هذه المواضيع إننا في الحقيقة لا نعرف شيئاً سوى الأقاليم التي نعيش فيها، والجمال، والنساء.

ثم طفق يحدثني عن قوة المال الذي كان يقول عنه إنه يسبي العقول ويفتنها. ثم همس في أذني بأنه ينبغي أن آتي له بهدية ثمينة من سيده فيصل عندما يتم الاستيلاء على العقبة.

وأخبرني عودة أنه يريد أن يتقدم الحملة ويسبقها إلى باير Bair وسألني إذا كنت أريد السير معه فوافقت حالاً وسرنا مسرعين فوصلناها في ساعتين وتوقف عودة يبحث عن قبر أبيه أحمد الذي اغتاله أبناء عمه الخمسة وقال في تأثر إنه لولا بقاء ابنه محمد لانقطع نسله.

وصممنا على قضاء أسبوع في "باير" وكنا في حاجة إلى الطعام وإلى التقرب من القبائل التي تقيم بين معان والعقبة فأرسلنا بعض الرسل من بدو الحويطات ليبتاعوا لنا كل ما يمكنهم من الدقيق من الطفيلة على أن لا يتأخروا عن خمسة أيام أو ستة ثم أخذنا نتودد إلى هذه القبائل محاولين دراسة نفسية شيوخها، ومطالب الزعماء.

ولقد كنا في حاجة إلى الاستعانة بهذه القبائل المقيمة في طريق العقبة على

قتال الأتراك وكان علينا أن نحتل "أبا اللسان" وينبوع المياه الواقع في طرف "اللسان" الأعلى على مسافة ستة عشر ميلاً من معان وكنا نعلم أن حاميتنا ضعيفة وصغيرة العدد ولكننا كنا ننتظر الفوز عن طريق المغامرة، والمباغتة، وكنا نعتقد أن القبائل التي تقيم فوق التلال عندما تسمع بخبر نجاحنا لابد أن تنضم إلينا فنكتسح من نصادفهم من الأتراك.

وكانت خطتنا أن نخلي معان إلا من حامية قليلة وأن لا نجعل الأتراك يشعرون بالحركات التي نقوم بها في الأنحاء المجاورة لها.

ولكن لم يكن من الهين علينا أن نخفي هذه الحركات عن أعدائنا فإننا كنا نعتمد فوق كل شيء على الدعاية، والدعاية العلنية القوية وكان لا بد لنا من الاجتماع بالزعماء والتحدث الطويل معهم فكان بعضم ينضمون إ لينا، ويؤمنون بأقوالنا، بينما البعض الآخر يتركوننا غير مكترثين بنا وينضمون إلى الأتراك ويفشون لهم كل ما سمعوه ولهذا وقف الأتراك على كل ما كان يجري في وادي سرحان، وايقنوا أن الغرض الوحيد الذي نرمي إليه من وراء هذه المحاولات إنما هو الاستيلاء على العقبة فما كان من الأتراك إلا أن دمروا "باير" وكان تدميرهم لها أكبر دليل على أنهم ليسوا بالنيام.

وأقبل الرسل يقولون بأنهم رأوا الجيوش التركية قادمة إلى "أبي اللسان" فاضطررنا إلى الرحيل بسرعة البرق دون أن نحاول إطلاق رصاصة واحدة. وأقبلت الفرق التركية بعد أن أرهقها السفر الشاق إلى هذا الوادي الضيق فلم تجد غير آبار المياه فقضت ليلتها في هدوء وراحة.

الفصل التاسع

وكانت الأخبار التي تصلنا عن هجوم الأتراك تبعث فينا الحياة وتدفعنا إلى الحركة.

حملنا أمتعتنا فوق جمالنا في الحال، وكنا لا نزال نحمل الخبز الساخن في أيدينا فتغطى بطبقة كثيفة من الغبار لكثرة ما تناثر منه أثناء سير هذا الجيش الكبير في بطن الوادي المحبوس هواؤه بحيث يشعر الإنسان بالضيق في التنفس رغماً عن أن الجمال الأمامية كانت تدوس على فروع الأشجار العطرية فتتطاير منها الروائح الذكية.

وقضينا وقتنا نصغي إلى غناء عودة الذي كان يسير في الطليعة يغرد كالبلبل تارة وحده، وأحياناً يشاركه الذين حوله.

وكان من يسمع هؤلاء البدو يغنون الأغاني الحماسية المثيرة لا يداخله أدنى ريب في هجوم جيش منظم.

وقضينا طول الليل على ظهور جمالنا فلما انبثق الفجر تركنا الجمال وانبطحنا على الأرض بين البتراء وأبي اللسان وكنا نمتع عيوننا بسهل الجويرة الذهبي الذي يمتاز بمناظره البديعة.

وكان قاسم أبو دميك زعيم قبيلة الدمانية يترقب قدومنا يحيط به رجاله المغاوير وقد قرأنا في وجوههم آثارالجهد الذي بذلوه في المعركة التي دارت بينهم وبين الأتراك قبل وصولنا بيوم واحد.

وكانت مقابلة عودة للشريف ناصر حارة تدل على مبلغ الصداقة التي بين هذين الرجلين العظيمين ثم عقدنا اجتماعاً على وجه السرعة لوضع خطة الهجوم.

وكان الأتراك ينامون في الوادي فتسلقنا التلال دون أن يحسوا بنا أو يلاحظونا وبدأنا نطلق عليهم النار من بعيد.

وفي الوقت نفسه ركب رحال مع بعض فرسانه وقطعوا الأسلاك التلغرافية والتليفونية في السهل فاستغرق هذا العمل النهار بطوله.

وكان ذلك اليوم شديد الحرارة بل كان أشد من أي يوم قضيته في بلاد العرب... وكان القلق يترك أثره... وكان التنقل المتواصل قد أضنانا وأرهقنا فخارت قوى بعض رجالنا الذين اشتهروا بالصلابة والقوة ولم يحتملوا لهيب هذه الشمس المحرقة فكانوا ينزوون تحت الصخور يستظلون بها ولكننا عمدنا إلى الحركة المتواصلة لنستعيض بها عن قلة عددنا.

وكانت الممرات التي نسير فيها منحدرة خطرة وكنا معرضين في الواقع الى الموت في أية لحظة ولكننا مع هذا حاولنا منازلة الأتراك ومجابهتهم.

كانت بنادقنا تكاد تلتهب من حرارة الشمس حتى أنها كوت أيدينا وأحرقتها. ثم لاحظنا أن الذخيرة التي معنا على وشك النفاذ فأخذنا نحسب حساباً لكل رصاصة نطلقها ولا نجازف بواحدة منها إلا بعد الاعتقاد بأنها ستذهب صائبة إلى الهدف الذي نقصده وكانت الصخور التي انبطحنا عليها ونحن نطلق الرصاص تتلظى لهباً فكادت تحرق أجسامنا وتركت قروحاً في صدورنا وأذرعنا وتعرضنا للعطش الشديد ولم نجد ماء كافياً فأرسلنا جماعة ليجلبوا إلينا الماء من البتراء.

وأخذنا نعزي أنفسنا بأن الأتراك يقيمون في واد محصور. أشد حراً من تلالنا المكشوفة. وأن أجسام الأتراك لا تحتمل الحرارة. وضيقنا الخناق على الأتراك ولم

نترك لهم مجالاً للحركة. ولم يكن بوسعهم تصويب الرصاص إلينا إذ كنا ننتقل بسرعة عظيمة شاذة كأننا أصبنا بالجنون، وكنا نقابل قنابلهم التي يطلقونها من مدافعهم الجبلية الصغيرة بعواصف من الضحك الشديد. والاستهزاء القاسي. ولم تصبنا شظايا هذه القنابل التي عرفنا كيف نتدارك شرها.

وفي المساء خارت قواي وشعرت أني أصبت بضربة شمس قوية وكنت قد سئمت هذه الحياة... وكرهتها... فلم أعد أبالي بشيء مما يحدث. فزحفت إلى مكان منخفض وتمددت بجانب مجرى مياه كثيرة الأوحال وأخذت أصفي الماء بكمي وأشرب لأروي ظمأي.

وأقبل الشريف ناصر وهو لا يقل عطشاً عني... جاء يلهث ويلهث... وكانت شفتاه تقطران دماً وقد انكمشتا. وهنا يظهر عودة: الكهل. المقدام. جاءنا يسير بخطوات واسعة وثابتة. وأخذ يحملق فينا بعينين محمرتين ودلائل الحيرة. والتأثر والغضب بادية على وجهه. وبعد أن كشر ما طاب له من التكشير. وعبس لأنه شاهدنا منطرحين على الأرض في هذا المكان الهادئ بجانب المياه الملوثة بالطين صرخ بصوت أجش خشن: "كيف حالة عرب الحويطات"؟... إنهم يخافون من الأتراك ولكن الأتراك يحدثون ضجة فارغة. ولا يفعلون شيئاً. لقد أطلقوا رصاصاً كثيراً ولكن معظم رصاصهم ذهب سدى. ثم اصفر وجهه وبهت. وتملكته ثورة غضب شديدة. وأخذ جسمه كله يرتجف فعمد الى تمزيق غطاء رأسه وقذف به إلى الأرض بجواري ثم ركض كالمجنون وهو يصرخ في رجاله بصوت أشبه بالخشخشة... أو حفيف الأشجار... فأقبلوا إليه مهرولين. ولم يكادوا يتلقون منه الأوامر حتى تشتتوا في كل أنحاء الوادي. وكنت أخشى أن تكون الأمور خرجت من يدي. وأن التهور قد دفع عودة لأن يخاطر بحياة هؤلاء الرجال الذين كانوا يطيعونه الى حد مدهش فنهضت باذلاً أقصى الجهد وسرت الى مكان عودة. وكان قد وصل الى قمة التل.

وأخذ يحملق في وجوه الأتراك. يكاد يلتهمهم التهاماً، ولما اقتربت منه قال:

- أسرع وأحضر جملك إذا كنت تريد أن ترى ماذا يستطيع الكهل أن يفعل.

فذهبت وأحضرت جملي وناديت الشريف ناصر فأقبل على جمله، وسرنا نحن الثلاثة على بركة الله في واد منحدر كان يوصل الى وادي أبي اللسان.

وكان عدد الذين جاءوا معنا لا يزيد عن الأربعمائة واختفينا في مكان بعيد عن أنظار العدو.

ثم تركنا عودة وسمعنا بعد قليل صياحاً وعجيجاً، ورصاصاً يدوي دوياً متواصلاً فأخذنا نحث جمالنا لنلحق بعودة، فشاهدنا الأتراك يلوذون بالفرار وقد هالهم هذا الهجوم الفجائي وأفزعهم هذا الاندفاع غير المنتظر وانتصرت شجاعة عودة وبسالة رجال عودة.

ولكن عرب الحويطات أظهروا منتهى القسوة بعد أن علموا أن الأتراك عمدوا في اليوم السابق إلى ذبح نسائهم وأطفالهم فانتقموا منهم شر انتقام ولم يبقوا إلا على 160 أسيراً وقد سقط من الأتراك بين قتلى وجرحى ثلثمائة على الأقل تبعثرت جثثهم في الأودية وتمكن البعض من الفرار بعد جهد جهيد.

وأقبل عودة يتخطر والدنيا لا تسعه من شدة الحبور، جاء يحدثنا وكان الكلام يتدفق من فيه تدفق الشلالات الجارفة وقد قال في هياج:

"نحن رجال أعمال لا رجال أقوال! أسمعتم دوي الرصاص؟ أبو تايه، أبو تايه... لا يعرف الخوف".

وأخذ يتطلع بنظارة الحقل المهشمة، ويقول إنه قد أصيب بست رصاصات ولكنه ظل حياً... ثم هدأت أعصاب هذا الشيخ الجسور، وطفق يحدثنا ويسلينا

فروى لنا كيف ابتاع منذ ثلاثة عشر عاماً نسخة من القرآن الكريم دفع فيها مائة وعشرين جنيهاً. وأنه منذ ذلك الحين يحتفظ بهذه النسخة. ومنذ ذلك الحين والرصاص يصيبه دون أن يقتله بل إنه لم يجرح في خلال هذه المدة الطويلة.

ولما أراني النسخة عرفت أنها مطبوعة في "غلاسجو" وأن ثمنها لا يزيد عن ثمانية عشر بنساً ولكنني فضلت الصمت وأعجبت بهذا الإيمان العظيم.

وقد سر عودة سروراً هائلاً بانتصاره على الأتراك وكان سروره في الأكثر لأنه كان يريد أن يظهر لي مقدرة قبيلته وشجاعة رجاله. ولم يقتل من رجالنا سوى اثنين. ولم نكن نريد أن نفقد أحداً منا. ولكن كان للوقت قيمة عظيمة. وكان من الضروري أن نحتل معان وأن نهاجم الحامية التركية الصغيرة القائمة بيننا وبين البحر وأن نضطرها للاستسلام ولهذا رأينا أن نضحي بأكثر من هذين الرجلين فكان هذا الموقف الدقيق الذي وجدنا فيه الموت رخيصاً.

ونهب العرب الأتراك وسلبوا ما يحملون من أمتعة ولم يتركوا شيئاً في خيامهم ومعسكرهم وأقبل عودة عند طلوع القمر وقال إنه ينبغي أن نتقدم. وقد أثار طلبه هذا غضب الشريف ناصر وغضبي أنا أيضاً. فقد كان علينا أن ننتقل من مكان شديد الحرارة إلى مكان شديد البرودة على علو أربعة آلاف قدم وكنا مصابين بعدة جروح ولكن عودة أصر على الانتقال مؤكداً أن أرواح الموتى الذين تناثروا حولنا لا بد أن تفزعنا في تلك الليلة ومن جهة ثانية أنه يخشى من عودة الأتراك بقوة كبيرة لمهاجمتنا: وربما كان يتخوف من هجوم قبائل أخرى من العرب لسلبنا ما غنمناه في أثناء رقادنا ولم يكن عرب الحويطات كلهم من الموالين لنا بل كان بينهم بعض الخصوم.

وبعد أن جمعنا الأسرى بدأنا المسير... وكنا فقدنا 20 جملاً بسبب الجروح التي أصابتها وكانت الجمال التي تبقت ضعيفة فعمد معظم رجالنا للسير على الأقدام.

أما الجمال الصحيحة فقد ركب على كل منها عربي وتركي.

وقد تركنا 20 جريحاً من الأسرى الأتراك بجانب النهير إذ كان الأمل في حياتهم ضعيفاً ولم يكن بوسعنا أن ننقذهم.

وتقدمت إلى الجثث عسى أن أجد عليها ثياباً تصلح لأن ينتفع بها الأحياء ولكنني وجدت البدو قد سبقوني إلى نزع ثياب القتلى الأتراك جميعها وتركوهم عُراة فإن البدوي يرى أن أكبر مظهر من مظاهر الظفر أن يرتدي ثياب أعدائه.

وتطلعت في صباح اليوم التالي وإذ برجالنا كأنهم فرقة من فرق الأتراك بثيابهم.

ونام رجالنا وانصرفنا الى كتابة الرسائل إلى شيوخ الحويطات المخيمين في الساحل نبلغهم خبر فوزنا ونطلب إليهم تطويق الأتراك القريبين منهم ريثما نصل.

وأكرمنا أحد الضباط الذين وقعوا في أيدينا وكان مكروهاً من رفاقه يحتقرونه ويزدرونه وأغريناه حتى قبل أن يكتب ثلاث رسائل لقواد: الجويرة، والكثيرة، والحضرة، تلك المراكز الثلاثة التي كانت واقعة بيننا وبين العقبة. طلبنا أن يستسلموا ووعدناهم بالمعاملة الطيبة وبإرسال الأسرى في أمان إلى مصر، وبقينا حتى الفجر نملي هذه الرسائل.

وأقبل عودة يطلب منا الرحيل فتوسلنا إليه أن يتركنا حتى نرتاح قليلاً على الأقل رأفة بالأسرى الذين كانوا في حالة من التضعضع الشديد، ولكنه أجابنا أن

استئناف المسير لا ينجم عنه سوى موت هؤلاء الأسرى. أما إذا انتظرنا فسنموت وإياهم عطشاً لأن الماء الباقي معنا قليل لا يكفي رجالنا كما أننا كنا نفتقر افتقاراً كلياً للطعام ولكنا مع هذا اضطررنا للتوقف عن المسير بعد أن قطعنا 15 ميلاً في سهول الغويرة.

والتقينا بالشيخ "ابن جاد" وكان هذا الرجل يأبى أن ينضم إلا إلى الفريق الظافر، وهو رجل لا يقل عن الثعلب في الدهاء والمكر. فلما وجد أننا انتصرنا على الأتراك أسرع فانضم إلينا، وأمطرنا كلاماً معسولاً ثم قال إنه أسر 20 تركياً نقلناهم إلى العقبة.

وأقبل اليوم الرابع من تموز سنة 1917 وشعرنا بالجوع؛ وكانت العقبة لا تزال بعيدة فهجم العرب على "الكثيرة" أقرب المراكز التركية إلينا فاستولوا عليها دون تكبد خسارة جسيمة.

وخسف القمر في تلك الليلة فأخذ الجنود يطلقون الأعيرة النارية هازجون وينقرون على الأوعية النحاسية إرهاباً وتهديداً كما جرت العادة.

وأقبل نيازي بك قائد الحامية التركية فأضافه الشريف ناصر، وأخذ يشكو لي بأن العرب أهانوه وحقروه فاعتذرت له وقلت لا بد أن يكونوا قد سمعوا هذه الشتائم من أفواه القواد الأتراك.

ووصلتنا الإشاعات بأن المراكز المحيطة بالعقبة قد ضعف شأنها وقل عدد رجالها وأنه لم يتبقى أمامنا سوى 300 رجل من جهة البحر نستطيع مهاجمتهم بسهولة ولكننا عدنا فسمعنا أن الأعداء يقاومون مقاومة تدل على ثباتهم وأن الإشاعة التي راجت عن افتقارهم للطعام غير صحيحة فعقدنا جلسة مستعجلة، واشتد الجدال بين أنصار التريث والتدبير في الأمور وأنصار الاقتحام والجرأة.

وكان عدد رجالنا يتضاعف تضاعفاً مستمراً فازدحم الوادي الضيق بهم. وتوقفنا ثلاث مرات عن الحديث لأنه لم يكن من المناسب أن يسمع البدو حديثنا كما كان الازدحام يضايقنا أشد المضايقة.

وأرسلنا إنذارات إلى الأتراك طالبين منهم الاستسلام وكان رسلنا يحملون هذه الرسائل ويحملون معها العلم الأبيض ولكن الأتراك قتلوهم عن بكرة أبيهم فأرسلنا نفس البلاغات النهائية مع بعض الأسرى الأتراك فقتلوهم أيضاً؛ فأثار هذا العمل البدو وأهاجهم وبينما كنا نتباحث رأينا البدو قد أفلتوا وأخذوا يمطرون الأعداء بوابل من الرصاص فجرى الشريف ناصر حافياً ليوقفهم وكانت الأرض ملتهبة. وبعد عشر خطوات صاح يطلب صندله.

واتصلت بالأتراك مستعيناً بواحد منهم، سرت معه إلى الخنادق التركية وطلبت منه أن يأتيني بأحد الضباط الأتراك لاحادثه فقصد الرجل المعسكر التركي وعاد مع أحد الضباط فأخذت أشرح له الحالة. وأحدثه عن قوتنا وذكرت له أنه يصعب علينا تهدئة البدو وأنهم إذا انطلقوا لا بد ان يفنوا الحامية التركية الصغيرة عن آخرها فوعد بالاستسلام في الصباح ثم تركناه وعدنا إلى نومنا.

واستفقنا في الفجر فرأينا عدد رجالننا قد تضخم كثيراً فإن البدو كانوا ينضمون إلينا طول الليل بالمئات ولكن الأتراك قابلوهم بإطلاق الرصاص فهاجوا وماجوا وخرج الشريف ناصر لملاقاة هؤلاء البدو الجدد. وطلب إليهم أن يتوقفوا عن إطلاق الرصاص فتوقفوا وكذلك فعل الأتراك وكان رصاصهم قد نفد ونفدت ذخيرتهم وطعامهم وخيل إليهم أننا نملك مقادير لا تفنى من الذخيرة ومن الطعام فاستسلموا في هدوء وانطلق البدو لنهب ما يمكن نهبه.

وسمعت مهندساً يحدثهم بالألمانية وكان لا يعرف كلمة تركية واحدة وقد

ذهل من أعمال البدو هذه، وأخذ يرجوني أن أوضح له ماذا يقصدون من أعمالهم هذه فقلت:

- "إنهم ثائرون على الأتراك".

فاراد أن يعرف من هو قائد هذه الجماعة فأجبته:

- "هو شريف مكة".

فطلب أن أرسله إلى "شريف مكة" ولكني قلت:

- "لا... بل إلى مصر".

فأخذ يسألني عن ثمن السكر في مصر، فأجبته: هو رخيص الثمن وموجود بوفرة.

ففرح، ولعله كان لا يبالي بشيء سوى أكل السكر!

وانقضضنا على العقبة في السادس من تموز أي بعد مرور شهرين على تركنا "الوجه".

الفصل العاشر

العقبة والسويس واللنبي

كانت العقبة طوال الشهور الماضية مطمح أنظارنا، وكانت الهدف الذي نصبو إليه.

كنا لا نفكر في شيء سوى العقبة بل أبينا أن نفكر في شيء سواها فلما ملكناها، وسقطت في أيدينا احتقرنا أنفسنا لأننا بذلنا مجهودات عظمى لتحقيق غرض لم ننتفع به لا مادياً ولا أدبياً.

وأيقظنا الجوع من سباتنا وذهولنا، ففتحنا عيوننا بعد تلك الغيبوبة التي استولت علينا إثر هذا الظفر فوجدنا أنه فضلاً عن الخمسمائة رجل الذين كانوا معنا وقع في يدنا سبعمائة أسير، كل منهم له "فم جائع"؛ زد على ذلك أننا كنا ننتظر انضمام أكثر من ألفي مقاتل إلينا.

ولم نكن نملك شيئاً من المال وكان قد انقضى يومان على آخر زاد تناولناه وكانت جمالنا لو ذبحناها كلها لا تكفينا سوى ستة أسابيع ولحوم الجمال ليست من الأطعمة التي تشتهيها النفس فضلاً عن غلاء ثمنها.

فكان استمرارنا على البقاء يعرضنا للهلاك حتماً لهذا كان من الضروري أن ننتقل طائعين خير من أن نبقى مرغمين.

وأقبل وقت العشاء ولم نجد شيئاً فدفعنا الجوع القاسي لأن نفكر في الاتصال

بالإنجليز الذين كانوا في السويس على مسافة مائة وخمسين ميلاً وأن نطلب منهم الإسراع بإرسال سفينة محملة بالمؤونة لنجدتنا. وأكدنا أن الإبطاء في إرسال الأطعمة لا ينجم عنه غير هلاكنا جوعاً.

ثم رأيت أن الحالة من الحراجة بدرجة أن تتطلب سفري مع الرسل الثمانية الذين كان معظمهم من قبيلة الحويطات.

واخترنا نحن التسعة أسرع المطايا من الجمال وقد كان من بينها الجمل "جداح" المشهور وهو في التاسعة من عمره والذي من أجله قاتل النواصرة بني صخر قتالاً شديداً.

وأخذنا نتحدث في الطريق عن السرعة التي ينبغي أن نسير عليها فكنا في حيرة نتخوف من مدافع الجوع حتى ولو كان سيرنا هادئاً معتدلاً فكان الأحرى لو عجلنا بالمسير وأرهقناها نصباً؛ إنها لا بد أن تخور قواها. ويلتهب جلدها. وتتوقف عن المسير بنا في وسط الصحراء.

لهذا صممنا على أن نتركها تسير سيرها الطبيعي، العادي، البطيء أطول مدة نستطيع أن نحتملها وأن نصبر عليها إذ لم يكن من الهين في ظروف كالتي كنا فيها أن نكبح عواطفنا وأن نعمد إلى الصبر.

وكنت أقطع عادة 50 ميلاً في اليوم. وبقيت شهراً أواصل الحركة والسفر حتى وهنت قواي.

ولا ينبغي أن يغيب عنا أن العربي ينتظر من الأجنبي الذي يعيش في بلاد العرب أن يقوم بالمعجزات. وأن يفلت من المآزق العديدة الخطرة التي يقع فيها لهذا كان مركزي في غاية الدقة والحراجة.

وقررنا أن نصل إلى السويس في مدة لا تزيد عن الخمسين ساعة ولكي لا نضيع الوقت في طهي الطعام في الطريق حملنا معنا طعاماً جاهزاً، كتلاً من لحم الجمال، كبيرة، مسلوقة، ومقداراً غير قليل من التمر، وقد لف كل منا حصته في خرقة وربطها وراء سرجه.

ووصلنا إلى آبار من الماء قرب منتصف الليل، وكانت هذه الآبار هي الوحيدة التي صادفناها في طريقنا فتركنا جمالنا تتنفس، وتستريح، وقدمنا لها الماء لتشرب ثم أخذنا نكرع الماء كرعاً، ونفرغ في أجوافنا أكبر مقدار يمكن أن تتحمله.

واستأنفنا المسير متثاقلين متئدين، في سكون الليل؛ وقد بلغ من هدؤنا أننا كنا نتلفت يمنة ويسرة طول الوقت إذ يخيل إلينا أننا نسمع أصواتاً بعيدة.

وبقينا نسير في بطء شديد حتى الفجر ثم توقفنا، وأطلقنا الجمال لترعى بضع دقائق والحق أنه لم يكن هناك مراع حقيقية.

امتطينا الجمال، وبقينا فوق ظهورها حتى الظهر فالعصر ونظرنا فإذا وراء السراب خرائب "نخل" في مكان موحش مقفر فاجتزناها وحان الغروب فإذا الجمال وقد أعياها المسير تخب متثاقلة بنا ولكن دليلنا مطلوق راكب الجمل "جداح" وهو بدوي أعور أبى إلا مواصلة السفر، فعدنا إلى ركوب الجمال مرغمين، وأخذنا نسير سيراً ميكانيكياً، لا نفكر في شيء. وأقبل الظهر ونحن فوق الجمال فأنخناها قليلاً للراحة ثم أستأنفنا المسير.

ومررنا عند الفجر بحقل مزروع بطيخاً، زرعه عربي جريء في هذه الأراضي المشاعة التي لا تعرف لها مالكاً وهي واقعة بين الجيوش المتحاربة ونزلنا نبلُّ ريقنا بالبطيخ ساعة من الزمان ثم تابعنا المسير تحت حرارة الشمس المحرقة؛ وإن كان وادي قناة السويس من الأودية التي يهب فيها أحياناً نسيم منعش لطيف من خليج السويس.

ولما انتصف النهار كنا لا نزال نسير فوق تل من الرمال في سهل منبسط فسيح.

وصلنا إلى مكان الخنادق، وشاهدنا الحصون والقلاع والأسلاك الشائكة، والطرق، والسكك الحديدية قد تهدمت وأصابها البوار والتلف مررنا بها مروراً وكانت بغيتنا الوصول إلى الشط وهو مكان واقع تجاه السويس على الشاطىء الأسيوي من القناة فوصلنا إليه عند الساعة الثالثة عصراً وذلك بعد مسير 49 ساعة كاملة وهذه السرعة تعد طيبة في نظر البدو لا سيما وقد سبق رحلتنا هذه أننا سرنا على الأقدام حيناً طويلاً.

وجدنا الشط في فوضى هائلة إذ لم نر حارساً واحداً في الطريق يوقفنا أويتعرض لنا بسؤال وكان الطاعون قد ظهر قبل وصولنا بيومين أو ثلاثة أيام وهذا ما دعا الجنود إلى هجر معسكراتهم وترك خيامهم قائمة في أمكنتها والهرب إلى الجبل النظيف. وطبعاً لم تبلغنا هذه الأخبار ولم نكن سمعنا شيئاً عنها فأخذنا نبحث في المعسكر الخاوي حتى عثرنا على آلة تلفون فخاطبت قيادة البحرية في السويس وأعلمتها برغبتي في الوصول إلى القيادة العليا فأظهر المتكلم أسفه. وذكر أنه لا يستطيع أن يفعل أي شيء لنا.

وعدت أطلب منه تدبير قارب يوصلني إلى القيادة العليا فعادت إدارة السويس تظهر أسفها وتطلب أن ننتظر حتى الصباح لعدم وجود قوارب في ذلك الوقت وأنها تعد بإرسال قارب يحملني إلى المحجر الصحي ومن هناك أستطيع مخاطبة القيادة العليا تلفونياً.

وكان قد مرَّ عليَّ أربعة أشهر في بلاد العرب. كنت خلالها في حركة دائمة. وسفر متواصل.

أجل، قطعت في الأسابيع الأربعة الأخيرة أربعمائة ميل على الجمل. لا أحس بشيء من الجهد. لزيادة نار الحرب لهيباً واشتعالاً ولكن الحشرات في تلك الليلة كانت تأكل جسمي أكلاً ولهذا أبيتُ أن أقضي ليلة واحدة أكثر مما قضيت دون أن أغسل جسمي جيداً، وأطهره تطهيراً تاماً؛ لقد اشتقت للاستحمام بعد المدة التي قضيتها محروماً منه، وتاقت نفسي للماء يضاف إليه شيء من الثلج الذي يشربه أهل المدن في شهور الصيف الحارة. صممت على استبدال ثيابي القذرة الكريهة الرائحة بثياب نظيفة أنيقة واشتهيت أن آكل شيئاً ليناً طرياً. غير البلح الأخضر الناشف وعضلات الجمال، عدت إلى التليفون، تحدثت ثانية ولكن دون جدوى وأخيراً خاطبني الميجر ليتلتون وهو من الرجال المغامرين فإنه فضلاً عن أعماله التي لا تحصى كان يضع يده على كل السفن التي تدخل قناة السويس. ويغريها في حمل ما يمكنها حمله من المؤونة لـ"الوجه" أو لـ"ينبع" فلما سمع هذا الميجر عن مكاني أرسل زورقه البخاري في الحال وأكد لي أنه سيصلني في أقل من نصف ساعة وأن عليَّ أن آتي إليه مباشرة ومر الزورق في مياه قناة السويس المقدسة دون أن يحمل إذناً من إدارة القناة...

وأرسلت رجالي وجمالي إلى مكان يقال له "كوبري" على أن أعدّ لهم الطعام، والمأوى، ولحسن حظهم أنهم نقلوا معي إلى القاهرة وتمتعوا بما فيها من جَمال وسحر.

ولما وجد الميجر مبلغ انحطاط قواي، والحالة المزرية التي كنت فيها سمح لي بالذهاب فوراً إلى الفندق، فندق سيناء الفخم، وليتصور القارئ كيف استقبلوني في هذا الفندق؛ كان من الطبيعي أن يظهروا لي الكره جلياً. على الأقل لحالة ثيابي المزرية الكريهة الرائحة ولكني استطعت أن اتحدثت وأن أنال عن طريق الحديث حظوة في عيونهم؛ نعم استطعت تبديد ذلك الأثر السيء الذي انطبع في نفوسهم عندما وقع نظرهم عليَّ وقام صاحب الفندق معي إلى الحمام فقضيت مدة طويلة أتمتع

بلذة الاستحمام بالمياه الساخنة بعد أن بقي جسمي أربعة شهور كاملة لا يغسل لندرة المياه في الصحراء.

ثم قدَّم الخادم لي أقداح الماء المثلج، واحداً بعد آخر إلى أن فرغت ستة أقداح ثم تناولت العشاء الفاخر وذهبت إلى غرفتي الأنيقة لأستمتع بلذة النوم الهادئ المريح بعد ذلك التعب الشديد، واستغرقت في النوم.

وتولى أحد ضباط دائرة الاستخبارات وهو من الضباط المشهورين بذكائهم وفطنتهم أمر العناية برجالي في "الكوبري" فقد أبلغته خبر وصولنا فأعد لنا التذاكر، وجوازات السفر للرحيل إلى مصر فرحلنا في اليوم التالي.

ووصلنا إلى الإسماعيلية، وانتظرنا قدوم القطار من بور سعيد فلما وصل نزل من أحد صالوناته الفخمة التي لا تليق لسفر غير أهل الثروة والسعة الاميرال ويمز والضابطان برمستر ونيفيل وجنرال كبير لا أذكر اسمه. وتمشى هؤلاء الأربعة على الرصيف في هيئة تدل على عظمة وجلال يتحدثون بأصوات منخفضة كأنهم يعالجون شؤوناً ذات وزن وخطورة. أما هلع الموظفين والمأمورين فحدث عنه ولا حرج. لم يكتفوا بتحيتهم مرة ومرتين بل حاولوا أن يحيوهم للمرة الثالثة ولكنهد عادوا فتراجعوا إذ لم يكن من اللائق "التثليث" ووقفوا وقفة عسكرية منتصبة كأنهم أعمدة قائمة. كانوا من الجماعة التي لا تعرف غير المسكنة والصغارة والحقارة وهرب البعض الآخر لأنهم شعروا أنهم من صغار الموظفين المزدرى بهم.

وانصرف عدد منهم إلى قراءة الإعلانات والقرارات المنشورة على اللوحات.

ولكني كنت ألاحظ هذا كله وفي نفس الوقت أتفرس في هؤلاء الأربعة إلى أن وقعت عين الضابط برمستر عليَّ فاستولى عليه العجب من جرأتي هذه وأقبل يحادثني.

كان جسمي قد احترق، وتلون بلون القرمز، وكان السفر الطويل المرهق قد أنحلني وبهذه المناسبة أذكر أني وزنت نفسي فيما بعد فوجدت انه لا يزيد عن سبعة أحجار والحجر عيار إنجليزي وزنه 14 ليبرة.

أقبل الضابط يحدثني فانتهزت هذه الفرصة وسردت عليه قصة غارتنا على العقبة على غير انتظار فاستفزه حديثي وأثاره للحد الأقصى فسألته أن يطلب من الأميرال أن يأمر بإرسال سفينة محملة بالأطعمة في الحال فقال أن الباخرة "دوفرين" التي وصلت في النهار نفسه ستشحن كل ما تجده من الطعام في السويس وأنه سيأمر بإرسالها مباشرة إلى العقبة وتعود محملة بالأسرى فصرخت:

- حسن جداً... حسن جداً... فاستطرد: ولا حاجة لانتظار أوامر الأميرال أوقرارات اللنبي. فصرخت:
- اللنبي؟... اللنبي؟ وماذا يفعل اللنبي هنا؟
- إنه هنا الآن.
- أين موراي.
- عاد إلى إنجلترا.

وكانت لهذه الأخبار أهمية شخصية في نظري.

سافرنا إلى القاهرة وقصدت كلايتون في فندق سافواي الفخم وكلايتون من الرجال الذين يحرمون أنفسهم حتى من ساعة راحة يتناولون فيها الطعام لكثرة الأعمال التي يقوم بها.

دخلت في هدوء فرفع نظره في بطء وقال لما رآني:

- "مش فاضي"... ولكني مع هذا قدمت له التقرير الذي كنت قد وضعته في السويس فقرأه في ذهول عجيب وعاد يرحب بي فجأة ويدعوني للجلوس.

وقبل أن تنتهي الساعة دق الأميرال جرس التلفون وقال إن الباخرة دوفرين قد حملت دقيقاً للعرب لأنهم في حاجة قصوى للطعام.

وأخرج كلايتون من خزانته ستة عشر ألفاً من الجنيهات الذهب وأرسلها مع رسول خاص إلى السويس في قطار الساعة الثالثة؛ إذ كان من الضروري أن يرسل هذا المبلغ على جناح السرعة حتى يتمكن الشريف ناصر من تسديد نفقات الجيش.

كنا في الواقع نشتري كل الأشياء التي نريد شراؤها. ولا نقدم في نظيرها مالاً، بل أوراقاً نكتب عليها عبارات ووعود بأقلام الرصاص ونتعهد في هذه الأوراق بدفع ما علينا حال وصولنا إلى العقبة وكانت هذه الطريقة التي اتبعناها تدل على حذق لأنها أخرجتنا من مآزق حرجة ولم يكن أحد قد سبقنا إليها في كل تاريخ بلاد العرب ولكن من ناحية أخرى كان علينا أن نفي بالوعود التي قطعناها وإلا ضاعت كرامتنا.

ولم يكن من الهين أن نصرف هذه الأوراق" المالية" فقد كان البدو يحجمون عن قبولها إحجاماً شديداً. وقد يكون إحجامهم هذا لخلو ثيابهم من الجيوب أو لأنهم لا يستطيعون دفن هذه الأوراق كما يدفنون الذهب زيادة في الحرص عليه لهذا سررت بإرسال هذا المبلغ وسددنا الدين الذي علينا.

وأرسل اللبني يستدعيني فإني في تقريري قد فكرت كما كان يفكر صلاح الدين الأيوبي، وأبو عبيدة، فشددت في أهمية القبائل، التي تقيم في شرق سوريا، الحربية طبعاً. وقلت إنه يمكن الانتفاع بها في تهديد مواصلات القدس فكانت هذه الفكرة وحدها كافية لإدخال الانشراح إلى قلب اللبني فطلب مقابلتي ليظهر تقديره وليزنني فيعرف قيمتي وهو من الرجال الذين يتميزون بضخامة أجسامهم،

وبصراحتهم اللامتناهية يتطلع إليَّ وكنت أرنو إليه فألمس دلائل الحيرة، وآثار الارتباك في وجهه. كان اللنبي قد وصل حديثاً من فرنسا حيث كان جزءاً من أجزاء الآلة العظيمة التي تطحن الأعداء طحناً.

وكان قد تشبع بالأفكار الغربية كل التشبع. لا يقدّر غير القوة، ولا يعرف سوى نار المدافع الحامية. فلم يكن في وسعه أن يفهم كيف يمكن لرجل مثلي، يسير عاري القدمين، وفي رداء عربي حريري لا يعرف لونه لقذارته أن يهزم الأعداء، وأن يفعل هذا عن طريق شيء جديد يقال له "الدعاية القوية المنظمة، الدعاية التي تحرك العرب، وتوقظهم، وتلهبهم وتستفزهم.." وإني لا أطلب شيئاً سوى القدر الكافي من الذخيرة، ومن السلاح، مع مبلغ ضئيل مائتي ألف جنيه فقط. أخذ ينظر إليّ اللنبي الجندي الحربي الذي لا يعرف هذه السبل التي كنت ألجأ إليها بدافع الحاجة، السبل المعوجة غير الصريحة. لا يعرف إذا كان كلامي هذا من قبيل الحذق المفرط أو الخداع المتقن؛ كان يريد أن يتأكد هل حديثي هذا يدل على عبقرية أو خداع، ثم ما نسبة الحذق للشيطنة وللبهلوانية وللتمويه!

ولم يحاول اللنبي في ذلك الحين أن يقف على الحقيقة فكانت الأسئلة التي طرحها عليّ غير كثيرة بل تركني أتحدث وهو ينظر في خلال حديثي إلى خريطة سوريا فأسهبت في الحديث عن سوريا الشرقية ومقدرة سكانها المدهشة.

وبعد أن أتممت حديثي قال لي في هدوء: سأقوم بأقصى ما يمكن أن أفعله.

ولم أكن أدري حتى تلك الساعة إلى أي حد أوقعته في الفخ الذي نصبته كما أني لم أكن أعرف شيئاً عن مقدرته ومواهبه ولكنه برهن لي شيئاً فشيئاً أنه ذو موهبة نادرة وأنه من الرجال الذين يتقيدون بالوعود التي يقطعونها على أنفسهم وإن ما قام به فوق ما كنت أنتظر منه، بل فوق ما كنت أحلم.

الفصل الحادي عشر

لما اجتمعت بكلايتون صارحته بكل شيء وقلت له إن العقبة لم تؤخذ إلا بعد أن اتبع الإنجليز الخطة التي رسمتها لهم وبفضل الجهود الكبيرة التي بذلتها. ولكن الاستيلاء على العقبة لم يكن كل ما أطمح إليه ولم يكن كل ما أستطيع أن أفعله.. هذا إذا كان كلايتون يظن بأن لي الحق أن أكون سيداً على نفسي.

اما كلايتون فمع موافقتي له قد صرح أنه ليس بإمكانه أن يجعل أصغر الضباط في الجيش رئيساً للجيش في العقبة وارتأى أن أترك القيادة لجويس فصادف هذا الرأي هوى خاصاً من نفسي لأنه كان يتفق مع مصلحتي الشخصية فجويس رجل يمكن العمل معه لأنه مشهور برزانته وهدوئه وثباته. هو رجل يُعنى بتثقيف عقله وإن كانت أفكاره ضيقة محصورة، وهو ممن يقدرون الأصدقاء والخلان، وكان من المعقول أن نتفق معاً ونعمل يداً واحدة. أما قضية بقية الضباط الذين يعملون معنا فلم تكن من القضايا ذات البال ما دامت الرأس سليمة.

لم يكن ميسوراً لنا نقل الطيارات والانتفاع بها ولكن كان بوسعنا الإتيان بالسيارات المسلحة، مع سفينة حربية لحمايتنا فخاطبنا في ذلك أمير البحر الأميرال "السير روسلن ويمس" الذي كان كريماً إلى الحد الأقصى فأرسل إلينا سفينته أوريالوس الضخمة لتبقى عدة أسابيع في العقبة. وكان اختياره هذا يدل على ذكاء وحذق فإنهم في بلاد العرب يقدرون السفن بعدد مداخنها وسواريها وكانت باخرة

أمير البحر هذه ذات أربع مداخن، وكانت شهرتها العظيمة تدخل الاطمئنان إلى قلوب الأهلين وتجعلهم يوقنون بالنصر، وكان عدد بحارتها كبيراً وقد عمدوا إلى تسلية العرب وإدخال الانشراح إلى صدورهم.

واقبل الشريف فيصل من "الوجه" بجيشه الكامل فبينت له أن العقبة هي جناح اللنبي الأيمن. وأنها لا تبعد سوى مائة ميل عن مركزه ولكنها تبعد ثمانمائة ميل عن مكة المكرمة وأنه كلما ازداد العرب توفيقاً في القتال انتقلت المعارك رويداً رويداً إلى الميادين الفلسطينية وأنه من المعقول ومن المنطق أن ينتقل فيصل من الأراضي التي كانت تحت حكم الملك حسين ليصبح قائداً للحملة المصرية التي يقودها الجنرال اللنبي.

ولكن هذه الفكرة على وجاهتها لم تكن ميسورة بل كانت محفوفة بالصعاب. فأخذت أسأل نفسي:

هل يقبل فيصل؟... لقد حادثته في هذا الموضوع قبل شهور عندما كنا في "الوجه" معاً. ماذا يكون رأي المندوب السامي الإنجليزي في قضية كهذه؟ لقد كان جيش فيصل أكبر الوحدات الحجازية وأعظمها شأناً. وكان الجنرال وينجيت قد حمل أعباء الحركة العربية كلها في أظلم ساعاتها وأشدها حرجاً فهل نتجاسر بعد أن عرّض سمعته للخطر فنطلب منه التخلي عنها حينما بدأت تنتعش وقاربت النجاح.

وكان كلايتون ممن يعرفون وينجيت معرفة جيدة لهذا لم يجد ما يمنعه عن عرض الفكرة عليه فأجاب وينجيت فوراً أنه إذا كان اللنبي يرى فيصل أكثر نفعاً منه في الوقت الحاضر للقضية فإنه يتخلى له عن القيادة بكل رضى وطيبة خاطر كانت هناك صعوبة ثالثة لا شأن فيها لموافقة فيصل وتأييد وينجيت: أجل كان علينا أن

نرغب الملك حسين في تأييد هذا المشروع. والملك حسين من الرجال الذين اشتهروا بالصلابة والعناد وكان الأمل ضعيفاً فإذا هو عارضنا تعرض مشروعنا للخطر ولهذا رأيت أن أذهب إليه وأستشيره فاجتمعت بفيصل واستحصلت منه على كل التوصيات التي كانت تؤيد خطابات وينجيت بهذا الخصوص. وقَبل فيصل أن يمدني بكل مساعدة يستطيعها بدافع غيرته الوطنية المتقدة.

وعادت الباخرة دوفرين من العقبة فحملتني إلى جدة للقيام بهذه المهمة الجديدة.

وأقبل الملك حسين من مكة فحدثني في أمور كثيرة. وأقبل ولسون فعرضت المشروع فوافق الملك حسين فوراً وانتهزت هذه الفرصة لإظهار ولائه لنا.

أخذ يحدثني عن الزعامة الدينية ويصف نفسه وصفاً دقيقاً فيقول بأنه ليس بالشيعي المتحمس للشيعة ولا بالسني المتحمس للسنة ولكنه أحد عباد الله البسطاء الذين يفسرون العقائد الإسلامية تفسيراً معقولاً بسيطاً وقد أدركت من حديثه عمق روحانيته فقد كان في الحقيقة شديد الحذر من خصومه.

لقد كنت أخشى بشكل كبير أن يعمد طلاب الأذى المغرضون إلى إيقاع فتنة بين الأب وابنه وبين الإنجليز والعرب.

وبينما كنا نقضي في جدة وقتاً طيباً من أسعد الأوقات وصلتنا برقيتان موجزتان من مصر قضتا على هدوئنا. البرقية الأولى تقول إن عرب الحويطات اتصلوا سراً بالأتراك وأن المفاوضات جارية بين الفريقين.

والبرقية الثانية تقول إن عودة أبو تايه قد انضم إلى هؤلاء المتآمرين على فيصل.

وكان هذا العمل من عرب الحويطات يعد في الواقع خيانة وغدراً فسافر

ولسون في الحال واجتمع بـ"عودة" الذي أظهر له منتهى الولاء والإخلاص ولكن محمد الدحلان كان يلعب على الحبلين ويظهر بوجهين وبقي جاد ورفاقه يتذبذبون كعقرب الساعة تارة يهبوننا قلوبهم وطوراً ينفضون عنا.

ولحسن حظنا كانت الباخرة هاردنج تنتظرنا في الميناء فحملتنا إلى العقبة حيث اجتمعنا بناصر الذي كان لا يرتاب في شيء بل يرى الأمور تسير سيرها الطيب وتجري في مجراها الطبيعي فكاشفته برغبتي في الاجتماع بـ"عودة" لتحيته والسلام عليه فأعارني جملاً سريعاً ودليلاً مرشداً.

ووجدنا عند الفجر عودة ومحمد وزحل في خيمة واحدة في الجويرة فلما هبطت عليهم فجأة اضطربوا وارتبكوا لأنهم لم يكونوا بانتظار قدومي.

وأولمت الولائم وتناولنا الطعام كأصدقاء.

وأقبل بعض عرب الحويطات وتعرضت للموضوع الذي من أجله جئت فجرى حديث طويل بيننا تخلله المرح والطرب وكنت أحمل معي الهدايا الملكية فوزعتها وأخبرتهم وسط عاصفة من الضحك بأن الشريف ناصر قد حصل فعلاً على إجازة لقضاء شهر في مكة وكانوا يعرفون شدة عناد الملك حسين وتحمسه للثورة وتشبثه بأن لا يُسمح للرجال العاملين تحت أمرته بزيارة مكة والاستمتاع بحياة زوجية هانئة وكان هؤلاء يرون في الخدمة الحربية المستمرة عبئاً ثقيل الوطأة لبعدهم عن ملاذهم الجسدية ومعاشرة زوجاتهم.

وكنا قد قلنا، على سبيل المزاح، أكثر من مائة مرة. إنه بعد أن يتم لنا الظفر ونحتل العقبة لا بد أن يأخذ الشريف ناصر هذه الإجازة التي يستحقها ولكنه في الحقيقة كان لا يصدق أقوالي ولم يصدق أن الحسين يأذن بعودته إلى حريمه إلا بعد أن تسلم رسالة الملك.

وأراد الشريف ناصر أن يظهر امتنانه مني فباعني ناقته السريعة التي غنمها من عرب الحويطات. وزاد شغف عودة بي زيادة عظيمة وأخذ يضاعف من اهتمامه بأمري.

وبعد أن تناولنا طعام الغداء الخفيف استلقيت متظاهراً بالنوم لكي أتخلص من الزائرين.

وفجأة سألت عودة ومحمد أن يسيرا معي إلى قلعة مهدمة ومخزن للماء هناك وبعد أن انفردنا نحن الثلاثة تعرضت لموضوع اتصالهما السري بالأتراك والخطابات السرية المكتومة التي تبودلت بينهما وبين الأعداء فاستغرق عودة في الضحك أما محمد فأظهر اشمئزازه من هذه "الإشاعة" واحتقاره المنافقين.

ولكنهم عادوا يصرحون بالحقيقة ويقولون إن محمد أخذ ختم عودة وكتب عدة رسائل لحاكم معان يعرض عليه تخلي عرب الحويطات عن فيصل وانضمامهم للأتراك الذين كانوا يجيبون على هذه الرسائل بوعدهم بالهدايا والمكافآت العظيمة وأنهم باتوا يحلمون بهذه الكنوز التي تنتظرهم إلى أن طلب محمد ذات يوم أن يرسلوا له شيئاً على الحساب.

وسمع عودة بالخبر فانتظر الرسول الذي يحمل هذه الهدايا في الطريق وانقض عليه وسلخه حتى من جلده. وحرم محمد من أي جزء من هذه الغنيمة التركية.

هذه خلاصة القصة التي روياها لي وكانت رواية فكهة تساعدنا على الاستغراق في الضحك ولكنها كانت تحمل وراءها شيئاً آخر لا يحمل على الضحك؛ أليس العرب إذن صادقين عندما يقولون "شر البلية ما يضحك".

وبحثت عن السر في انقلاب هؤلاء العرب على الإنجليز واتصالهم سراً بالأتراك. فتبين لي أنهم لا يشكون إلا المماطلة الظاهرة في تحقيق مطالبهم. فهم قد طلبوا عدة

مرات من السلطات الإنجليزية أن تمدهم بالمدافع وأن ترسل إليهم الذخيرة ولكنها لم ترسل إليهم ولا مدفعاً واحداً.

وكان ما لديهم من الذخيرة ضئيلاً لا ينفع، وأنهم قد احتلوا العقبة ولم يكافأوا بالمال لقاء احتلالها؛ على أن هذا لم يكن في نظرهم أهم من الوقوف على الطريقة التي توصلت بها إلى كشف أسرارهم ومعرفة مؤامراتهم.

فقد ألحوا عليّ أن أعلمهم عن مصدر هذه الإشاعة والطرق التي استعملت للوصول إلى هذه المعلومات ولكني انصرفت عنهم وأخذت أقوم ببعض الألعاب الخطرة على حافة ناعمة منحدرة وأنا مستغرق في الضحك متظاهراً بقلة الاكتراث.

فكانوا يرون هذا المنظر ويعجبون من مخاطراتي التي تركت أثرها في نفوسهم ثم أخذت أردد العبارات التي استعملوها في كتاباتهم السرية للأتراك، فازدادوا دهشة.

وأخيراً قلت إن جيش فيصل بكامله على وشك الوصول وأن اللنبي يتابع إرسال البنادق والمدافع والمفرقعات والطعام والأموال للعقبة.

وانتقلت من هذا الحديث إلى بيت القصيدة فقلت إن نفقات ولائم عودة التي يذهب فيها إلى أقصى حدود الكرم لا بد أن تكون ثقيلة باهظة مرهقة ولهذا فلابد أن يبعث فيصل إليه هدية من هداياه الثمينة.

فكان لهذا الوعد أثره في تهدئة الأعصاب المضطربة وسرعان ما تبددت الغيوم وصفا الجو وراق.

ورأى عودة أنه ليس من الحكمة أن يضيع هذه الفرصة أو يهملها وأن تأييده لفيصل لا يمكن أن يكون مجدياً.

وأخذ يحلم بهدية فيصل وأخذ جماعته يحلمون بحصصهم من هذه الهدية وكانوا يقولون في أنفسهم:

"إذا لم يف فيصل بوعده فلا أسهل علينا من الرجوع إلى موالاة الأتراك ساعة نشاء".

واتفقنا أن نواصل الهجوم، وأن ندفع ثمنه. فنجعل عرب الحويطات في يسر ونوزع عليهم الطعام والذخيرة، والمثل العربي يقول:

"وكما تراني يا جميل أراك".

وهو مثل ينطبق على حياتنا الحاضرة كل الانطباق وكانت الشمس قد مالت إلى الغروب فنحر زحل كبشاً فأكلنا وتصافينا.

وامتطيت جملي وذهبت على أن أعود حاملاً الدفعة الأولى لـ"عودة" وكان معنا أيضاً عبد الرحمن أحد خدم محمد الذي أقبل يهمس في أذني أنه لا يرضى بأية حصة أقدمها له على حدة.

ولما وصلت أيقظت ناصراً من النوم لينهي المعاملات "التجارية" التي بدأت بها ويقدم المال اللازم لعودة.

ولم يكن أحد يظن أن بإمكاني الوصول إلى الجويرة والتأكد من إخلاص "عودة" والعودة في أقل من ستة أو سبعة أيام.

واتصلنا فوراً بالقاهرة وخاطبنا السلطات الإنجليزية تليفونياً فأكدنا لها بأن التوقف لا يدعو إلى شيء من الاضطراب وأن العرب لا يفكرون في الخديعة.

وكانت أقوالي هذه تكاد تكون كاذبة ولكني اضطررت أن أعمد إلى الكذب لأحافظ على ثقة الإنجليز في العرب ولتبقى قصتنا أسطورة من الأساطير.

الفصل الثاني عشر

وصلت السفن إلى العقبة ونزل فيصل يتبعه جعفر ساعده وجويس العرابة الجني.

وصلت السيارات المسلحة ووصل معها العمال المصريون والجنود الذين كانوا يعدون بالألوف.

وكنا قد قضينا ستة أسابيع في هدوء وسكينة وأخذ الجنرال فالكنهاين الألماني ينصح الأتراك بأن يقدروا مقاومتنا أكثر مما كانوا يقدرونها وكان الجيش التركي في معان تحت قيادة بهجت باشا مؤلفاً من ستة آلاف من الجنود المشاة والفرسان.

وكان الأتراك قد حصنوا معان وحفروا حولها الخنادق حتى باتت منيعة لا يمكن أن تؤخذ بالحركات العسكرية المنتظمة وكان هناك سرب من الطائرات لا ينقطع عن الطيران يوماً واحداً؛ أجل كانت المعدات التركية قد أصبحت كاملة فابتدأوا يتحركون وكان هدفهم الجويرة لأنها أفضل طريق موصل للعقبة وتقدم زهاء ألفي جندي من المشاة إلى "أبي اللسان"، واستعد الأتراك لكل هجمة تأتيهم من العرب من ناحية وادي موسى.

ورأينا أن نستغل اضطراب الأتراك هذا وأن نغذيه وقد أردنا أن نلاعب الأتراك ونحملهم على الانتظار في وادي موسى وهو من الأودية الحصينة وكنا نعرف كيف نستغل هذا الموقع الجغرافي البديع. وإمعاناً في التمويه أخذنا في المناوشات

فازداد الأتراك حماساً وقابلوا مناوشاتنا البسيطة بحملات قوية عرضتهم طبعاً للخسائر الفادحة الجسيمة.

سار مولود مع فرقة من الفرسان إلى خرائب البتراء المشهورة فأخذوا يخطفون البنادق من الحراس الأتراك الذين يصادفونهم ويسلبونهم ما عندهم من الذخيرة وظلوا عدة أسابيع يقومون بهذه المداعبات والأتراك يزدادون انفعالاً وغضباً.

وكان الجنرال سالمون قد وعدنا بالهجوم الجوي على معان لإقلاق راحة الأتراك ولكنه عاد فوجد أنه يصعب عليه الإيفاء بوعده وانه انتخب "ستنت" لينوب عنه بهذا العمل مع بعض الطيارين المجربين الذين كانوا في رابغ أو الوجه وأنه قد طلب إليهم أن يبذلوا أقصى جهدهم في تكدير صفو الأتراك.

وكانت الظروف قد ساعدت هؤلاء الطيارين على ممارسة النزول الاضطراري في الأراضي الصحراوية في أماكن مجهولة لم توضع لها خرائط و"ستنت" ممن يجيدون التكلم بالعربية إجادة تامة. وكان قائد هذه الحملة الجوية من الرجال الذين يعتزون بثرواتهم ومواردهم، ويحملون أنفسهم من الجهد فوق طاقتهم.

كان يطير هذا القائد مع رفاقه على علو بسيط ليتمكنوا من إصابة الهدف بسهولة فألقوا 32 قنبلة على المحطة التي لم تكن متأهبة لهذا الهجوم وأصابت قنبلتان المعسكر التركي فأدت إلى سقوط 35 قتيلاً و50 جريحاً وسقطت قنبلة على مطبخ الجنرال فقضت على طباخه، وذهبت بالطعام الذي كان قد أعده لفطوره. وهبطت أربع قنابل على المطار وثمان على مستودع المؤونة فألحقت بهما أضراراً جسيمة.

وبعد أن قذفت هذه الطائرات قنابلها المحشوة من نوع "شربنل" عادت سليمة مع ربانها إلى مقرها المؤقت في كونتيلا.

وفي مساء اليوم نفسه أصلحوا الطيارات وأعدوها لحملة جديدة ثم ناموا بعد أن أسدل الظلام سدوله واستيقظوا في الصباح الباكر لمباشرة الهجوم الجديد وكانت الحملة في هذه المرة مؤلفة من ثلاث طيارات قصدت أبا اللسان فتطلع "ستنت" إلى معسكر الأتراك العظيم وأمر رجاله بإطلاق القنابل على الخيول التي كانت هناك وعلى ما يصادفونه من حيوانات ثم ارتدوا على الأتراك في خيامهم وشتّتوهم ونجحوا هذه المرة كما نجحوا في المرة السابقة فألقوا عدداً كبيراً من القنابل ولكن الضحايا لم تكن كثيرة وقبل أن ينتصف النهار عادوا إلى مقرهم آمنين.

وفحص ستنت ما عنده من القنابل فوجد الباقي منها كافياً لحملة ثالثة فطارت الطائرات في منتصف النهار وكانت محملة في هذه المرة أحمالاً ثقيلة يصعب معها أن تطير على علو كبير. ووصلت إلى أبي اللسان والأتراك يميلون للنوم دائماً عند الظهر فوجدتهم يغطون في أحلامهم اللذيذة فألقت طائراتنا 30 قنبلة قصت على عشرات الرجال والحيوانات وبعد أن خفضت من وزنها الثقيل حلقت طائرة إلى العريش. أما العرب فقد غمرهم السرور لهذا النجاح بينما استولى الذعر على الأتراك من هذا الهجوم المتواصل الشديد والجرأة النادرة العجيبة. وأمر بهجت باشا رجاله أن يحفروا الأماكن التي يلجأون إليها وكانت طائراتنا قد ألحقت الضرر الكبير بسرب الطائرات التركية فبعد أن أصلحت طارت للدفاع عن المعسكر التركي.

ومن هذا ترى أننا قاومنا الأتراك بطريقة الإزعاج والتشويش فأصبحوا في فوضى يحسبون معها أن قواتنا عظيمة لا تحد مع أنها لم تكن كذلك وقد أقلقناهم إذ قطعنا عنهم المواصلات بتخريب السكك الحديدية بالديناميت ونسف القطارات.

وقد شجعني في هذا العمل التخريبي بعض الإنجليز وفي مقدمتهم الجنرال رايت الذي كان أكبر مهندس في مصر وكان شغوفاً بأعمالي الجهنمية شغفاً عظيماً فأرسل

إليَّ الآلات التي أوصيته عليها وقدمت نفسي للكابتن سناج الذي كان يقيم في باخرة من أفخر البواخر المتهيئة للسفر إلى البرازيل وكان من الإنجليز الذين اشتهروا بالكرم ودفعه حب الاستطلاع لمراقبة كل ما يجري على الشاطئ وكان يجد شيئاً مضحكاً في كل شيء حتى في النكبات الصغيرة التي كانت تحل بنا.

كان يضحك إذا حدثناه عن فشلنا وكان يكافئ على سرد القصة التي تعجبه من قصصي بإعداد حمّام ساخن لي في الباخرة ينعشني ويضاعف من نشاطي كما كان يقدم لي الشاي مع الأطعمة اللذيذة التي تطهى في المدن الراقية وهي خالية طبعاً من الرمال وكان هذا القائد البحري يضاعف من حماسنا عندما يتسرب اليأس إلى قلوبنا وقد ألقى عليَّ عدة دروس في النسف.

وكانت أقرب المحطات إلينا المدورة التي تبعد 80 ميلاً عن جنوبي معان فذهبنا إليها لنسف بعض القطارات التي تمر بها وكان نسف هذه القطارات يضايق الأتراك كثيراً. أما الرجال الذين كنت أستعين بهم فهم من عرب الحويطات المتمرنين على النسف وفي نفس الوقت أخذت أغري بعض الفلاحين من حوران لأضمهم إلى أتباعي الخصوصيين بعد أن يبرعوا في نسف القطارات واقتلاع السكك الحديدية. ولما كان قد أصبح لحوران أهمية عظيمة فقد وجب علينا أن نتعلم لهجة أهلها. وأخذ هؤلاء الرفاق الثلاثة زحل وعساف وحميد يقصون عليَّ في أثناء السفر اسرار بلادهم وهم لا يشعرون.

وخصص لنا "سناج" جزءاً من سفينته لعدم وجود معسكر إنجليزي قرب الشاطئ.

ووصلنا إلى الجويرة وانتظرنا هناك في تعقل ورصانة بينما كانت جمالنا ترعى ما تجده في طريقها من القش والنباتات ثم انتقلنا إلى "روم" القريبة من آبار بني

عطية وكنت أتوق إلى رؤية هذا المكان فإن نفس عرب الحويطات الذين لم يشتهروا بالعواطف وحب الخيال قد وصفوه لي بالجمال والفتنة وكنا ننوي الذهاب إليه في الغد ولكن جاءني في الصباح الباكر بينما النجوم لا تزال تنير السماء عبدُ يوقظني من نومي ويقول بصوت مرتجف:

لقد أصبت بالعمى يا سيدي. فطلبت إليه أن يجلس ورأيته يرتجف من شدة البرد ولم أستطع الوقوف منه على أية معلومات فكان كل ما ذكره لي أنه قد أصيب بالعمى في أثناء الليل وانه لا يرى ما أمامه وانه يحس بألم شديد في عينيه وأيقنت أن الشمس قد ذهبت ببصره.

وخرج العرب من خيامهم المنصوبة بجانب الينابيع وكنا قد أشعلنا النار وأخذنا نطبخ الأرز ونضيف إليه اللحم بينما أخذ رجالي بإعداد القهوة لمن يأتي إلينا من الزائرين.

ولم يكن هؤلاء العرب أغبياء فقد أدركوا الغرض الذي جئنا من أجله فلم تمض الساعة حتى كان الشيوخ قد وافقوا على كل ما عرضناه عليهم.

الفصل الثالث عشر

وفي فجر اليوم السادس عشر من أيلول سنة 1917 شددنا الرحال نقصد العقبة وكانت جماعاتنا أشبه بالشوارد أو العقد المفروط فقد أبت كل جماعة بالرغم من ضآلة عددها السير بجانب الأخرى بل كان العربي ينفر من العربي فوجدت من الضروري أن أقرّب بين هذه الجماعات المتنافرة فكنت أنتقل بينها ذهاباً وإياباً.

هذا ما كنت أعمله النهار بطوله. أتحدث مع هذا الشيخ العابس. المقطب الوجه فأصور له المستقبل باسماً زاهراً وأستميله بالوعود الكثيرة وبالغنائم والأسلاب فيتجدد نشاطه وتزول عنه كربته فأتركه لأحدث شيخاً آخر أحاول أن أزيل النفور الذي بينه وبين الأول حتى تمكنت من تصفية القلوب وليست مهمة التصفية هذه سهلة. نجحت في جمع هذه الشظايا وكونت منها قنبلة صممنا أن نقذف بها الأعداء.

أجل. جعلت من البدو المتنافرين كتلة واحدة تقف في وجه الأتراك.

أما هؤلاء البدو فكانوا قد أجمعوا فيما بينهم على شيء واحد أن لا يقيم الشيخ زحل نفسه زعيماً عليهم ولا يحاول أن يملي إرادته ويقسرهم على طاعته فهم يرون أنفسهم أحراراً ولا يطيقون الخضوع لرجل إلا متى لمسوا فيه الميزات التي ينبغي توفرها في الزعيم.

كانوا يقولون لي هذا القول وهم يعتقدون في دخيلة أنفسهم بأنه أذكى المدربين على القتال وأحذقهم وأكثرهم اختباراً. أما عن نفسي فكنت أعده البدوي

الوحيد بين جماعتي الصغيرة الذي أستطيع أن أئتمنه على أبعد من بصري. أما بقية البدو الذين كانوا معي فكنت لا أصدق شيئاً من أقوالهم ولا أركن لنصيحة من نصائحهم بل كنت دائماً في ريبة منهم خشية أن يحاربوا في صف الأتراك.

وتوقفنا عند الظهيرة في مكان خصيب نوعاً ما فكانت أمطار فصل الربيع قد تساقطت على الحطام الصخرية المنحدرة فاكتسى هذا السفح بطبقة من الأعشاب الكثيفة التي كانت الجمال تلتهمها عن بكرة أبيها.

أما الطقس فكان لطيفاً معتدلاً أشبه بطقس آب في إنجلترا لذلك فضلنا البقاء في هذا المكان وتناول كل جماعة عشاءهم على انفراد.

وبعد أن تناول البدو مقداراً كبيراً من لحم الغزلان ومن الخبز الساخن وطابت نفوسهم وانشرحت صدورهم جمعتهم حول النار التي أشعلتها ودارت أحاديث حول ما ينبغي أن نفعله في الغد.

وتم الرأي على أن نقصد أولاً بئر المدورة ومن ثم نهاجم المحطة ذاتها التي كانت تبعد عن البئر نحواً من ثلاثة أميال. كنا نفكر في الوصول إلى هذه المحطة علنا نستطيع. بالرغم من ضعفنا، مهاجمتها ثم توزعنا لننام ونحن على ثقة أننا في مكان جد حريز وأمين.

واستأنفنا المسير ثم توقفنا لنتناول الطعام ولم يكن أمامنا سوى ست ساعات للوصول إلى المدورة.

ووجدنا مياهاً راكدة لا تجذب أحداً ولا تغريه في الشرب فقد كانت مغطاة بطبقة كثيفة من الدلفان الرطب الأخضر اللون فلما شاهد البدو هذه المياه القذرة أدركوا فوراً أن الأتراك قد رموا فيها جمالاً ميتة ليجعلوها كريهة الرائحة غير صالحة للشرب، ولكننا اضطررنا أن نملأ منها قِرَب الماء التي معنا خشية أن لا نتمكن من الوصول إلى آبار مدورة.

وتقدمت مع زحل وشرذمة صغيرة لاستطلاع مكان العدو فوصلنا إلى الخنادق ورأينا رجال الحامية التركية قد أشعلوا النيران للطبخ والاستضاءة.

تقدمنا فسمعنا أصوات الجنود. ولكن الخوف بدأ يتسرب إلى قلوبنا، إذ كنا نخشى أن تنبح الكلاب فيهتدي الأتراك إلى مكاننا ومع هذا تقدمت مع رفيقي زحل إلى مكان قريب يمكنّا من عد الخيام غير المضاءة وسماع حديث الجنود كلمة كلمة.

وشاهدت أحد الضباط الأتراك يشعل سيجارته ويتقدم بعض خطوات في طريقنا ولكنه تردد وعاد.

تركنا هذا المكان وعدنا إلى رجالنا نتباحث فإن محطة المدورة كانت طويلة جداً وكانت أبنيتها من الحجر ومتينة بدرجة قد لا تقوى مدافعنا عليها. وكانت الحامية التي علينا مهاجمتها تتألف من مئتي جندي على الأقل بينما كان عددنا مائة وسبعة عشر بدوياً.

وكان الطريق الوحيد للاستيلاء على المحطة مباغتة الأتراك وأخذهم على غرة. وسقطت المدورة في أيدينا في آب 1918.

انحدرنا إلى الجنوب وسرنا في سهول منبسطة رملية فرأينا آثار الغزلان والظباء الأفريقية الكبيرة والنعام والنمور.

وأعددنا عدتنا. بمساعدة مهندسين إنجليزيين لنسف أول قطار نصادفه واخترنا مكاناً يبعد نصف ميل عن القضبان الحديدية يختفي فيه رجالنا وتقدمت مع عدد صغير إلى مكان الخطوط وقضيت مع الإنجليزيين ما يقرب من ساعتين نضع معدات النسف وضعاً محكماً حتى لا تخيب تجربتنا ولم تكن عملية النسف هذه بالهينة. ثم عدنا نقضي بقية ساعات الليل في النوم ونحن ننتظر الغد على أحر من الجمر لنمتع عيوننا بمشهد القطار الذي ستتناثر اجزاؤه في الهواء.

وكان اشتراكنا معاً في مؤامرة النسف هذه من أكبر العوامل التي ساعدت على التوحيد بين القلوب المتنافرة فأصبحنا أمام كتلة قوية متحدة وأثبت زحل بجرأته النادرة أنه جدير كل الجدارة بالزعامة. فانقاد له البدو طائعين مختارين.

وأقبل القطار التركي يتهادى كالعروس الحسناء، وحاول زحل وحاولت معه إخفاء رجالنا عن العيون التركية "الشريرة" ولكننا لاقينا الصعاب فإن البدوي لا يستطيع أن يكبح عواطفه في موقف مثير للأعصاب كهذا الموقف الدقيق بل هو لا يحتمل الوقوف في هدوء عشر دقائق دون أن يقول شيئاً بصوت مسموع. كان بدونا يتكلمون بل كانوا يصرخون رغم الخطر العظيم الذي يحدق بنا وهذا الطبع في البدوي جعل الجندي الإنجليزي يتفوق على العربي في القتال تفوقاً عظيماً.

أجل. لا يمكن لأحد أن ينكر بلادة الإنجليز وقدرته العجيبة على كبح نفسه وانتظار الفرصة السانحة. ولو تأخرت. والتريث مهما كانت العوامل داعية للاستفزاز. الإنجليزي لا يمل ولا يضجر من الانتظار. هو رصين ثقيل؛ وعلى الأرجح أن الأتراك الذين كانوا في القطار قد شاهدونا.

وكان دخان القطار وهو يسير في طريق الفناء يحرك أعصاب البدو فيتعالى الصياح وسط الرمال والصخور.

ولما انفجر الديناميت هجم البدو كالضواري فنهبوا كل ما وجدوه في عربات ذلك القطار ولم تستغرق عملية تفريغه مما بقي فيه سوى عشر دقائق. قصدت المكان فوجدت الجسر قد تهدم والعربة الأولى التي تحمل المرضى قد تهشمت وقضي على كل من فيها ولم يبق في القطار سوى ثلاثة أو أربعة ما كدنا نقترب منهم حتى صرخ أحدهم تيفوس... تيفوس فأغلقت الباب وتركته مع رفاقه وكانوا في حالة الاحتضار.

وأخذ البدو يتدافعون عراة الرؤوس، يصرخون ويطلقون العيارت في الهواء،

ينهبون ما ينهبون ويهشمون ما لا يريدون حمله معهم وكان من بين المنهوبات عشرات السجاجيد والمراتب والأغطية وأكوام عالية من البطانيات والثياب على أنواعها، وساعات وأواني للطبخ، وأنواع المأكولات، والحلي، والأسلحة.

والبدوي في هجومه لا يفرق بين العدو والصديق وقد اضطررت للدفاع عن نفسي ثلاث مرات عندما تقدم بعضهم يحاولون نهب ما معي بحجة أنهم لا يعرفونني واستولينا على ما كان في القطار من ذهب وفضة.

ولما رأى الأتراك هذا خيّل إليهم أننا قوة هائلة لا تقهر ولو أدركوا ضآلة عددنا لكان بوسعهم القضاء على شرذمتنا قضاءً تاماً وهم الذين كانوا يعيشون عيشة ناعمة يشربون من المياه النظيفة في الزجاجات ويتلهون بالتدخين وبالحديث ولا يبالون بالحرب وكانوا يمتّعون أجسامهم بالنوم حتى بالنهار ولا يقاتلون إلا مضطرين، لقد استولى اليأس على الأتراك فتراجعوا عندما شاهدوا تناثر القطار مدهوشين واختفوا وراء الصخور ولم يصب سوى ثلاثة منا بجروحٍ طفيفة.

وبعد يومين وصلنا إلى العقبة فدخلناها دخول الفاتحين الظافرين وصلنا إليها ونحن نحمل المنهوبات الثمينة ونتباهى بمقدرتنا على نسف القطارات والجسور.

وعاد الإنجليز الذين استعنت بهم في نسف القطار إلى القاهرة وكانوا قد جاءوا دون علم السلطات فلما عرفت فيما بعد بتغيبهم غضبت ولكنها لما علمت بأنهم قد أبلوا بلاء حسناً في تلك الحملة وأنهم قاسوا الآلام الشديدة وأنهم كانوا يعيشون على حليب الجمال ويقطعون 50 ميلاً في اليوم على ظهور الإبل رضيت عنهم بل سرت منهم وأنعم اللنبي على كل منهم بميدالية تقديراً لما بذل من جهود وتضحيات.

الفصل الرابع عشر
شهر الانتظار

كان شهر تشرين الأول سنة 1917 هو شهر الانتظار فقد كان اللنبي يضع خطة الهجوم على غزة ـ بئر السبع.

وكانت غزة محاطة بخنادق وحصون على الطريقة الأوروبية، وبديهي أنها كانت أقوى مراكز الأعداء لهذا كان اللنبي يصر على مهاجمتها بقوة كبيرة العدد. تامة المعدات، مجهزة بكل وسائل النقل الممكنة.

وكان دوناي يرى أن القضاء على قوة الأتراك ينبغي أن يتم دون ضجة، وأشار بالهجوم على بئر السبع التي كانت آخر الخطوط الحربية التركية.

وكانت صِلاتنا بالأتراك أقرب من صلات الإنجليز لأن ضباطنا العرب قد خدموا في الجيش التركي وهم يعرفون كل قائد معرفة شخصية، وكانت دائرة استخبَاراتنا أنظم وأعم وأوسع من دائرة الاستخبارات الإنجليزية.

كنا أكثر علماً من اللنبي بأن القوة التركية هي كالطبل الفارغ وأنها تفتقر كل الافتقار للذخيرة وللمؤونة بينما القوة الإنجليزية غنية كل الغنى بمواردها وخيراتها.

أجل لم نكن ننتظر أن يستولي اللنبي على القدس فحسب، بل وعلى حيفا ايضاً، وأن يقهر الإنجليز الأتراك ويهزموهم شر هزيمة.

وكانت درعاً في نظري هي قبلة أنظار المتحاربين وأهم ما ينبغي أن توجه الأنظار إليه. درعاً ملتقى الخطوط الحديدية (القدس، حيفا، دمشق، المدينة) وفي درعا عدد لا يحصى من المقاتلين العرب المستنيرين الذين جاء بهم فيصل وسلحهم وأعدهم للقتال.

اخذت أفكر في هذه القوة العربية، العظيمة المدخرة، التي لم يمسها أحد بعد، هذا المورد الغني الذي يمكننا استغلاله. ولم يداخلني أدنى ريب في إمكان الاستعانة بهؤلاء الأشداء في الاستيلاء على المواصلات التركية عنوة واقتداراً دون حاجة إلى تضييع أوقاتنا في المناورات والمناوشات.

كان نجاحاً مكفولاً مضموناً لو استطعنا تنظيم قوة فيصل المؤلفة من اثني عشر ألفاً من الرجال الأشداء الملتهبين فطنة المضحين في سبيل تحرير بلادهم والتخلص من النير التركي الثقيل.

بمثل هذه القوة نستطيع أن ننقض على درعا فنقتلع كل خطوطها الحديدية ونفاجئ دمشق ونستولي عليها.

وأرسل الشيخ طلال زعيم أراضي الغور القريبة من درعا يرحب بقدومنا ويؤكد لنا أنه على استعداد لتسليمنا درعا متى وصلت قوة صغيرة من رجالنا. ولكننا كنا نخشى أن لا يتمكن فيصل من الاحتفاظ بهذه المدينة لا سيما وأن الارتداد عنها بعد الاستيلاء عليها يؤدي حتماً إلى مذابح فظيعة يضحي فيها الفلاحون المقيمون في ذلك الإقليم. إذن لا بد من الهجوم دفعة واحدة، في معركة فاصلة حاسمة.

وكان اللنبي يفكر في هجمة يكتسح بها الأتراك اكتساحاً، وعيَّن شهر تشرين الثاني سنة 1917 موعداً لها لأن الأمطار لا تسقط عادةً في هذا الشهر.

أخذت أزن الجيش الإنجليزي في دماغي وأقدره فلم أستطع أن أدخل إلى قلبي الاطمئنان بنجاحه. أنا لا أنكر أن رجاله محاربون بواسل ولكن القواد الإنجليز يتنازلون عما ربحوه تنازلاً أقل ما فيه انه يدل على حماقة وجهالة.

والجنرال اللنبي تنقصه الخبرة بأحوال البلاد أما رجاله فكان الوهن قد بدأ يدب في قواهم. والخور إلى عزائمهم.

وبما أننا نقاتل في سبيل انتصار الحلفاء رأينا من واجبنا أن نضحي بالعرب في سبيل الإنجليز بل بالأحرى في سبيل انتصار قضية الحلفاء ولكننا مع هذا أعملنا النية ووطدنا العزيمة على أن لا نلجأ إلى تلك تضحية إلا عند الضرورة القصوى.

وكانت الحرب دائرة وليس هناك أي أمل في انتهائها قبل سنة ولذلك أجلت القيام بهذه اللعبة الخطرة – تضحية العرب – من أجل العرب.

وأخذت أفكر في نسف جسر من جسور وادي اليرموك العظيمة. وكان الخط الحديدي يسير من فلسطين متسلقاً الجبال إلى حوران في طريقه إلى دمشق بعد أن يعبر منحدراً وكان عمق جوف الأردن. وانحدار الأنجاد الشرقية من العوامل التي جعلت هذا القسم من الخطوط الحديدية عسيراً للحد الأقصى. وكان نسف أحد هذه الجسور يفصل الجيش التركي الموجود في فلسطين عن مركز دمشق ويحول دون فرار الأتراك إذا توغل الجيش الإنجليزي بقيادة اللنبي.

ولم يكن في استطاعتنا الوصول إلى اليرموك قبل أن نقصد العقبة عن طريق الأزرق وهذا يعني أن نقطع 420 ميلاً ويظهر أن الأتراك لم يكونوا حاسبين لنا حساباً حتى تركوا هذه الجسور مهملة بغير حامية.

وعرضنا فكرة نسف جسور اليرموك؛ فعيّن الخامس من تشرين الثاني، أحد الأيام الثلاثة التالية، لإجراء هذه العملية.

عَودنا ناصر أن يكون في الطليعة يرشدنا إلى الطريق ويهيء لنا أسباب الفوز ولكنه كان غائباً. فقدر لنا الحظ أن نستعيض عنه بعلي بن حسين هذا البطل الذي أظهر في أيام المدينة العصيبة اقتداراً ترك أثره الطيب في نفس فيصل وكان علي قد نزل ضيفاً على جمال باشاً في دمشق ووقف على الشيء الكثير من أحوال سوريا فرجوت فيصل أن يعيرني إياه.

ومن مميزات علي بن حسين هذا أنه كان لا يتراجع مهما كان الخطر المحدق به عظيماً. كان يقابل الخطوب بالضحك كأن أحلى شيء عنده مجابهة الموت.

هو قوي الجسم معتدله، لا بدين ولا هزيل وبلغ من قوته انه كان يحمل رجلين على كل ذراع من ذراعيه المفتولين ولكنه كان جريئاً ومتكلماً كما كان مغامراً عنيداً قوي الرأس يريد التفوق على البدو الرحل في الحرب والقتال.

وكانت خطتي أن أسافر من الأزرق إلى قيس مع دليلي رافع وهو من الشيوخ الشجعان ومعنا 50 رجلاً وكنت أؤمل أن أغري بعض رجال زحل بمرافقتي فأنا كثير الاعتماد على هؤلاء الرجال الذين يشبهون الذئاب في الهجوم على الجسور ونسفها.

ودعونا "ود" المهندس من العقبة لمساعدتنا فجاء رغم منع الأطباء إياه عن العمل المرهق بسبب رصاصة أصابت رأسه لما كان في فرنسا.

وبينما كنا نتأهب للهجوم فاجأنا على غير انتظار أو موعد سابق نصيرنا الأمير عبد القادر الجزائري، حفيد ذلك البطل الشهيد الذي أظهر بطولة وشهامة في مقاتلة الفرنسيين وقدم هذا الحليف إلى فيصل عدداً كبيراً من الجزائريين الأقوياء المنفيين الذين كانوا يعيشون على الشاطئ الشمالي من اليرموك ولكن العرب كانوا يمقتون هؤلاء الغرباء فرأينا ان نؤجل استدعاء رافع ليقابلنا في الأزرق، ولم نقل شيئاً لزحل، ووحدنا كل اهتمامنا وأفكارنا بوادي خالد وجسوره.

وبينما كنا نفكر على هذا النحو وصلتنا برقية من الكولونيل بريموند يحذرنا فيها من الأمير عبد القادر ويؤكد لنا أنه "جاسوس" يتقاضى أموالاً بانتظام من الأتراك فأقلقتنا هذه البرقية وأوقعتنا في اضطراب عظيم.

أما فيصل فلما علم بهذه البرقية قال لي: أنا أعلم أنه مجنون ولكني لا أشك مطلقاً في أمانته، فلا تتركه واستعمل الحكمة وكن منه على حذر.

وأظهرنا لهذا الأمير ثقتنا المطلقة غير المحدودة اعتقاداً منا أن الخائن لا يمكنه أن يقدر أمانتنا والغادر لا يبالي بإخلاصنا وأن الرجل الأمين حقاً قد يخون إذا وجد من يرتاب بأمانته ويشك في حسن نيته وإخلاصه.

والحقيقة أن الأمير عبد القادر الجزائري لم يكن جاسوساً وإنما كان مسلماً شديد التعصب للإسلام كما أنه كان مخدوعاً بنفسه يقدرها اكثر من قدرها.

وقد غضب لأني أعمل مع العرب ولا أخفي مسيحيتي بل أظهرها لكل من أعاشرهم على نقيض الذين كانوا يحاولون من الأوربيين الوصول إلى أهدافهم عن طريق التخلص من دينهم أو ستر مسيحيتهم إلى حين.

ولما انضم إلينا وجد أن الكبرياء التي يعتز بها قد تلاشت فالعرب لا يقدرونه كما يقدرون علياً أو كما يقدرونني أنا فتركنا في ورطة وحيرة في موقف من أحرج المواقف وأعقدها بعد أن عرقل سيرنا، وأقلقنا مدة، وعاق خططنا.

وبعد أن أقمنا وليمة فاخرة استأنفنا المسير مساء اليوم الرابع والعشرين من تشرين وبقينا أربع ساعات نسير الهوينا وقد اعتدنا أن نبدأ المسير دائماً ببطء لأن الجمال تكره سلوك الدروب الخطرة التي لم تألفها وكان رجالنا كالجمال يمقتون المجازفة في بادئ الأمر ويأبون المخاطرات التي لا نفع من ورائها.

وأقبل علي وعبد الكريم في اليوم التالي فتناولنا الطعام معهما ووفقنا بينهما لأنهما كانا في نزاع مستمر.

وكان لويد من الرحالة الإنجليز النادرين الذين في وسعهم أن يأكلوا أي شيء مع أي رجل. بأية طريقة، وفي أي وقت.

وأسرعنا في المسير فأخذت الجمال المحملة تخب بنا حتى تخلصت من أحمالها وهنا هدأت أعصابنا الثائرة فأخذنا نسير الهوينا متثاقلين في وادي الحفيرة وهو شق أشبه بالجرح الكبير في تلك الأنجاد المرتفعة.

وأشعلنا النيران وكانت الليلة باردة فشعرنا بالدفء والانتعاش وطبخ فرج لي أرزاً كالعادة. أما لويد، وود، وثورن فقد أحضروا معهم لحوماً مقددة في العلب، وبسكوتاً إنجليزياً وأبوا أن يأكلوا معنا من طعامنا العربي وجلست مع البدو نلتهم ما يقدم.

وأخذت أطوف وأتجسس حول أبي اللسان لأعلم ما إذا كان الأتراك لا يزالون يعيشون معيشتهم العادية الهادئة البليدة ويستسلمون إلى النوم المنعش لقواهم المجدد لعافيتهم وكنت لا أجد داعياً لحمل رجالي على عمل لا ضرورة له فكنت أقوم بهذه الاستكشافات بنفسي مع عواد وهو صبي في الثامنة عشر من عمره مدبوغ الجلد مفتول البدن له عضلات رياضي امتاز بنشاطه فكان في خفة حركته كالهرة وقد قدمت له بندقية جديدة فعرف كيف يستفيد منها أكبر فائدة.

تسلقت معه تلال البتراء والمنحدرات المؤدية إلى أبي اللسان ثم رقدنا نستريح حتى أقبل علي ورجاله فبادرنا للقائهم فأبلغنا علي أنه فقد أربعة جمال في تلك السفرة الشاقة وانه تشاجر مراراً مع الأمير عبد القادر الجزائري وختم حديثه بالتضرع إلى الله أن يريحه من كبرياء عبد القادر وغرور ومن طباعة الشاذة الغريبة.

وبركت هذه الجماعة على أمل أن نلتقي في خيام عودة.

وقد وصلت إلى تلك الخيام المنصوبة بجوار الآبار فكان استقبالنا استقبالاً يدل على حذر شديد وكان قد نقل خيامه الكبيرة ونساءه إلى مكان لا تصل إليه مدافع الأتراك ولا تراه طائراتهم.

رأيت عودة في غم وحزن فكان لا يعرف كيف يرضي البدو فأخذت أعالج الأمور معه وأدله على أبواب رزق جديد فابتسم. والعربي عندما يبتسم يقدر بسهولة أن يحل بنفسه كل معضلاته التي تزيدها العبوسة تعقيداً.

وتناولت الطعام مع محمد الدحلان الذي كان أقدر من عودة من الناحية السياسية وأقل صراحة منه. رحب محمد الدحلان بي ترحيباً عظيماً ووضع أمامي قصعة مملوءة من الأرز واللحم والبندورة المجففة. ومحمد الدحلان ممن يعرفون كيف يحشون بطون ضيوفهم إلى حد التخمة وهو قروي أكثر منه بدوياً.

عرضت فكرة نسف جسور اليرموك على زحل فلم يفرح لها: فإن زحل تشرين الأول غير زحل آب: فالنجاح الذي صادفه قد جعله ينقلب انقلاباً عظيماً فبعد أن كان من الرجال البواسل الذين يحسنون الركوب ولا يبالون بالتعب ويقتحمون الموت أصبح رجلاً يميل إلى التبصر والشورى ولا يعمل عملاً إلا بتعقل وفطنة وحزم. كانت الثروة الجديدة التي توصل إليها سبباً في زيادة تقديره للحياة وشدة تعلقه بها. اصبحت الحياة عزيزة عليه... كان في ربيع الشباب يسير معي إلى أي مكان شئت. ولكنه انقلب فبات يطلب مني أن أدله على الجهة التي أريد أن أقصدها واوضح له الغرض من وراء هذا التعب الذي سنصادفه. وكانت حالة التبرم بين البدو قد تفشت كأنهم ملوا الانتظار.

وتركني رفيقي لويد إلى فرساي وكان افتراقه عني في مثل تلك الظروف من

العوامل التي زادت في كآبتي وحزني فقد كان سريع الفهم قوي التمييز، يدرك الأمور لأول وهلة. يخدمني خدمات عظيمة بحكمته وتعقله وحزمه وهو من أنصار القضية العربية يخدمها بإخلاص وتأنٍّ، وقد وقف على أحوال العرب وقوفاً تاماً.

ولما أقبل الليل وشعرت بالوحدة أردت أن تنتهي قضية الحويطات وأن أقف من عودة على أسباب شكواهم وقام جدال ونقاش، ولا ينبغي أن تنسى أنهم لا يلينون إلا بعد أن يصهروا صهراً ويحتاج صهرهم إلى حرارة شديدة وكان الليل قد انتصف وبح صوتي وعندئذ رفع عودة عصاه وطلب من المجتمعين الصمت ثم نظر إليّ وقال:

ـ ما لنا معك كلام قبل أن تصل المدافع الإنجليزية.

الفصل الخامس عشر

وفي الصباح التالي تبدل جو المعسكر القاتم فأصبح صافياً رائقاً بعد الهياج والصخب، والتبرم والشكوى من الإنجليز ورأيت عودة أبو تايه وجماعته يتسامرون كأنه لم يحدث شيء مما حدث بالأمس، لقد عاودهم البشر والانتعاش ولما أقبلت استقبلني عودة الكهل بالعناق الحار لأني أزحت العقبات المالية التي كانت واقفة في سبيله وكنت على وشك أن اركب جملي وأسير في طريقي عندما همس عودة في أذني، بينما كانت لحيته الخشنه تحزها حزاً كالسكين.

"أحذر عبد القادر.." ولم يكن باستطاعته أن يقول أكثر مما قال لكثرة عدد الواقفين حولنا.

واجتمعنا لتناول الغداء، وللراحة في منتصف النهار وكان الجنود يتناولون الطعام ثلاث مرات في اليوم، ولا يتنازلون عن حقهم في الراحة ظهراً.

وفجأة سمعنا بوق الخطر ورأينا عن بعد بعض البدو على فرسانهم وجمالهم مقبلين من الجهتين الغربية والشمالية في سرعة عجيبة فاختطفنا بنادقنا في الحال ولم تمضِ 30 ثانية حتى كنا قد تأهبنا للدفاع.

ونصحنا الشريف علي بالامتناع عن إطلاق النار حتى ينجلي الأمر ونفهم الغرض من هذا الهجوم الفجائي ولكن عواد ضحك عندما سمع هذا الحديث وجرى وحده لمجابهة هؤلاء الخصوم وهو يلوح بكم قميصه تلويحاً أراد أن يدل به أن يفهم

القوم خطأهم في مهاجمة أصداقاء موالين ولكن الهاجمين أطلقوا النيران في الهواء وكان الرصاص يمر فوق رأس عواد وهو لا يتراجع ثم أطلق هو أيضاً رصاصة دوت فوق رأس أحد المقاتلين الذين كانوا يسيرون في الطليعة ولما وجد هؤلاء الغزاة صمتنا وأننا لا نقابل النار بالنار اضطربوا ووقعوا في حيرة وتقدم أحدهم إلينا وأقبل عواد للاجتماع به وكانت المسافة بينهما زهاء مائتي ياردة وتبين له في الحال أنه من بني صخر وقد تظاهر بالدهشة عندما علم بأسمائنا وأخذ يبدي كدره وتأسفه لهذه الإساءة غير المقصودة ولكنه كان كاذباً طبعاً في أسفه فإنه يعيش وجماعته من وراء النهب والسلب.

وغضب علي وهاج وأرغى وأزبد لأن هجمتهم هذه كانت تدل على غدر وخيانة وأخذ يهددهم ساخطاً لاعناً فاستمعوا إليه عابسين وقالوا في معرض الدفاع عن أنفسهم أنهم بدو يطلقون الرصاص على كل غريب. ولم ينكر "علي" عليهم إطلاق النار بل قال أنها عادة حسنة طيبة في الصحراء ولكنه انتقد عليهم هذه المهاجمة دون سابق إنذار لا سيما وقد باغتونا من نواح ثلاث لا من جهة واحدة كما يفعل البدو الشرفاء في نضالهم الشريف عادّاً عملهم هذا خيانة وغدراً ودناءة وقحة.

والحقيقة أن بعض قبائل بني صخر كانوا عصبة خطرة ولم يكونوا من الرجال الخلص الذين يحافظون على عادات البدو الصحيحة ويخضعون لقانون الصحراء كما أنهم لم يكونوا من القرويين الذين لا يبالون بغير السلب على أي وجه وبالغنائم من أي مصدر كانت.

ولكن زعيمهم مفلح حاول الترضية ومحو هذا الأثر السيء من نفوسنا فأقام لنا حفلة عرض عام اشترك فيها كل رجاله، وكل خيوله وأمر جماعته أن تستقبلنا بأعظم مظاهر الترحيب فتعالى الهتاف وكثر العدو والقفز والوثب وإطلاق الرصاص.

والصراخ والصياح وأخذ هؤلاء المستعرضون يدورون حولنا ويلفون ثم يلفون ويدورون ونحن لا نبالي بشيء مما يفعلون فقد ركنّا للرزانة ولازمنا الصمت وتصاعد التراب وملأ الجو حتى أن صياحهم أصبح كالنقيق أو كالنعيب.

وأخيراً انتهت حفلة الاستعراض هذه وارتاحت نفوسنا من مباهاتهم بأنفسهم.

وأقبل رسول يدعونا إلى خيمة مفلح وهمس رجالي في أذني بأنهم شاهدوا الخراف تذبح وراء الخيمة.

والحقيقة أن ولائم عرب الحويطات كانت غنيمة دسمة وغناها على الأخص بالزبدة والسمن حتى أن ثيابنا كانت تلطخ دائماً بالدهن عندما نحضر وليمة من هذه الولائم.

ونهض الأمير عبد القادر قبل انتهاء الوليمة وكان نهوضه فجأة على هذه الصورة لا يتفق وواجبات المجاملة والآداب البدوية وبعد أن مسح يديه في منديله جلس على سجادة في طرف الخيمة وترددنا بين النهوض والبقاء وتمتم علي:

- "يا له من فلاح"! وتناول رجالنا طعامهم على ثلاث دفعات.

وبينما الكلاب تلوك العظام وبينما كان أحد عبيد مفلح في ركن من أركان الخيمة ينتف مخ الخروف في لهفة وأي لهفة. كان عبد القادر يكثر من البصق وتنظيف أسنانه بصورة تتقزز منها النفس وأخيراً أرسل أحد خدمه ليأتيه بصندوق الأدوية فجهز شربة لنفسه وتناولها وهو يتذمر من قساوة اللحم وعسر هضمه وكان يريد من وراء هذا السلوك البعيد عن اللياقة أن يدخل إلى نفوس الحاضرين الاعتقاد بأنه أسمى مكانة منهم وانه أعلى من طبقة الذين تناولوا اللحم ولم يصبهم منه أي ألم أو ضرر.

والحقيقة أن عبد القادر المسكين كان لغزاً من الألغاز التي لا تحل ولا تدرك.

وقد اجتمعنا به قبل الفجر وأخذناه ناحية وصرخنا في أذنيه بأننا سنأخذ كل رجاله معنا إلى وادي خالد بعد شروق الشمس فوافق فأخذ كل منا يقول للآخر إذا أطال الله أعمارنا فلن نعتمد على رجل أصم في المستقبل لأن المؤامرات السياسية ينبغي أن تتم همساً لا بالصراخ والصياح.

وركب عبد القادر ورجاله أفراسهم وساروا وراءنا. وكانت هذه أول مرة يشاهد فيها علي الأزرق فأخذت أحدثهم عن حروب الملوك الرعاة الأول وأغانيهم وعشقهم وفي الواقع أن أسماء هؤلاء الملوك كانت ترن في اذاننا كالموسيقى وكانوا يحبون هذا المكان ثم أخذنا نتحدث عن الفصائل الرومانية التي كانت الواحدة منها تتألف من عدد يتراوح بين (3000، 6000 جندي).

واختفى عبد القادر فجأة فأخذنا نبحث عنه في القلعة وبين أشجار النخيل وقرب الآبار ولكننا لم نعثر له على أثر فأرسلنا بعض رجالنا للبحث عنه فعادوا يؤكدون لنا أنه رحل إلى جهة الشمال صوب جبل الدروز وكان الجنود لا يفهمون هذا الرجل الغريب الأطوار وكان جهلهم حقيقة أمره يدفعهم لبغضه وقد فرحوا عندما علموا برحيله ولكن خبر اختفائه لم يكن من الاسباب التي تدخل السرور إلى قلوبنا فاستولى الكدر علينا.

وكنا هجرنا أم قيس وكان يستحيل علينا الاستيلاء على وادي خالد دون الاستعانة بعبد القادر ولهذا لم يبق بد من نسف الجسر الموجود في تل شهاب وكان الوصول إليه يحتم علينا المرور في الأراضي التي بين الرمثا ودرعا.

وكان عبد القادر قد هرب ليبلغ الأخبار للأعداء وقد توصل إلى معرفة خططنا والوقوف على مبلغ قوتنا وكان في وسع الأتراك إيقاعنا في الفخ عند وصولنا إلى

الجسر ومع هذا صممنا على الهجوم معتمدين على عجز الأتراك وكانت خطتنا أن ننسل خفية ونخبىء أنفسنا في جنوب درعا.

ووجدنا حراس السكة الحديدية لا يزالون ينعمون بحياة الراحة والسهولة وهذا كان يعني أن الأخبار التي نقلها إليهم عبد القادر لم تلق الروع في القلوب ولم تحدث شيئاً من الاضطراب وقد قطعنا أخيراً 80 ميلاً في 13 ساعة وكان عرب بني صخر من المقاتلين الاشداء ولكننا نرتاب في عرب سرحان لهذا قررت مع علي أن تكون فرقة الهجوم مؤلفة من عرب بني صخر تحت قيادة (فهد) ونترك عرب سرحان لحراسة الجمال وللأعمال الأخرى التي لا تتطلب اقتحاماً.

كانت حملتنا الصغيرة الهجومية مؤلفة من علي وستة من الخدم و20 من بني صخر و40 من عرب سرحان وتركنا الجمال العرجاء والضعيفة مع بقية رجالنا.

وأخذنا نتلهى بقطع الأسلاك التلغرافية في كثير من الأماكن وكنا قد جئنا قبل الآن لنسف جسر تل شهاب ولفصل فلسطين عن دمشق واستطعنا الآن أن نقطع أسلاك التلغراف الواصلة إلى المدينة.

وأخذ أحمد يخاصم عواد. ومصطفى يرفض طبخ الأرز. وفرج وداود يصران على ضربه فيتعالى صياحه. كما أن علي كان يضرب عبيده وخدمه بشدة ولم يكن أحد يبالي بشيء مما يجري حولنا فإن الفشل كان قد أمرضنا وأعيانا وكانت الخيبة قد أسقمتنا جسداً وروحاً ويكفي أن نذكر أننا قطعنا أخيراً أكثر من مائة ميل في ظروف لا تساعد مطلقاً على السفر المريح... قطعنا مائة ميل بين شروق الشمس وغروبها دون أن نتريث برهة ودون أن نتناول لقمة واحدة أو نقطة ماء.

الفصل السادس عشر

وأصبحت قضية الطعام أهم ما يشغل بالنا فعقدنا اجتماعاً بالرغم من انهمار الأمطار واشتداد البرد ولم نكن نحمل يوم غادرنا الأزرق سوى مؤونة ثلاثة أيام كي لا نثقل على أنفسنا.

ولم نكن قادرين على العودة فارغين ولا أن نكف عن القتال فإن بني صخر كانوا يريدون الانتقام من الأتراك الذين زدروا بهم وكانوا يأبون إلا غسل هذا العار بالدم. شعروا أن كرامتهم أهينت بسبب فشلهم المتكرر في قتالهم مع الأتراك وأنه ينبغي أن يوضع حد لهذا الخذلان المعيب. أما عرب سرحان فكانوا يرون من العار أن لا يشتركوا في القتال ومن العار أن يكتفى منهم بحفظ الجمال فهم رجال كغيرهم من العرب وهم من المقاتلين الشجعان الذين يريدون أن يثملوا بالظفر كما يثمل المحاربون.

ووجدنا أننا لا نزال نحتفظ بقدر كاف من الديناميت وأن معدات النسف لا تزال معنا وأننا فوق ذلك قد أخذنا هذا الفن عن المهندسين الإنجليز البارعين فلا بد إذن من التجربة.

وكان علي بن الحسين قد سمع طبعاً بالأعمال الجهنمية التي قمنا بها في جنوب معان فلم يسعه وهو عربي صميم عندما عرضت عليه الأمر إلا أن يقول: "دعنا ننسف قطاراً لنرتاح من هذه الضائقة التي نشعر بها".

ولم يكد ينتهي من هذه العبارة حتى تعالى هتاف الفرح والاستسحان فلم يكن في الواقع شيء يثير العرب ويستفزهم كعملية الاشتراك في نسف القطارات التركية: هذه العملية اللذيذة هي التي كانت توحد بين القلوب المتنافرة وتخلق من البدو كتلة واحدة قوية تقف في وجه الأعداء فضلاً عن المغانم الكبيرة التي كنا نغنمها بعد كل حادث من هذه الحوادث.

أخذ البدو يتطلعون إليّ ولم يكن في وسعي أن أشاركهم فرحهم لأن عملية نسف القطارات ليست هينة وإن كنت أجد لذة لا تعادلها لذة عند قيامي بها: هي عملية تتطلب خبرة خاصة ولا تخلو من أخطار.

فكرت بادئ الأمر أن أستعين بالهنود ولكن العرب كانوا يرونهم من أضعف الرجال: فالهنود متى اشتد البرد، وغلبهم الجوع يذبلون ويخورون ولهذا لم أشأ أن أقدم على عمل قد يتطلب أسبوعاً كاملاً دون أن يكون معنا القدر الكافي من المؤونة، والعرب غير الهنود فليس من القسوة أن تجوع العرب فالعربي لا يموت إذا صام بضعة أيام صياماً تاماً بل هو يحارب جائعاً بمثل المقدرة التي يحارب بها وهو متخم ممتلئ البطن على نقيض الهندي الذي يخور عندما لا يتناول القدر المعتاد من الطعام.

وكانت إذا ضاقت الأمور في وجهنا نستعين بلحوم الجمال ولكن الهنود بالرغم من كونهم مسلمين يأبون أكل لحوم الجمال.

أوضحت هذه الأمور كلها لعلي فأجابني أنه لا يطلب مني إلا أن أؤدي عملية النسف وعليه تدبير البقية ولا حاجة للاستعانة بالهنود فهو ورجاله سيقومون بكل شيء يطلب منهم وإنما قد نصادف قطاراً من قطارات المؤونة فتحل المشكلة فوراً فوافقت على القيام بهذه المخاطرة الجديدة ولم أكد أعلن موافقتي حتى رأيت البدو يهللون ويهتفون هتاف الفرح والاغتباط.

وجلسنا نلتهم ما تبقى معنا من طعام، وكانت معظم ساعات الليل قد ولت وأخذنا نشعر بوطأة البرد الشديدة. وكانت الأمطار تنهمر بغرازة فبللت ما جمعنا من وقود للتدفئة ولكننا مع هذا كله لم نستسلم إلى اليأس فالغنيمة التي نتظرها قد أنستنا الضيق الذي نحن فيه.

وكان رجالي قد تفرقوا ولم يبق معي سوى 60 رجلاً فاتجهنا عند الفجر نحو الخط الحديدي وسرنا معاً إلى "منيغير" وأقمنا هناك حتى غروب الشمس نرتجف برداً ونطيل النظر في السهول الفسيحة المترامية الأطراف أمامنا.

وعند الغسق سرنا لنضع الألغام واخترنا انسب مكان في الكيلو 172 من المحطة الأصلية.

وادعى رجالي أنهم لا يشعرون بجوع فكانوا يتلهون بمساعدتي عن التفكير في الطعام.

ثم جلسنا في مكان منعزل لا نبالي بالمطر المنهمر وكان أحدنا ينضم إلى الثاني منكمشاً طلباً للدفء، وقد جعد البرد وبر الجمال.

وكانت عندما تنقطع الأمطار تهب الرياح الباردة محدثة صوتاً أشبه بالأنين أو التأوه. هذه الرياح التي كانت لا تشفق على الأجزاء العارية من أبداننا بل تنقب عنها حتى تجدها ثم تنتقم منها انتقاماً فظيعاً.

شعرنا أن ثيابنا تضايقنا أشد المضايقة ولم نجد ما نسد به رمقنا ولم نجد مكاناً صالحاً نختبئ فيه سوى الصخور العارية المبتلة والأعشاب الندية والأراضي الموحلة زد على ذلك أن مثل هذا الطقس لا يساعد على القتال وذلك ما جعلني أتيقن بأن الجنرال اللنبي لا بد أن يؤجل الهجوم على القدس وأن الظفر الذي تعقد عليه الآمال قد أصبح بعيداً.

وأخيراً أقبل القطار فركضنا في الحال وأخذنا أماكننا.

واختفى العرب هذه المرة اختفاءً تاماً وتطلعت إليهم من بعيد فلم ألاحظ سوى جوانب التل الأشهب ولم أسمع صوت القطار فانطرحت على الأرض زهاء نصف ساعة ولم يبق لي طاقة على احتمال أكثر مما احتملت فأشرت لرجالي بالقدوم فأرسلوا إليّ رسولاً يقول إن القطار على وشك الوصول وإنه يسير في غاية البطء وهو طويل جداً إلى درجة لم نألفها فلما سمعت هذا الحديث ازددت نشاطاً لأنه كلما طال القطار كانت غنائمنا أوفر ولكن جاءنا رسول يقول إن القطار توقف عن السير فكاد يقف نبض قلبي لوقوفه ثم عاد القطار إلى السير فتجددت حياتي.

وأخيراً حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر، ولا تنس أننا كنا نلازم مكاننا منذ الفجر رأيت القطار يقترب لاهثاً وليس من شك أن القطارات كانت مصابة بكل أنواع العلل التي تصاب بها القطارات نظيرها؛ أجل، كانت بالية تجمع كل العيوب، كما أن القطار كان مشحوناً فوق طاقته فلم يكن ميسوراً لهذه القاطرة الضعيفة السقيمة أن تجر كل هذه العربات وكان فشلنا في نسف القطار يقضي علينا جميعاً في لحظة.

حاولت مراراً نسف القطار فلم أفلح فكاد "مفلح" يبكي لشدة غيظه وظن في بادئ الأمر أني تعمدت ترك القطار وشأنه ولكني أعلمته بالجهود التي بذلتها في نسفه فقال: "ماذا عسانا نفعل إن النحس يلازمنا اليوم".

ورأيت البدو قد انقلبوا فجأة، فأخذ عرب سرحان يهاجمونني مهاجمة عنيفة بينما عرب بني صخر يدافعون عني دفاعاً قوياً.

وسمع علي هذه الجلبة فجاء يركض وأظهر نُبلاً في الدفاع عني وإن كان جسمه قد ازرق من البرد واشتدت عليه الرجفة بسبب ما أصابه من الحمى ولكنه

قال بصوت خافت ضعيف، وهو يلهث ويشهق إنه من سلالة النبي وإنه لهذا يستطيع أن يتنبأ عن المستقبل وأن يرى الغيب وأنه يؤكد بأن الحظ لم يخدمنا وأن علينا أن نصبر فإن الأمور تسير بمشيئة الله، والله وحده يفعل ما فيه الخير وهو علام الغيوب؛ فكان هذا الحديث الذي تفوه به هذا الزعيم في الوقت المناسب سبباً في تهدئة الأعصاب الهائجة.

وحاولت أن أجرب تجربة أخرى ولكني فشلت هذه المرة كما فشلت في المرات السابقة فتضاعف التذمر، وعمت الشكوى فكنت لا تسمع سوى دمدمة وتمتمة لإفلات القطار من أيدينا.

وكانت النيران تعاند وتصر على عدم الاشتعال بسبب الأمطار المنهمرة ولم نكن نملك سوى الجمال ولم يكن باستطاعتنا أن نأكل لحومها نيئة ولهذا رأينا أن نتركها إلى غد دون أن نذبحها لعل الحظ يساعدنا غداً.

وارتمى البدو على بطونهم اعتقاداً منهم أن النوم على البطون يخفف ألم الجوع.

وحاول "علي" أن ينام وكانت الحمى قد اشتدت عليه بسبب هذا النحس الذي صادفنا، وأعاره "خازن" أحد عبيده الأمناء، عباءته ليتقي بها لذعات البرد.

وقضيت ليلتي أعد معدات النسف مجدداً دون الاستعانة بأحد لكي أضمن اتقان العمل. وأبيت أن أنام دقيقة واحدة فقضيت الليل كله بجوار أعمدة التلغراف التي كانت تغني في جو الليل الهادىء.

وكان موقفي في تلك الليلة دقيقاً كل الدقة وكنت معرضاً للموت بأيدي البدو انفسهم.

وانتظرت حتى الفجر ولم يصل أي قطار. فتمنيت الموت وكانت عمليات النسف العديدة الفاشلة قد أرهقتني وأمرضتني.

واستيقظ "علي" في الصباح وهو يشعر بانتعاش قوي فسرّى عني بعض الشيء لأني كنت شديد الاعتماد عليه.

وكان حمود أحد عبيده قد جمع بعض القضبان وخبأها تحت ثيابه لضيق جسده فنشفت فذبحنا جملاً أجرب وشويناه وبينما كنا نلتهم هذا اللحم جاءنا رسول يركض ويقول في لهفة إنه قد شاهد قطاراً ويطلب مني أن احتل مكاني في الحال فتركت الطعام وركضت ستمائة يارد باقصى سرعة أستطيعها.

واقبل القطار مؤلفاً هذه المرة من 12 عربة فحسب وانفجر الديناميت انفجاراً فظيعاً هائلاً وركض البدو في الحال ولكن الأتراك الذين بقوا على قيد الحياة قابلوهم بالرصاص فتراجعوا ووجدت نفسي محصوراً بين رصاص الأتراك ورصاص البدو فارتميت على الأرض. وقد خيل لعلي أن رصاصة أصابتني فركض مع "تركي" و20 رجلاً من أتباعه لمساعدتي ولكنني في الحقيقة لم أكن قد أصبت بشيء.

خرج القطار عن الخط وقتل بعض من فيه ولكن معظم الجنود ظلوا أحياء.

وكان في القطار صالون مزين بالأعلام يحتله محمد جمال باشا في طريقه إلى القدس ليصد عنها هجمات اللنبي وكان في القطار أربعمائة تركي حاولوا القضاء علينا فأطلقوا مقادير كبيرة من الرصاص ولكن لم يصب منا سوى فهد الذي تقدم بجرأة إلى الأمام فأصابته رصاصة هشمت أربعة من أسنانه وجرحت لسانه جرحاً كبيراً فسقط مغشياً عليه فأرسلت إليه فارساً ينقله ولكنه انتعش قبل وصوله وحاول أن يزحف على يديه وركبتيه وقد غطى الدم وجهه فأركبه الفارس على جمله وقاده إلى مكان أمين.

ولما وجد الأتراك أننا لا نقابل رصاصهم بالمثل بدأوا الهجوم فتركناهم يقتربون حتى إذا توسطوا الطريق صببنا عليهم وابلاً من الرصاص فقتلنا 20 وتراجع الباقون منهزمين وهم لا يعلمون حقيقة أمرنا وضآلة عددنا وتناثرت الجثث التركية بجوار القطار واختفى الأتراك في العربات المهشمة.

ولم يكن باستطاعتنا البقاء أو المقاومة فهربنا بعد أن سلبنا 20 بندقية وكانت غنيمة صغيرة ولكنها كانت أفضل من لا شيء .

وقصدنا الأزرق وأخذنا نمعن في الكذب ــ والله يسامحنا على إغراقنا في الكذب ـ زاعمين أننا انتصرنا على طول الخط فاستقبلونا استقبالاً طيباً حماسياً .

أما الأمير عبد القادر الجزائري فإنه بعد أن انسل من بيننا خفية قصد قريته رافعاً العلم العربي ووراءه سبعمائة فارس لا ينقطعون عن إطلاق الرصاص في الهواء كأنهم قد انتصروا في معركة من المعارك ودهش الناس لقدومهم على هذه الصورة واعترضهم الحاكم التركي وقال إن أعمالاً كهذه تعد إهانة له ولكن عبد القادر لم يبال به وأمره بالمجيء فجاء وقدّم الخضوع لعبد القادر الذي كان جالساً في ذلك الحين على الديوان وسط مظاهر الأبهة والفخامة .

وأخذ عبد القادر يلقي خطاباً تشامخ فيه إلى أبعد حدود التشامخ ثم ختمه قائلاً : إنه احتل كل جبل الدروز عن طريق وكيله وأن جماعة الموظفين سيظلون في مراكزهم دون تبديل أو تغيير ما داموا يعترفون بهذا الحدث الخطير .

وعاد الحاكم التركي للاعتراض فسحب عبد القادر سيفه الملكي ذا القبضة الذهبية واقسم أنه لا يقطع رأس الحاكم الوقح فقط بل هو لن يتأخر عن قطع رأس جمال باشا نفسه . فلامه الدروز على هذا الحديث لأنه قد تعرض لمولاهم التركي فاخذ عبد القادر يسبهم سباباً قذراً ويتهمهم بأنهم أولاد زنا . وأن نساءهم ناشزات وأنهم فاقدوا النخوة وكانت هذه الشتائم القذرة تنهال من فيه كالسيل ولم يكن في وسع الدروز أن يصبروا على كل هذه الوقاحة فثارت ثائرتهم فولى عبد القادر هارباً متوعداً إياهم أنه سيوقد الفتنة في كل الجبل الدرزي .

وقصد مع سبعة من عبيده إلى محطة درعا فدخلها كما دخل صلخد .

أما الأتراك فقد عرفوا أنه مجنون فتركوه وشأنه يلعب كما يريد ولم يبالوا بتهريجه وشعوذته.

وحدث أن قال لهم اني سأنسف مع "علي" جسر اليرموك فلما سمعوا منه هذا الحديث لم يبالوا به بيد أنه لما وقع الأمر فعلاً أرسلوه إلى دمشق تحت الحفظ وقد عدوه من الأشخاص الخطرين الذين ينبغي أن يؤمن جانبهم وأنه من النوع الذي يلعب على الحبلين.

الفصل السابع عشر

أصبح الطقس جواً مخيفاً فالسماء تمطرنا برَداً والعواصف تهب باستمرار وكان من الجلي أن أعمالي التخريبية قد انتهت ومهمتي في الشهور التالية أصبحت نظرية أكثر منها عملية؛ مجرد بث دعاية ولم تكن نفسي تتوقف لحياة الهدوء هذه ومع ذلك فقد أديت مهمتي فحولت الخصوم إلى أصدقاء وكنت أشعر شعوراً عميقاً باني كرجل غريب من العرب ينبغي أن أقيد نفسي بقيود خاصة. وأن أراعي آداب العرب وتقاليدهم فلم يكن من اللائق أن أحدثهم عن الحرية والوطنية بصورة تخفض من مكانتهم في عيونهم. بل آليت على نفسي أن استفزهم وألهبهم وأطيل الحديث عن مواهبهم الخارقة والمستقبل الزاهر الذي يترقبهم وينتظرهم وكنت أحاول أن أقنعهم بالثورة على الأتراك عن إيمان بفوائدها وبنجاحها وكنت أُمني النفس بأن في وسع الحكومة البريطانية أن تحافظ على روح الوعد التي قطعتها على نفسها.

وكان من الصعب عليّ الافتتاح بنجاحي في هاتين المهمتين وعلى الأخص عندما أشعر بأن قواي أرهقت وأني بت منهوكاً عليلاً لما أبذل من المجهودات العقلية التي تمزق صبري وتقضي على أناتي ورحابة صدري ولكن كان يخفف عني ما أسمعه من البدو عندما ينادونني يا "رورنس" ويحدثونني عن حاجاتهم دون مجاملة فأصغي إلى شكاويهم. واحاول تلبية مطالبهم. أما سكان المدن فكانوا إذا أرادوا استمالتي يظهرون لي نعومة وممالقة ويلقبونني الأمير والبك والسيد والمنقذ ولكنني كنت أعرف نواياهم والغرض من تملقهم فأتهرب منهم ولا أصغي إلى ريائهم وتصنعهم.

انحدرت إلى الجنوب وكان الطقس لا يزال بارداً ووصلت إلى البحر الميت الذي اختاره الأتراك ليكون حاجزاً يفصلنا عن فلسطين.

وقدمت الأموال التي بقيت معي إلى الشريف علي كما استأمنته على رجالي من الهنود وودعته وداعاً حاراً فأظهر لي إخلاصاً عجيباً وكان من الصعب عليَّ أن أتركه.

وقدم لي علي نصف ثيابه، نصف قمصانه وأغطيته وأحزمته وقفاطينه. فقدمت له نصف ثيابي وتعانقنا وقبَّل أحدنا الآخر كما قبل داود يونس وارتديت ثيابه وارتدى ثيابي دلالة على الإخاء الذي استحكم بيننا وسافرت مع زحل وحده إلى جهة الجنوب.

تركنا الأزرق وأخذنا نسير في وادي بطوم وكانت العوامل الإقليمية كلها غير مساعدة لنا على السفر فالأراضي التي نسير عليها موحلة تنزلق أخفاف جمالنا فيها وتهوي المرة بعد المرة فنهوي معها ولما انتصف الليل وصلنا إلى غداف حيث الأرض لزجة يتعذر فيها السير فنمنا تلك الليلة هناك ونهضنا عند الفجر وقد تغطت ثيابنا بطبقة كثيفة من هذه الأوحال اللزجة فأخذ الواحد منا ينظر إلى الآخر ويبتسم وكان يخيل لمن يرانا على تلك الصورة اننا مختلو الشعور.

وأخذت الرياح تهب فتجفف الأرض تدريجياً وبقينا حتى الظهر نسير الهوينا بكل بطء ولكننا استطعنا السفر براحة بعد الظهر فوصلنا إلى خيام عودة لتوديعه فقدم لنا من تمر الجوف اللذيذ ولم يستطع أن يقدم لنا جمالاً قوية بدلاً من جمالنا المنهوكة فاضطررنا ان نستأنف رحلتنا عليها.

وكان التعب قد أرهقني وأصابتني الحمى. وتخدرت أعصابي حتى فقدت إحساسها وخيل إليّ أني موشك أن أفقد شعوري.

وصرخ زحل مذعوراً أننا ضللنا الطريق وأننا نتجه في طريق الحامية التركية المخيمة في أبي اللسان ووجدت أنه على حق في تخوفه وأن علينا العودة إلى البتراء وكان من جراء هذا البطء في سيرنا أن لم يبقَ في وسعنا الوصول من الأزرق إلى العقبة في مدى ثلاثة أيام.

على أننا وصلنا العقبة في منتصف الليل ونمنا خارج المعسكر حتى موعد الغداء ثم نهضت وزرت "جويس".

ووصلتني برقية مستعجلة بالسفر بالطائرة إلى فلسطين فحملتني طائرة كرويل إلى السويس ومن هناك قصدت إلى غزة.

وكان الجنرال اللنبي قد حاز عدة انتصارات فلما أعلمته بفشلنا في نسف جسر اليرموك فضل أن اختصر الحديث.

وبينما كنت معه بلغنا أن القدس قد سقطت فاستعد اللنبي لدخول المدينة دخول الظافر المنتصر.

وتلطف اللنبي فطلب من كلايتون أن يسير معي ليقدمني إلى هيئة الضباط فأخذ هؤلاء يقدمون إليَّ ما زاد عن حاجتهم من الثياب حتى خيل لكل من رآني في ذلك الحين أني أحمل رتبة "ميجر" في الجيش الإنجليزي.

وسألت اللنبي عما ينوي أن يفعل في المستقبل فأجابني أنه سيظل حتى شباط جامداً في مكانه ثم يتقدم للهجوم على أريحا.

وكان الأتراك قد أخذوا ينقلون المقادير الكبيرة من المواد الغذائية إلى منطقة البحر الميت فطلب إليَّ اللنبي الوقوف على دقائق هذا الموضوع فسألته إن كان بالإمكان الانضمام إليه عند وصوله إلى الطرف الشمالي من البحر الميت ثم قلت

وإذا استطاع أن يقدم 50 طناً من الأطعمة والذخيرة لفيصل يومياً وتوصيلها إلى أريحا فإننا نهجر العقبة ونحول مركز قيادتنا إلى وادي الأردن فلاقى هذا الاقتراح ارتياحاً عند اللنبي ودوناي فوافقا فوراً على أن أجيء إلى البحر الميت في أسرع ما يمكن وأن يتم نقل المؤونة إلى أريحاً قبل منتصف شباط وأن يكون وصولنا إليها قبل نهاية آذار.

وعندما عدت إلى العقبة رأيتهم يتحدثون عن حرسي الخاص الذي ألفته في الأصل لحماية نفسي. وكانت الإشاعات قد ضخمت عدد رجالي وزادت من شأنهم حتى أصبح الموضوع شائقاً.

وتضايق الأتراك من الإنجليز تضايقاً عظيماً وكانوا يقولون إن الإنجليز هم الذين أوقدوا نار الثورة العربية واختاروا لها الطريق الذي تسلكه وهم الذين كانوا يدفعون بالعرب إلى الأمام ويغذونهم بالأموال والذخيرة وبجهودهم الشخصية وهذا القول لا يختلف عما كنا نقوله من أن المقدرة التي كانت تبدو أحياناً من الأتراك يرجع الفضل فيها إلى الألمان.

وبلغ من سخط الأتراك على الضباط الإنجليز أن وضعوا جائزة مائة جنيه يقدمونها لكل من يأتي برأس ضابط انكليزي أو يتمكن من القبض عليه وزادوا المبلغ وضخموه وكان الثمن الذي وضع لرأسي أعلى من أي ثمن آخر وعلى الأخص بعد سقوط العقبة وقيامنا بنسف القطار الذي كان جمال باشا فيه فإنهم جعلوا اسمي في رأس القائمة ووضعوا جائزة قدرها 20 ألفاً من الجنيهات لمن يقبض علي حياً وعشرة آلاف جنيه لمن يأتيهم برأسي.

ولكنهم لم يذكروا إذا كانوا سيدفعون القيمة ذهباً أو ورقاً وحسبك هذا المبلغ الضخم دليلاً على اهتمامهم بأمري.

وبدأت أزيد رجالي وأضم إلى حاشيتي أناساً لم يعتادوا الخضوع لقانون وإنما اشتهروا بالاقتحام والجرأة. يحسنون ركوب الخيل والجمال وقد أخترتهم ممن يتباهون بأنفسهم ولا يرتبطون بقبائلهم.

وحدث ذات مساء وأنا أطالع في خيمة مرشال في العقبة وكنت أقيم مع طبيب اسكتلندي أن رأيت أمامي شاباً نحيلاً، قاتم اللون. قصير القامة، في ثياب زاهية يحمل على كتفه خرجاً من خروج "الإحساء" الثمينة البديعة بل كان أجمل خرج رأيته في حياتي وهو مصنوع من نسيج الحرير الموشى باللون القرمزي والأزرق والأبيض والبرتقالي وكانت أهدابه وشراباته الخمس تتدلى على جوانبه وهي منسوجة نسجاً بديعاً.

حياني الشاب في وقار واحترام ووضع الخرج على سجادتي وهو يقول: هذا لك. ثم اختفى فجأة كما جاء. وفي اليوم التالي عاد يحمل خرجاً جديداً لا يقل في جماله عن الخرج الأول بل كان يمتاز بأطرافه النحاسية الطويلة المزينة بنقوش يمانية قديمة غاية في الدقة والإتقان.

وفي اليوم الثالث جاءني فارغ اليدين في قميص قطني بسيط وهو يقول إنه يريد الانضمام إلى جماعتي وكان منظره بعد أن خلع ثيابه الحريرية الأنيقة غريباً فإن داء الجدري اقتلع كل شعرة في وجهه فبات من المتعذر؛ تقدير سنه لا سيما وهو يبدو في جسم صبي ونفس شاب مقتحم جسور وكان شعره الطويل الأسود مجدولاً في عناية قصوى ست جدائل تتدلى كل ثلاث منها على جهة من وجهه وكان بصره ضعيفاً. سألته عن اسمه فقال عبدالله ويلقب بالنهاب وقد ورث هذا اللقب عن أبيه المحترم الجليل وذكر أن والده موفقاً في حياة النهب كل التوفيق ولكنه لسوء الحظ لم ينتفع شيئاً بالرغم من المخاطرات الجريئة التي قام بها.

وقال لي إنه وُلِد في بُريده وأنهم لم يعتنوا به في صغره بل عذبوه عذاباً شديداً لعدم تقواه ولما وصل إلى دور المراهقة عبث بعفاف امرأة متزوجة فطردوه من المدينة كلها فهجر البلاد وانضم إلى ابن سعود أمير نجد ولم تكن حياته مع ابن سعود موفقة إذ كان يكثر من القسم فيجازيه على ذلك بالجلد والسجن فاضطره لهجره وقصد الكويت ولكن النحس لازمه فانتقل إلى حائل وانضم إلى الأمير ابن الرشيد ولكنه استاء مرة من أحد الضباط فضربه بعصاه التي يسوق بها الجمل فسجنوه بعد أن جلدوه بقسوة ثم قذفوا به إلى خارج الإمارة شريداً.

ولما بوشر بمد خط الحجاز خُيل إليه أن الدهر أخذ يبتسم له فانضم إلى العمال ولكن المقاول خفض أجرته لأنه ينام عند الظهر فعاقبه عبدالله على ذلك بقطع رأسه فقبضت عليه الحكومة التركية وأودعته السجن ووجد عبد الله أن حياة السجن في المدينة لا تطاق فهرب من نافذة ورحل إلى مكة بعد أن عرض حياته للهلاك مراراً فعين ساعياً للبريد يحمل الرسائل بين مكة وجدة بعد أن أثبت مقدرته وإخلاصه واستقرت حياته وترك الطيش وجاء بأبيه وأمه إلى مكة وفتح حانوتاً برأسمال كبير من الأموال المنهوبة ولكن لم تمض سنة على وجوده في الوظيفة حتى فقد جمله مع الرسائل التي يحملها فاستولت السلطات على حانوته وحاولت معاقبته فهرب إلى جيش الشريف وعين ضابطاً ولكنه أكثر من استعمال الخناجر وقذف الجنود بالسباب والشتائم وحدث مرة ان طعن أحد رجال البلاط أمام الشريف "شرف" فهاج هذا عليه وعاقبه عقاباً شديداً كاد يودي بحياته وحينما استرد قواه ضمه الشريف إلى حاشيته فلما نشبت الحرب العالمية كان ملازماً لابن دخيل الحامل رتبة ضابط في جيش فيصل واتسعت شهرته وحدثت فتنة الوجه فعين ابن دخيل سفيراً فأراد أن يكافئ تابعه فكتب إلي رسالة يقول فيها أن عبد الله خدمه بأمانة وسلك سلوكاً حسناً ولكنه لا يحافظ على كرامته وأنه استخدم عند كل أمير عربي وطرد

من الخدمة لسوء سلوكه بعد أن أوسع جلداً ولبث شهوراً في السجون وذكر ابن دخيل أن عبد الله قدير في تمييز الجمال وجريء لا كجرأة أي أنسان من بني آدم بل هو رجل لا يخشى الخطر فعينته في الحال لأني لم أكن أجد أصلح منه لخدمتي. وقد حدث مرة أن جاء وجلس على درجات السلم في القيادة العليا فدهش الحراس من هذا الرجل الغريب وزاد في دهشتهم كثرة ما يحمل من الأسلحة المتعددة الأشكال فطلبوا إليه الدخول إلى غرفة الحراس ليبقى تحت المراقبة فانتهز فرصة خلو المكان والتهم كل ما وجده في الغرفة من البرتقال كأنه كان يريد الانتقام من حراسه لكونهم أوقفوه، ولما عدت إليه قال إنه وجد أن هذه الغرفة أفضل سجن دخله في كل حياته وأن السجون الأخرى لا تقدم برتقالاً لأحد. وسمحت له السلطة بحمل سيفه وخنجره ومسدسه وطبنجته وبندقيته.

وعاد البدوي يوزع السجائر على الحراس ويبتسم في وجوههم قبل رحيله.

وقد عهدت إليه بمهمة فحص الرجال الذين يودون الانضمام إليَّ وأني مدين له بجماعة من الشذاذ اختارهم لي فكان الإنجليز في العقبة يلقبونهم بقطاع الرقاب ولكنهم لم يكونوا يقطعون الرقاب إلا بأمري ولا يعترفون بسيادة أو سلطة غير سيادتي وسلطتي وقد يعد البعض هذا العمل مني جناية لا تغتفر وكانوا عندما أتغيب يظهرون لرفيقي الميجر مرشال كل لطف وتودد ولما علموا أنه طبيب كانوا لا يحدثونه إلا عن أمراض الجمال ويجلسون على سريره إلى ساعة متأخرة من الليل فكان يصبر عليهم – وعلى الأرجح من الخوف – صبراً مدهشاً. وكنت أدفع لكل منهم ستة جنيهات ذهبية في الشهر وأقدم لهم الجمال التي يريدونها مع ما يحتاجون إليه من الطعام وكانوا في نظير معاملتي الطيبة لهم يصبرون على الشدائد التي يصادفونها في سفراتي المرهقة الفجائية الطويلة التي لم يكن يقبل بها البدوي العادي ويجب أن لا تنسى أن السفر السريع كان يؤلمنا إلى حد بعيد.

وكنت في الحقيقة لا أبخل عليهم بشيء، وكانت جمالنا أسرع الجمال نشتريها بالثمن الباهظ ونستبدلها بغيرها كلما هزلت ووهنت كما كنت أستبدل رجالي برجال آخرين أشداء.

وكان رجالي يتباهون كل المباهاة بخدمتي وهم يختارون ثياباً من أي لون كان ما عدا الأبيض فقد كانت ثيابي كلها بيضاء فوجدوا من اللياقة أن يتركوا هذا اللون لي.

وكان في مقدورهم أن يستعدوا في نصف ساعة لرحلة تتطلب ستة أسابيع كاملة. ولا يعارضون في السفر ليلاً أو نهاراً. ويجدون أنه من العار أن يتحدثوا عن التعب فإذا تبرم أحدهم فإن بقية رجالي يأمرونه بالصمت أو يحولون مجرى الحديث.

كانوا يقاتلون كالشياطين عندما أريد، بل أحياناً عندما لا أريد وكانوا ينقمون على الأتراك نقمة هائلة.

وكنت أفرط كثيراً في مكافأتهم كما أفرط في إيقاع العقوبات القاسية بهم ولكنهم كانوا يتباهون بما يلاقون من خير كما يتباهون بالآلام التي يقاسونها بسبب عصيانهم لأوامري وكانوا ينتمون إلى ثلاثين قبيلة متنافرة فضمنت بذلك استحالة اشتراكهم ضدي وتعاونهم على التخلص مني.

كانوا أقدر ما يمكن في التجسس، يصحبونني في كل رحلاتي التجسسية بين العقبة ودمشق وبين بئر السبع وبغداد وفي خدمتي مات 60 من هؤلاء الأبطال الأشداء.

الفصل الثامن عشر

وبقينا في الجويرة ننتظر الأوامر للقيام بحملة على الطفيلة التي كانت تربط بين القرى الواقعة في الطرف الجنوبي من البحر الميت ووضعنا خطة لمهاجمتها من الغرب والجنوب والشرق في وقت واحد .

وكان علينا أن نأتي عن طريق الجرف أقرب مدينة للجويرة على الخط الحجازي. وكان ناصر هو الذي سيشرف على هذا الهجوم وقد اشتهر بحسن حظه.

وأشرك الشريف ناصر معه نوري السعيد الذي كان أكبر ضابط في معية جعفر .

وكانت الجرف محطة قوية تتألف من ثلاثة أبنية حجرية تكتنفها الخنادق فتجعلها حصناً منيعاً .

وظل الشريف ناصر يقود رجاله بحذق وبراعة كعادته في كل هجوم وبالرغم من أن الأتراك أقاموا المتاريس المحصنة والمسورة وركبوا عليها ثلاثة مدافع فقد استطاع الشريف ناصر أن يحتل ليلاً هذه القلعة بينما كان الأتراك في نومهم يغطون .

ثم اقتلع الخطوط الحديدية قبل المحطة وبعدها .

وجرّ نوري مدفعه الصغير حتى أوصله إلى طرف سلسلة الجبال وأطلق منه ثلاث

طلقات موفقة بعثت الرعب في نفوس الأتراك. ولما وجد ناصر كل هذا التوفيق الذي أحرزه نوري السعيد استفزه حماس شديد وسار مع عرب بني صخر للهجوم على المحطة ووجد نوري أن عملهم هذا جنون مطبق فالمدافع التركية كانت ما تبرح باقية ولكن لم يكن لكلامه أي تأثير فدفعه اليأس لأن يطلق المدافع إطلاقاً مخيفاً على مكان الأعداء وفي الوقت نفسه اقتحم بنو صخر الموت اقتحاماً في جرأة لا يتصورها العقل فاستولى الفزع على الأتراك فقذفوا ببنادقهم، وهربوا إلى المحطة مذعورين، ولم يقتل من العرب سوى رجلين في هذه المعركة.

وهرع نوري باشا إلى الهضبة التي كان يحتلها الأتراك فوجد أن المدافع التركية لا تزال سليمة.

وأسرنا في ذلك اليوم 200 تركي بينهم سبعة من الضباط ثم تركنا المدافع على الجسر بغير مبالاة فقد اعتاد البدو أن يلجأوا للسكينة بعد أن يفوزوا بالغنائم.

وعاد الطقس يعاندنا فظلت السماء تمطرنا بوابل الثلج ثلاثة أيام متتالية. وهذه الأنجاد المرتفعة المحيطة بمعان تعلو عن سطح البحر بين ثلاثة وخمسة آلاف قدم وهي فضلاً عن هذا مكشوفه معرضة للرياح التي تهب عليها من الشمال والشرق. هذه الرياح التي تأتي من جهة آسيا الوسطى، أو من جهة القفقاس، وتهب هبوباً مخيفاً على تلال أروم المنخفضة ووجد الإنجليز خارج بئر السبع والقدس أن الطقس في فلسطين بارد ومع هذا فكان رجالنا يهربون إلى تلك المناطق فراراً من البرد وطلباً للدفء.

ولسوء حظنا أن الضباط الإنجليز الذين كانوا يعنون بإرسال الذخيرة، لم يتحققوا. إلا في آخر لحظة، أننا نحارب في جبال الألب الصغيرة وأن المقادير التي كانوا يرسلونها من الأطعمة لم تكن كافية لجيش من الأطفال: أجل. لم يرسلوا لنا

سوى ربع حاجتنا من الخيام وكنا نفتقر افتقاراً شديداً للعبي وللأحذية والحرامات. وإذا كان رجالنا قد صبروا ولم يهجرونا، وإن كانوا لم يقضوا جوعاً وعرياً. فهذا لا يعني أنهم لم يقاسوا كل ألوان البؤس وكل ضروب التعاسة حتى أوشكت آمالنا أن تتلاشى ويخمد حماسنا.

وأرسلنا بعض عرب البتراء تحت قيادة الشريف عبد المعين إلى غابات الشوبك وكان منظر هؤلاء العرب غريباً باقدامهم العارية المتجمدة من شدة البرد وبأجسامهم المستورة بجلود الأغنام كانوا يسيرون في أودية منحدرة وعلى جوانب التلال الخطرة. في أرض كساها الجليد واشتد فيها الصقيع ومع هذا فسكان هذه الجبال الأشداء كانوا يواصلون المسير بالرغم من كل العوائق التي وقفت في سبيلهم.

ورآهم الأتراك يقتربون في بطء فلم يتجاسروا على الوقوف في طريقهم بل ولوا مدبرين واختفوا في الكهوف. وتسلق بعضهم الأشجار تاركين ما في ايديهم من أمتعة ومؤونة.

أما ناصر فقد قفز قفزة واحدة من الجفر إلى الطفيلة في يوم وليلة: سافر بالرغم من الأعاصير التي كانت لا تنقطع.

ووصل ناصر قبيل الفجر إلى الأودية الصغيرة، والشعاب الصخرية التي تخفي الطفيلة.

وأرسل الشريف ناصر ينذر أهل الطفيلة بالاستسلام وإلا فإنه لن يتوانى عن إطلاق القنابل وكان كلامه هذا من قبيل التهديد غير القابل للتنفيذ فإن نوري كان قد عاد بالمدافع إلى الجويرة.

ولم يكن في الطفيلة يومذاك سوى 180 تركياً ولكن عائلة المحيسن وهي من

عائلات شرق الأردن المشهورة كانت تؤيد الأتراك: لا حباً بهم بل شفاء لحزازات عائلية فقد كانوا ينقمون نقمة شديدة على الشيخ دياب وجماعته وهذا الشيخ في نظر المحيسنيين دني، خسيس فلما وجدوه انضم إلى فيصل ولاقى القبول غضبوا وأيدوا الطرف الآخر فامطروا ناصراً وابلاً من الرصاص الطائش وانتشر بدو الحويطات فوق الصخور لمقابلة النار بالنار.

وغضب عودة أبو تايه، وعودة كما تعلم أسد في شجاعته ولكنه أسد عجوز.

عجب عودة كيف أن هؤلاء القرويين المندفعين بمحبة الربح المأجورين للأتراك، يتجرأون على مقاومة أسيادهم فما كان منه إلا أن ركض إلى القرية فلما اقترب منها هز يده في وجوه سكانها وصرخ:

- يا كلاب ألا تعرفون عودة؟

ولما تحققوا أن الذي يخاطبهم بمثل هذه الجرأة العجيبة لم يكن إلا عودة ابن الحرب العنيد خارت عزائمهم.

ولم تمض ساعة حتى كان الشريف ناصر في دار الحكومة يشرب الشاي مع الحاكم التركي ويحاول أن يخفف عنه ويسليه كان يقول إن الأيام دول. والأمور تجري بإرادة الله، وأن لا مناص من الاستسلام.

وكان فيصل قد أناب عنه شقيقه زيداً في الإشراف على هذا الجزء من البحر الميت. وكان هذا أول عمل يتولاه زيد في الشمال فغادر المكان وكله آمال واتخذ الجنرال جعفر باشا ليكون مستشاره ولكن رجاله المشاة والمدفعيين توقفوا في البراء وأقاموا فيها مرغمين بسبب افتقارهم للطعام. أما زيد وجعفر فقد تركا رجالهما وقصدا الطفيلة.

وشكر زيد عودة على جهوده وكافأه. وأرسله ثانية إلى الصحراء، وجاء شيوخ قبيلة المحيسن لزيارة فيصل مكرهين إذ كان عدوهم دياب صديقنا.

وجاء زيد بمبلغ كبير من الذهب فتحسنت الحالة ونظمنا الأمور في خمس قرى وتاهبنا لهجوم جديد.

ولكننا بوغتنا بمحاولة فجائية من الأتراك لطردنا وإزاحتنا من الطفيلة ولم نكن نحسب مطلقاً أن الأتراك يقدمون على عمل كهذا.

وكان اللنبي قد وصل إلى القدس ولهذا كان الأردن مركز القتال بين الأتراك والإنجليز وإلى أن تسقط أريحاً فلا تعود الطفيلة سوى قرية مظلمة لا شأن لها. ولم نكن نحن أنفسنا نقدرها فوق حقيقتها بل كان جل غرضنا أن نتخذها ممراً للوصول إلى أعدائنا ولكن حامد فخري باشا كان يرى غير هذا الرأي أو أن الأوامر التي تلقاها كانت تعني المحافظة على الطفيلة فإنه جمع تسعمائة من المشاة ومائة من الفرسان و29 مدفعاً وأرسل هذه الحملة براً وعن طريق السكة الحديدية إلى الكرك وأراد مباغتتنا من الجنوب فنجح فإن فرسانه انقضوا على خفرنا في وادي الحسا هذا الوادي المتسع العميق الذي يفصل الكرك عن الطفيلة. ومواب عن أروم: فاضطروهم للتراجع فجاءونا منهزمين.

وكانت خطة جعفر أن يترك الطفيلة للأتراك إذا هاجمونا ويحمي المرتفعات القائمة وراءها وكنت أعتقد أن هذه الخطة فاسدة فإن صيانة المنحدرات ليست أقل عناء من الهجوم كما أن الأتراك في وسعهم مهاجمتنا من جهة الشرق ومع هذا فإن هذه الخطة العقيمة هي التي نجحت أخيراً.

واضطر زيد في منتصف الليل للرحيل فاستولى الذعر على الأهلين الذين ظنوا أننا هربنا وتلك هي الحقيقة.

وتدافع الأهلون لإنقاذ أنفسهم وأملاكهم وساد الاضطراب وعمت الفوضى، وكثر الصياح في الشوارع وكانت الحالة مريعة.

واخذ الشيخ دياب يقص علينا قصصاً مكدرة عن اشمئزاز الأهلين منا ولم يفعل ذلك إلا ليعلي من شأن ولائه وأمانته لنا ولكنني مع هذا بقيت على رأيي في هؤلاء العرب البواسل وكنت أعتقد أنهم قوة مدخرة عظيمة يمكن الالتجاء إليها في المستقبل.

وأخذت أتجول متنكراً لدراسة الحال مع حرس صغير يسيرون ورائي على مسافة قصيرة تمكنهم من اللحاق بي في ساعة الخطر فأيقنت أن عرب الطفيلة في ذعر شديد من الأتراك وهم يكرهونهم ويلعنونهم وقابلت الشيخ متعب والشيخ عناد وكانا يرتديان ثياباً حريرية فاخرة ويحملان أسلحة فضية براقة وطلبت منهما أن يفتشا لي عن عمهما حمد العرار فلما جاءا بحمد سألته أن يتجول بين الأهلين لتطمينهم بأننا سنعود لمساعدتهم على الأتراك فقام بمهمته حالاً مع عشرين رجلاً ولكنهم بدلاً من أن يدخلوا الاطمئنان إلى قلوب أهل الطفيلة زادوهم رعباً وجزعاً؛ إذ وصلوا على خيولهم التي كانت تنهب الأرض نهباً وهم يطلقون الأعيرة النارية في الهواء ليشجعوا أنفسهم ويثيروا الحماس فيهم ولما وجدت النساء هؤلاء الفرسان أخذن يقذفن ما في دورهم من الامتعة من الأبواب والنوافذ وهن يصرخن ويولولن كما أن الفزع قد استولى على الصغار فملأوا الدنيا صراخاً وعويلاً وكان "المطالقة" هؤلاء مصدر فزع للأهلين غير قليل.

وأظهر زيد في تلك الحملة كبحاً غريباً لعواطفه وكأنه قد ولد ضابطاً.

وبعد أن أمطرنا الأتراك بوابل من الرصاص هدأت ثائرتهم وجمع حمد فخري باشا ضباطه وقال لهم:

لقد قضيت 40 سنة جندياً ولكنني لم أجد في حياتي ثواراً كهؤلاء وخير لنا أن نستسلم.

واستسلم الأتراك بعد أن سقط منا بين 20 و30 قتيلاً من الستمائة الذين كانوا معنا وكان عدد جرحانا ثلاثة أضعاف هذا العدد.

أما عدد الأتراك فكان يناهز الألف فوقع ربعهم أسرى في أيدينا وسلبناهم 29 مدفعاً ومائتي جواد ولكن العرب يقولون إنه لم يتبق من الأتراك غير الأسرى وأفلت من يدينا 50 تركياً.

أما الجرحى فقد قضوا نحبهم جميعاً في اليوم التالي بتأثير البرد والزمهرير.

الفصل التاسع عشر

وأثلجت السماء، وأخذت الأيام تمر فلا تزيدنا إلا ملالاً لأن حياتنا كانت على نسق واحد، وتبددت آمالنا وكان ينبغي أن نستولي على "الكرك" بعد أن تم لنا الظفر. فنروع الأتراك ونلقي الفزع في قلوبهم فيتراجعون إلى عمان مذعورين ولكننا لم نفعل فضاعت كل جهودنا هباء.

وكان برد الشتاء يفعل فعله فانزوى رجالنا في الطفيلة واستسلموا إلى الراحة والخمول وضاعت الجهود لاستفزازهم إلى الحركة.

وكان الثلج يذوب في النهار ويسيل قليلاً فلا يأتي الليل حتى يتجمد كل سائل.

وكانت الرياح تعصف فتنفذ إلى جلودنا فتشقها، وكانت أصابعنا لا تتحرك، وفقدنا حاسة اللمس. أما وجوهنا فترتجف كأوراق الشجر اليابسة وكنا نحس بالألم يسري في مفاصلنا وعضلاتنا.

ونَضب الشعير في الطفيلة وقد حرمت جمالنا من المراعي فاضطررنا للإسراع في السير إلى الغور بسبب برودة الطقس.

وكانت حالة رجالي أفضل من غيرهم لأننا نقيم في دار فارغة لم يتم بناؤها مؤلفة من غرفتين وفسحة أمامها وأنا قادر على ابتياع ما نحتاج إليه من الوقود ومن الغذاء لنا ولجمالنا.

وكان عبدالله وهو ممن يحبون الجمال يمسك الخبز بفمه ويقدمه إلى الجمال فيخيل لمن يراه أنه يقبل الجمل في فمه وهو يؤدي هذه الحركة الرشيقة في خفة طيبة وينادي كل جمل باسمه. ويهبه هذه الهدية كل يوم.

ومع هذا فلم نقض أياماً سعيدة في الطفيلة لأن دخان النار التي نشعلها يعمي عيوننا ويضايقنا ضيقاً شديداً فضلاً عن أن سقوف الغرف من الطين، وتقطر ماء طول النهار والبعوض لا يكف عن اللسع طول الليل وكيف لا تغني وتمرح وهي تجد لحوماً طرية وغزيرة ونحن 28 شخصاً محتشدين في غرفتين صغيرتين وقد فسد الهواء لذلك وتعفن وكنت أحتفظ في سرج جملي بكتاب "موت أرثور" فأخذت أتلهى بقراءته لأنسى ما أنا فيه من بلاء والحقيقة أن نفسي كانت مشمئزة من كل شيء يحيط بي حتى من طباع رجالي التي بدلها الجو تبديلاً فأصبحت أُرى الأخلاق الشاذة تضايقني وتغصبني.

واصبت بجرح في وركي فاستعصى شفاؤه بسبب البرد وساءت أخلاقي لما عانيت من الآلام حتى أنني بت أحتقر الحياة.

وانقضى كانون الثاني سنة 1918 وأقبل شباط ونحن لا نزال في شقاق وخصام يجسّم كل منا أخطاء زميله فعزمت أن اترك جماعتي وأمضي للبحث عن مبلغ من المال ننفقه عند اعتدال الطقس.

وكان زيد قد أنفق المبلغ الذي خصصناه للطفيلة والبحر الميت في دفع الأجور وشراء المؤونة، وتقديم الهبات والمكافآت للظافرين في سيل الحسا.

ولم يكن من الهين على جويس تدبير مبلغ من المال لي في فصل كهذا فاضطررت للسفر بنفسي إلى الرشيدية مع خمسة من الرجال فسرنا في أودية منحدرة ملساء نتوقف حيناً بعد آخر ولما وصلنا إلى "أدروح" وقفت الجمال فجأة

وأبت المسير، فأجهدناها ونحن يائسون وفي المساء وصلنا إلى "أبي اللسان" بعد أن قطعنا عشرة أميال.

وكان رجال مولود قد خاروا، وانحطت قواهم، ولم يقبل أحد لتحيتنا أو للترحيب بنا وحسناً فعلوا فقد كنا في حالة قذرة تعسة أشبه بالهررة التي حلق كل شعرها ثم استأنفنا السير في أراض متحجرة كالحديد واجتزنا سهل الجويرة الدافئ فشعرنا ببعض الراحة ولكن الأحجار كانت قد أدمت أرجلنا.

واستلمت من العقبة 30 ألفاً من الجنيهات وعدداً من الجياد وإذ كان رجالي متفرقين فقد سألت فيصل أن يقدم لي بعض رجاله بصورة مؤقتة فأعارني "سرج" و"رميد" وهما من فرسان قبيلة عتيبة ثم أرسل إليَّ الشيخ مطلق فعهدت إلى هؤلاء الثلاثة مهمة نقل الذهب الذي وصلنا.

ولم نعرف قيمة الشيخ مطلق إلا عندما قامت السيارات المسلحة باكتشاف السهول التي في أسفل المدورة وكنا نستعمل سيارات فورد التي تجري في التلال الرملية بأقصى سرعتها كأنها زورق يشق عباب البحر.

وحدث أنه بينما السيارة تجري في جنون فتح بابها فجأة وسقط مطلق منها فوقع على رأسه فأوقف (مرشال) السيارة فوراً وعاد إلى مكان الشيخ مطلق وهو على أتم الاستعداد للاعتذار ولشد ما كانت دهشته أذ وجد الشيخ مطلق غير غاضب وبعدأأن حك رأسه قال في لطف:

لا تغضب عليَّ فإني لم أتعلم ركوب أشياء كهذه.

وكان الذهب الذي وصلنا 30 ألفاً من الجنيهات موضوعاً في 30 كيساً فقدمت لكل من الأربعة عشر من العشرين رجلاً الذين كانوا مع مطلق كيسين من الذهب وكانت حصتي كواحد منهم فلم أبق لنفسي سوى 2000 جنيه وكان وزن الكيس 22 رطلاً.

بدأنا المسير ظهراً ونحن نؤمل أن نقطع مرحلة طيبة قبل أن تضايقنا التلال ولكن لسوء حظنا أخذت السماء تمطر مطراً غزيراً فابتلت ثيابنا الداخلية والخارجية وتجعد شعر جمالنا فأصبح كشعر الكلب الغاطس في الوحل.

وتطلع مطلق. وكنا في موقف حرج فشاهد خيمة الشريف فهد فطلب إليَّ المبيت فيها ولكني أبيت حرصاً على الوقت واستأنفت السفر ومعي ثمانية من رجالي ولكن لما استمر هطول المطر لمت نفسي لمخالفتي مشورة مطلق على أننا لم نلبث أن شاهدنا فجأة على شمالنا خيام صالح بن شفيع وكان فيها ما يقرب من مائة مقاتل من المعتوقين جاء بهم من ينبع فقصدناه فرحب بنا بالرغم من حالتنا المزرية وطلب مني أن أخلع ثيابي المبللة وقدم لي ثياباً خاطتها أمه له وأجلسني على سجادته الخاصة في خيمته وأمر أن يعدوا لنا اللحم والأرز فأكلنا هنيئاً ورقدنا طول الليل في راحة لم نكن نحلم بمثلها بعد أن أرهقنا تعباً ولما استأنفنا المسير عند الفجر تطلع سرج وقال إن الجبل قد لبس عمامته فقد كانت قمته مكللة بالثلج الناصع البياض واندفع رجالي يريدون الصعود إلى هذه القمم ليلمسوا الثلج بأيديهم كأنه لم يكن يكفيهم الاستمتاع بمشاهدته وكانت الجمال تجهل كل شيء عن هذا الثلج فأخذت تمد أعناقها وتشمه مرة واثنتين وثلاثاً وهي لا تستطيع البت في أمر هذا الثلج فلما يئست منه رفعت أعناقها في يأس واستأنفت المسير.

ثم هبت رياح الشمال باردة فأسرعنا المسير باحثين عن ملجأ نختبئ فيه وخيل إلينا أن مجابهة هذه الرياح ستقضي علينا واخيراً وصلنا إلى الوادي فوقانا بعض الشيء.

وشعر كل من سرج ورميد بآلام في رئيتهما ففزعا وارتاعاً وخشيا أن يكونا قد اختنقا فمررنا وراء تلال مولود لعلنا ننجو من هذه العواصف.

أما رجال مولود فكانوا منذ شهرين يقيمون في هذا المكان المرتفع 4000 متر عن سطح البحر، دون أن يجدوا من ينجدهم أو يسعفهم أو يفرج كربتهم وكان عليهم أن يعيشوا عيشة القلة والكفاف لا يجدون حتى الوقود لصنع الخبز مرة كل يومين وكانت كل ثيابهم التي تستر أجسامهم من الكاكي الإنجليزية الرسمية الصيفية التي ترتدى في التمرينات العسكرية وهم ينامون في أخاديدهم الغرقة في مياه الأمطار الغاصة بالجراثيم والهوام المضرة فوق أكياس الدقيق الفارغة.

وكان ينام كل ستة أو ثمانية معاً ويغطون أنفسهم بالحرامات الممزقة البالية وقد توفي ومرض أكثر من نصفهم بسبب البرد والرطوبة ومع هذا فبقي بعضهم يسهرون ويراقبون ويؤدون عمل الحراس ويتبادلون الطلقات يومياً مع النقط العسكرية التركية وإننا ولا شك مدينون بالفضل الكبير لهم وبالفضل الأكبر لمولود الذي كان يبث فيهم بجلده وصبره على الشدائد وثباته روح الواجب والتضحية في سبيل الوطن.

وشعرنا يومئذ بالضيق لما عانيناه إذ قضينا النهار بطوله نتحمل المصاعب لأن الأراضي القريبة من أبي اللسان قد اشتد فيها الصقيع فتجمدت والرياح تخز عيوننا وتلسعها لسعاً حاداً فتعمينا عن الطريق وهذه فاتحة الأتعاب التي صادفناها وقد كان للجمال حظها في تنغيض حياتنا فاصرت على الوقوف والجمود وسط الثلج الخائر والأوحال اللزجة الناعمة وأكثرت من الجأر والخوار شاعرة بعجزها كأنها تريد أن تقول لنا صراحة وفي غير مواربة إنها لا تستطيع الصعود بنا فوق هذه الأماكن الزلقة حرصاً على حياتنا وحياتها وأدركنا فوراً ما ترمي إليه الجمال فقفزنا عن ظهورها وجررناها.

وليس في بلاد العرب كلها ما هو شر من الرياح الشمالية التي تهب على معان وقد شاء لنا لسوء الحظ أن تكون سفرتنا في وقت اشتداد هذه الرياح وفي

وقت عنفوانها وقوتها فكنا نحس أن ثيابنا فارقت أجسادنا فتوغلنا شمالاً فما أقبل المساء حتى وصلنا إلى جدول البصة وهذا كان يعني أننا نسافر بسرعة ميل في الساعة وتوقفنا خشية أن لا نقوى على السفر في الغد وانطرح رجالي على الارض متذمرين من شدة ما قاسوا وأوشكت أن أشاركهم في صراخهم ولكني تراجعت عندما رأيتهم يندبون ويولولون وجمعنا جمالنا التسعة ورقدنا في وسطها وأخذنا نتطلع إلى النجوم. وكان كل منا يحتفظ ببطانيتين من بطانيات الجيش وبمقدار من الخبز فشعرنا باطمئنان من هذه الناحية ونمنا بأمان في الأوحال فجدد النوم قوانا وعند الفجر نهضنا في نشاط وأستأنفنا المسير في الأوحال فإذا الأودية كثيرة الضباب تجري فيها السواقي البطيئة من ذوبان الثلج وأخيراً نزل البرد الرطب زخاً فهربنا إلى خرائب أزرع.

وقطعنا ستة أميال في سبع ساعات ثم خارت قوانا وأقسم عرب عتيبة الأيمان أن لا يخرجوا من خيامهم.

ونفد المال الذي جاء به زيد ولا ينبغي أن ننسى أننا في فصل الشتاء فكانت هذه التجربة قاسية فماذا نفعل وسط الظلام والزمهرير.

وكان موقع "الشوبك" على مسافة عشرة أميال فصممت على الذهاب إليه وحيداً غير خائف خطراً. إذ لا يعقل أن يجازف أحد من الأتراك أو العرب بنفسه فالطرق إذن كلها ملكي وقد سرت فيه كله فلم يقع نظري على إنسان.

واستلمت أربعة الآف جنيه من "سرج" و"رميد" ناعياً عليهما ما يظهران من جبن وخور عزيمة.

وعلمت أن الشريف عبد المعين في الشوبك فسرت إليه فإذا الشوارع هادئة خالية من البشر.

ولما وصلت إلى مفرق الطرق صرخت: مساء الخير! وبعد لحظة سمعت صوتاً أجش متهدجاً يشكو إلى الله حاله: صعد هذا الصوت من كوة صغيرة كانت محشوة بالخيش السميك ثم خرج رجل من هذا الكوخ فسألته عن عبد المعين فأخبرني أنه في دار الحكمة فلما هممت بالمسير فتح الباب بغتة وظهرت من ورائه وجوه سوداء كالحة كالليل البهيم وبأيدي أصحابها مشاعل ترسل دخاناً ونوراً وأخذوا يطيلون التحديق في وجهي ليتأكدوا إنسي أنا أم جني إذ لم يكن عقلهم يتصور أن أوروبياً يفاجئهم في الليل وحيداً في جو كهذا فبادرت لتحيتهم تحية ودية وقلت أني جئت لتناول العشاء مع سيدهم فما أن سمعوا حديثي حتى ملأوا الدار ضجة وسروا من جرأتي العجيبة وقادوا لي فرسي (وضيحة) إلى الاسطبل الذي ينامون فيه. وأقبل عدد جديد من الخدم على اثر صياح الأولين ثم سرت وسط هذه الجماعة في ممر ملتو كثير المنعرجات يتساقط الماء على رؤوسنا من سقفه الخاوي حتى وصلنا إلى غرفة صغيرة فوجدت عبد المعين منبطحاً فوق سجادة ولا يدري عن شيء مما حدث وكانت ساقاي لا تحملاني فارتميت بجانبه فاستيقظ ونهض يبحث لي عن قطعة من القماش ألف بها جسمي بينما خلعت ثيابي وأخذت أجففها على النار. وأمر عبد المعين رجاله أن يسرعوا بإحضار العشاء فجاؤوني بلحم مسلوق وزبيب وزبدة وبعد أن حمدت الله على هذا العشاء الذي قدمه لنا قال إنه سيتعرض هو ورجاله غداً للجوع أو السرقة وذلك أن عليه تقديم الطعام لمائتي رجل وهو لا يملك طعاماً أو مالاً وأنه قد أرسل رسلاً إلى فيصل ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إليه لتراكم الثلوج فلما سمعت هذا الحديث صفقت أنا أيضاً وطلبت أن يؤتى لي بالخرجين وأخرجت خمسمائة جنيه وقدمت هذا المبلغ على الحساب ريثما تأتيه الإعانة ولا شك أن خمسمائة جنيه هي ثمن ممتاز للعشاء الذي قدمه.

وارتسم البشر على وجوه القوم فأخذوا يحدثونني عن ويسألونني عن السر في

مجيئي وحيداً في مثل ذلك البرد القارس والظلام الدامس بينما أحمل كل هذا الذهب.

فقلت إن البرد لا يؤثر كثيراً عليّ لأن جو إنجلترا بارد وشبيه بهذا فصاح عبد المعين:

- معاذ الله. معاذ الله.

وبعد أن بقينا ساعة نتحدث استأذن وتركني لأنه كان قد تزوج حديثاً بامرأة من أهل شوبك فلففت جسمي بالبساط ونمت وأنا أشعر بالدفء والحرارة.

وكانت البراغيث تتراكض وتزدحم لئلا نفلت منها.

ونهضت في الصباح وأنا أشعر بوجع يكاد يشق راسي شقاً فقلت إني مضطر للرحيل فودعني عبد المعين وأعارني بعض رجاله ليسافروا معي وكنت أخشى أن يموت جوادي وهو عزيز عليّ ولست أطمئن للمبيت وحدي بين هؤلاء الرجال ومعي ستة الآف جنيه وبت في حيرة ما بعدها حيرة ووجدت الجواد يركض بسرعة عشرة أميال في الساعة في طريق الرشيدية الزلق، وكنت أخشى أن أسقط فتتحطم عظامي.

وشاهدنا أخيراً جمهرة من العرب، ومن رجال زيد في طريقهم إلى فيصل فاسرعوا إلينا يصيحون فرحين بانتظار الذهب فأخذت استقصي الحالة منهم فطمأنوني عنها ثم نزلت عن جوادي وقدمت لزيد الرسائل التي أحملها له وبعض ما معي من الذهب وانصرفت للرقاد لأن التعب قد بلغ بي أقصى الدرجات.

الفصل العشرون

وأكرهت على ترك زيد والعودة لفلسطين لمقابلة اللنبي واستشارته في أمور ضرورية مستعجلة.

وكان أهم ما سمعته منه أن وزارة الحربية تعتمد عليه اعتماداً كبيراً وأنها تنتظر منه القيام بأعمال جسيمة خطيرة أقلها أن يأخذ دمشق. وحلب إن أمكن في أقصر وقت فلا تقوم لتركيا بعدئذ في الحرب قائمة.

وكانت منطقة الأردن أهم عقبة تقف في طريقه فاستدعاني ليرى إذا كان في ميسور العرب أن يريحوه من هذا العبء الثقيل فقلت إن هذا ما يريده الإنجليز أما العرب فإنهم يرون أنه لا بد من الاستيلاء على معان قبل التفكير في اي شيء آخر. ثم قلت إذا أمكن أن يمد الإنجليز العرب بما يحتاجون اليه من ذخيرة ومؤونة ووسائل نقل ففي وسعهم أن يقيموا مدة شمالي معان ويقطعوا الخطوط الحديدية هناك باستمرار فتضطر الحامية التركية أن تخرج من مخبأها لمقاتلتهم، وفي الميادين يستطيع العرب قهر الأتراك بسهولة ثم قلت: وإن كل ما يحتاج إليه الجيش العربي سبعمائة جمل وعدد من المدافع وأن يضمن لنا الإنجليز أن لا نهاجَم من جهة عمان عندما نقاتل في معان.

وعلى هذا الأساس اتفقنا وكان حديثي قاعدة المشروع الذي اشتركنا في وضعه.

وأمر اللنبي لنا بوحدتين من وحدات الجيش المصري المخيم في العقبة وهذه

الوحدات تحت قيادة الضباط الإنجليز الذين أظهروا تفوقاً عظيماً في حملة بئر السبع ففرحنا بهذه الهدية العظيمة نستعين بها في معاركنا المقبلة وقد وعدنا الجنرال اللنبي أيضاً بإرسال المدافع. أما عن قضية وقايتنا من الهجوم من ناحية عمان فقد قال اللنبي إنها سهلة ميسورة مما دعاني إلى الاطمئنان.

وكان ينوي زيادة في الحرص أن يحتل السلطة من أعمال شرق الأردن وأن يبقي فيها حامية هندية.

وكان اللنبي سيعقد في اليوم التالي مؤتمراً صغيراً للتشاور والمداولة والبت في هذه الأمور كلها نهائياً فوجب عليَّ أن أنتظر للاشتراك في هذا المؤتمر.

وقرر أعضاء المؤتمر أن يتحرك الجيش العربي في الحال الى أنحاء معان لاحتلال هذه البلدة. وأن يعبر الإنجليز الأردن لاحتلال السلط. وأن يقلعوا ما يستطيعون من الخطوط الحديدية التي في جنوب عمان. واتفق الرأي على تدمير النفق العظيم هناك وتناقشنا قضية إشراك عرب عمان في هذه الأعمال الحربية الإنجليزية فأيد "بولز" هذا الرأي.

وقلت إننا على استعداد لتأييد احتلال الإنجليز للسلط واحتفاظهم بها بعد أن يتم استقرارهم مدة فيها. وأنه بعد سقوط معان سيتحول العرب نحو أريحا التي ينبغي أن نتخذها مخزناً للذخيرة والمؤونة، لمساعدة اللنبي على احتلال عمان.

وكانت القضية المهمة الثانية التي عالجناها هي استيلاء الإنجليز على دمشق فأخذت على عاتقي ضمان معونة فيصل للإنجليز في هذا المشروع فما أن انتهى المؤتمر حتى ركبت الطائرة إلى العقبة لأطلع فيصل على ما دار بيننا من حديث وكنت على يقين أنه سيوافق على ما عرضته من الآراء والاقتراحات.

وأبلغت فيصل أن اللنبي خصص لنا ثلاثمائة ألف جنيه وضعها تحت تصرفي

أنفقها كما أشاء . وأنه سيرسل الينا قطاراً فيه سبعمائة جمل، ومقادير كبيرة من الذخيرة والمؤونة وما كاد فيصل والعرب يسمعون هذه الأخبار المشجعة حتى سرى السرور في كل الجيش لأن وجود وسائل النقل والمال والذخيرة والمؤونة يمكن العرب من إظهار كفاءتهم في القتال، وخبرتهم الحربية التي اكتسوبها بالمران الطويل مع الضباط العرب والإنجليز.

وبعد أن اتفقنا على كل شيء سافرت إلى القطر المصري فقضيت أربعة أيام في القاهرة فإذا كل شيء هناك قد تبدل، ورأيت اللنبي يكثر من الابتسام في وجوهنا دلالة الرضا والامتنان من أعمالنا.

وكانت أعظم هدية أهداها لنا اللنبي الضابط دوناي وهو من الضباط الحربيين الفنيين أصحاب التمييز والإدراك ومن أنصار الثورة العربية وكانت خبرته الحربية من أكبر العوامل التي ساعدت على تقربه من العرب.

وتم الاتفاق على أن يهجم الجنود النظاميون من العرب، تحت قيادة جعفر على معان، وأن ينحدر جويس في سياراتنا المسلحة إلى المدورة، فيقتلع الخطوط الحديدية باستمرار حتى تصبح المدينة منعزلة، ونتجه مع مرزوق شمالاً لنعمل على لم شمل العرب والإنجليز دون إراقة شيء من الدماء.

وبعد أن غادرنا جويس ودوناي قصدت أبا اللسان في الثالث من نيسان سنة 1918 يصحبني مرزوق و 2000 جمل تحمل ذخيرة ومؤونة.

واضطررنا للإبطاء في السير إرضاء للجمال وكان أملنا أن نصل إلى الخطوط الحديدية بعد انسدال الظلام.

وحوالي غروب الشمس كان بوسعنا أن ننظر عن بعد تعاريج الخطوط الحديدية ممتدة في أرض يغمرها العشب الاخضر والشجيرات الصغيرة.

ولما وجدنا الأمور على ما يرام تقدمنا إلى هذه الخطوط ولا أكتم القارئ مدى السرور الذي يتملكني عندما ألمس هذه القضبان الحديدية؛ إن مجرد لمسها يستفزني كما يستفز البدو اقتلاعها.

ومما يُذكر أنني كنت أطوف وحيداً للاستكشاف فصادفت جندياً تركياً ما كاد يراني حتى حملق في وجهي مذهولاً وكانت دلائل الانتعاش بادية على وجهه. وكان مسدسي في يدي بينما كانت بندقيته راقدة بالقرب منه لتنال من النوم مثل الحظ الذي ناله صاحبها. تطلعت إليه فوجدته لا يزال في ريعان الشباب تبدو على وجهه دلائل العبوسة والتجهم فحملقت فيه وقلت له في لطف: السلام عليكم ورحمة الله.

فعاد يتطلع إليّ وقد فارقه تجهمه وعبوسته وبدأ يهش في وجهي ويبش دون ان ينطق بكلمة واحدة ثم تركته وانصرفت وقد شعرت أنه من الظلم أن أقتله كما أن الجندي كان شهماً فلم يطلق الرصاص علي من وراء وبعد أن بعدت عنه التفت إلى الوراء وأخذت أطيل النظر إليه وهو يطيل النظر إليّ حتى توارينا.

وتركنا جمالنا ترعى وترتع بينما كنا نحن أيضاً نتناول ألذ الأطعمة وأشهاها.

ثم استأنفنا المسير إلى "عطاره" حيث يقيم مفلح وفهد وأدهب.

فاستقبلنا هؤلاء الزعماء بالكلام المعسول ورأيت على وجه مفلح دلائل الجشع وقد أخذ يحدثني بصوت شبيه بالصفير عن الهدايا التي ينتظرها.

وكانت الخطة التي تم الاتفاق عليها بيننا وبين اللنبي أن نعبر ثميد. مقام بني صخر ثم نتجه إلى مأدبا لنجعلها مقراً لقيادة الجيش بينما يُعبد اللنبي الطريق بين أريحا والسلط وكانت مهمتي أن أربط العرب بالإنجليز دون أن نطلق رصاصة واحدة.

وبقينا مدة في عطاطر وهي لحسن حظنا مغطاة بطبقة من العشب الأخضر الطويل المزهر وكانت سلسلة الجبال الطباشيرية المحيطة بها مالحة مجدبة لكثرة ما تحويه من الاملاح فكان المنظر يشرح الصدر ويسر الخاطر، وقد وقفنا على تلك القمم نتطلع شمالاً وجنوباً ونتنسم رائحة الزهور البرية الذكية.

وأخيراً بينما نحن نعيش عيشة ناعمة هادئة وصلتنا الأخبار بأن الإنجليز قد استولوا على عمان فلم يكد ينقضي نصف ساعة حتى كنا في طريقنا إلى ثميد ولكننا سمعنا ونحن في الطريق أن الإنجليز تقهقروا.

ثم جاء رسول ثالث يقول إن الإنجليز هربوا من السلط.

فأقسمت أن كل هذه الأخبار كاذبة وأن علينا أن ننتظر الأخبار الصحيحة المعقولة.

ثم أقبل رسول رابع يقول إن الإنجليز لم يتمكنوا من اقتلاع عدد قليل من القضبان الحديدية في جنوبي عمان وذلك بعد هجمات متواصلة فاشلة دامت يومين كاملين.

وفي الواقع أني اضطربت من أخبار هؤلاء الرسل فأرسلت "أدهب" ليستطلع لي حقيقة الأمر اعتماداً مني على رباطة جأشه في أوقات الخطر، وحملته رسالة للضابط شتوود طالباً إليه أن يكتب لي كلمة عن حقيقة الموقف.

وقضينا الوقت في اضطراب ندوس حقول الشعير النامي ونحن لا ندري بشيء مما يقع حولنا وكنت شارد الفكر أضع مائة خطة وخطة.

وفي ساعة متأخرة من الليل وصل "أدهب" يقول بأن جمال باشا موجود الآن في السلط وإنه دخل هذه المدينة دخول الظافر المنتصر وأخذ يشنق العرب الذين

رحبوا بمقدم الإنجليز وسهلوا الأمور لهم وأن الأتراك يلاحقون اللنبي في وادي الأردن وأنه ينتظر أن يستردوا القدس فزادت هذه الأخبار من قلقي وعدنا ثانية إلى عطاطر وأنا لا أصدق أنباء هذا الفشل فعدت أحدث نفسي بأن الإنجليز ما كانوا يصدقون كلامي أحياناً كثيرة ولا يؤمنون بتكهناتي وأن هذا الفشل سيعيد إليهم رشدهم وصوابهم.

وأمرت الهنود الذين كانوا في الأزرق بالانضمام حالاً إلى فيصل.

وقضينا ليلتنا في تفكير مؤرق فلما أصبح الصباح اجتمعنا بالهنود قرب وادي الجن ثم ما لبثت أن تركتهم فقد كنت أشعر بفقد الراحة فرأيت أن أتنقل وبسرعة، ليلاً. علَّ هذه الحركة السريعة تشفي عقلي المريض.

قضيت الليل بطوله فوق جملي في البرد ووجهتي أذرع فلما اقتربت منها شاهدت بريقاً خاطفاً مستمراً ثم سمعت أصوات المفرقعات والبارود وخيل إلينا أن المحطة تحترق فأسرعت في المسير لمقابلة "مستور" فلم أجده بل رأيت مكان خيامه قفراً يحتله ابن آوى فصممت على مواصلة السير إلى فيصل وكان الجراد بأجنحته الفضية يملأ الجو نوراً مرتجفاً.

وأقبل اليوم الثاني عشر من نسيان وأنا لا أدري ثم تنبهت فجأة من ذهولي فأدركت أنني في فصل الصيف، وأنني قضيت في الشرق سبع سنوات مرت مر السحاب.

ولما اقتربت سمعت بالقرب من "سمنه" أصوات الطلقات النارية وعلمت انني بت قريباً من معان.

وكان من الجلي أننا احتللنا سمنه وهذا ما شجعني على مواصلة المسير.

والتقيت بجمل عليه نقالة وقال الجمّال الذي يقوده وهو يشير إلى النقالة: مولود باشا.

فصرخت: هل أصيب مولود؟

كان مولود من أفضل ضباط الجيش، ومن الرجال الأمناء للإنكليز ولكن هذه الأمانة لم تكن لتمنعه من أن يكون وطنياً متقد الوطنية.

وسمعت صوت ذلك الكهل الأمين الراقد فوق النقالة خافتاً يقول وقد برح به الألم: "نعم، يا لورنس!".

حقيقة اصبت ولكنني أحمد الله أن جرحي ليس بذي بال: لقد استولينا على "سمنه" فأجبته أني ذاهب إليها ورأيت مولود لا يقوى على الحركة فتركته متألماً.

وحل نوري سعيد مكان مولود.

وسألت عن جعفر فقال لي نوري إنه غادرنا في منتصف الليل لمهاجمة جردون فحدثته عن البريق الذي شاهدته والذي يدل على أنه قد انتصر واستولى على المدينة.

وبينما كنا نتحدث مغتبطين أقبل بعض الرسل يحدثوننا عن الظفر، والاسرى، والمدافع، وعن المحطة التي سقطت في أيدينا والثلاثة آلاف قضيب حديدي التي اقتلعوها فأخذنا نتباهى بهذا النصر المبين يحرزه جعفر باشا العسكري واطمأنت نفوسنا من ناحية الشمال.

ثم اندفع نوري إلى محطة "غدير الحاج" وخربها ونسف خمسة جسور واقتلع ألف قضيب حديدي فكان هذا يعني انتصارنا أيضاً في الجنوب.

وهدأت الحالة وقيل إن فيصلاً تحرك قاصداً الوهيدة فانتهزت هذه الفرصة لرؤية

مولود في المستشفى الحربي الموقت لأطمئن على صحته فتركت زيارتي أثراً طبياً في نفسه.

ثم اجتمعت بفيصل فمد يده لمصافحتي وقال:

- خير إن شاء الله فأجبته:

- خير. الحمد لله. النصر من عند الله. وقادني إلى خيمته لنتحدث معاً.

وكان فيصل قد سمع من دوناي أكثر مما سمعت عن فشل الإنجليز قبل وصولهم إلى عمان. وعن رداءة الطقس. والفوضى. وأن جويس في المستشفى وأن دوناي في الجويرة على وشك الذهاب للمدورة ومعه كل السيارات المسلحة.

وسألني فيصل عن "سمنه" فأخبرته بكل ما أعلمه عنها وعن شكوى نوري من عودة لأنه لم يفعل شيئاً طول النهار وكان هذا حديث جديد سمعه فيصل عن عودة.

وتأثر عودة تأثراً عميقاً وأقسم بشدة أنه قد بذل أقصى جهده ولكن الحاله بين القبائل لم تكن مساعدة على عمل شيء فأثبت عدم صحة هذا الحديث وخرج من خيمة فيصل غاضباً غضباً شديداً.

وجمع جمال باشا فلول جيوشه القريبة من عمان لإعادة الاستيلاء على جردون ولكنه لم يتمكن من فعل شيء على الإطلاق مدة أسابيع لأننا قد عطلنا الخط الحديدي تعطيلاً تاماً.

الفصل الحادي والعشرون

كان بكستون موظفاً قديماً في الحكومة السودانية، يجيد التكلم بالعربية ويهمه الوقوف على عادات القبائل الرحل، وقد امتاز بالصبر ودماثة الأخلاق وفيه جاذبية تحببه إلى النفس وتقربه من القلب.

وكان سترلنج، ومرشال، يحصران كل جهودهما في دراسة أحوال بني عطية ونحن مدينون لهما بسياستهما الرشيدة التي وقفت بيننا وبين بني عطية.

قصدت العقبة عن طريق الإثم. هذه المدينة ذات الأسوار العالية وليس معي غير ستة من الحراس الصامتين الذين طلبت منهم ألا يسألونني عن شيء فأخذوا يتبعونني كظلي ويسيرون ورائي كخيالي.

وكان مشهد هؤلاء الستة جميلاً لما فيه من تناسق ولما فيه من تناسب. ولكنني في الواقع كنت غير مبال بهم فقد انصرفت إلى التفكير في وطني وأهلي وأعزائي: شعرت لأول مرة بشدة الحنين إلى الوطن العزيز: شعرت لأول مرة في حياتي بأني من المنبوذين وأني أعيش معيشة المنبوذين مع أني كنت أتباهى بمعيشتي بين البدو وأفتخر بالمثل العربية العليا وبتعشق العرب للحرية. هذا التعشق الذي استخدمته إنجلترا كسلاح ماض لتحرير العرب من الرق التركي فنجحت وأي نجاح.

وانضم بقية حرسي إليّ عندما وصلنا إلى العقبة كانوا يحلمون بالظفر والفوز لا

سيما وأني وعدتهم عندما جئت بهم من حوران أن أعيدهم بعد زمن قصير إلى قراهم وأنهم سيعودون إليها أحراراً لا كأرقاء وسيولمون الولائم ويقيمون الأفراح احتفالاً باستقلال بلادهم وإنقاذ قراهم.

كنت أقول لرجالي إن يوم النصر بات قريباً فلا ينبغي أن يهنوا ولا يستسلموا لليأس.

كان عدد حراسي 60 شخصاً سرت بهم وسط التلال قاصداً الجويرة بعد أن نظموا أنفسهم تنظيماً خاصاً فمنهم من يغني عن يميني وعن يساري ومن يلقي القصائد أو يعزف على آلات الطرب حتى كان يخيل لمن يرانا أننا أشبه بفرقة موسيقية تملأ الجو تغريداً وجلبة وضوضاء ففارقتني وحشتي وعدت إلى سكينتي.

ولما وصلنا إلى الجويرة استدعاني فيصل ونوري الشعلان وطلبا إليّ المجيء فوراً إلى جفر فاستقبلاني استقبالاً يدل على دماثة ولين والحقيقة أنني لم أصدق أن نوري الشعلان ذلك الكهل الوقور قد انضم إلى زمرة الشباب فقد عرفته طاعناً في السن. منهوك القوى. ترتسم على وجهه دلائل الحزن وابتسامته تشف عن مرارة في النفس، وهذه الابتسامة هي الشيء الوحيد المتحرك في وجهه.

كانت جفونه تنثني فوق أهدابه الخشنة في ثنيات منهوكة، ويتألق من عينيه نور أحمر ينبثق من تجاويفها فيجعل العينين يبدوان كحفرتين ناريتين تلتهبان التهاباً بطيئاً أما شعره فيبدو حالك السواد ولكنه في الحقيقة كان مخضوباً ولو أنه تركه دون خضاب لما شك أحد في أنه قد بلغ حقاً العقد السابع ولكن هذا الخضاب لعب دوره في تخفيض سن هذا الكهل المهيب.

أدركت فوراً أن لنوري الشعلان سيطرة عظيمة في قبيلته وأن زعماء القبيلة وشيوخها آلات في يده يحركها كما يشاء.

وعلمت أن فيصل قد أهدى هؤلاء الزعماء هدايا فاخرة من الثياب الأنيقة الحريرية. وغمر أيديهم بالذهب. فلما وقع نظري عليهم خلتهم نساء في ثيابهم الجديدة التي تحف حفيف الأشجار.

وأول من تعرفت به الشيخ فارس، وهو رجل هزيل، ذو شاربين ذابلين يتدليان في خنوع وذل. ووجه أبيض بياضاً غير طبيعي وصوت أشبه بالصرير ولما سمعني أتكلم العربية صاح مدهوشاً: "إنه يتكلم بلغتنا! إنه يفهم عربيتنا"...

وبين الذين حضروا أيضاً طراد وسلطان وهما من الرجال الذين يحتفظون بمهابتهم ورصانتهم. ولا يعرفون في أحاديثهم سوى الاستقامة. بل هما من الاشخاص المحترمين ومن البارعين في القتال. أما مجحم فهو من المتمردين الثائرين ولكن فيصل استطاع أن يأتي به ويصالحه مع عمه الذي كان لا يحتمل رؤيته بجواره بينما يبدو على "مجحم" هذا دلائل الحياة والمسالمة واللطف فضلاً عن أنه قائد من كبار القواد.

رأيته قد جلس بجوار شقيق طراد الذي هو من الفرسان الأصحاء الأقوياء الذين ترى دلائل البشر والانشراح على وجوههم. وهو لايختلف في ملامح وجهه عن طراد ولكنه ليس كامل الرجولة مثله. ورحب بي درزي وهو من الرجال المختالين الفخورين بأنفسهم وأخذ يحدثني عن النبك حديثاً إن دل على شيء فإنما يدل على مبلغ شرهه وطمعه.

كان هذا الرجل أعور. أعسر. ملتوي الأنف. ثقيلاً. أخرق. كئيباً لا يعرف سوى الوعيد والتهديد وهو خسيس دنيء لكنه باسل مغوار لا يهاب الموت.

وهناك أيضاً خفاجي الذي كنت أقربه مني لعلاقتي بأبيه لا لميزة خاصة فيه أو لأنه من الأشخاص الذين أنتظر لهم مستقبلاً زاهراً. وهو من الشبان الذين يساعدهم سنهم على الاغتباط بالحرب وما فيها من اقتحام، وما تتطلبه من جرأة. كان يحب المباهاة بأسلحته البراقة الجديدة يتقلدها ويتيه بها مختالاً فخوراً.

وكان "بندر" ذلك الصبي الصبوح الذي لا يمل من الضحك لا ينقطع عن المرح، نظير خفاجي في سنه ومرحه فقد ترك الحاضرين جميعاً وأتأني بخفة ملتمساً أن أجد له مكاناً بين حرسي فقد غره ما سمعه من راحل، أخيه في الرضاعة، غره ما يلاقيه حرسي من نعيم وعظمة وغارات. فتاقت نفسه للمغامرة وفيها فتنة تجذب الشبان بعنف في كل بلاد العالم وقد سمعت حديثه وأصغيت إليه ولكني أخذت في بادئ الأمر أماطل وأتردد فكان يقابل إحجامي بالتضرع تارة والاحتجاج الصارخ تارة أخرى ثم ضاقت به الحيل فصرخ متذمراً:

"نحمد الله أنك لست بملك تتحكم في خدم شعلان".

فتطلع نوري إليَّ في شيء من الرضى والاستحسان وفارقته عبوسته وكآبته.

وكان راحل جالساً خلفي يتباهى بثيابه التي تصر صريراً يمجه السمع وهو شديد الإعجاب بنفسه، وراحل هذا في الواقع ذو بأس، مملوء حياة، شهواني، ولكنه ظريف جميل اقترب مني وأخذ يهمس في أذني اسم كل زعيم من الزعماء الذين جاءوا للاجتماع بفيصل.

ولم يخطر لواحد منهم أن يسأل عني فإن ثيابي كالتي ترتدى في الصحراء ومظهري كمظهر البدوي العادي ولم أشتهر بين البدو إلا بأني الشخص الوحيد الذي أحلق ذقني وأرتدي الثياب الحريرية الصرف وأزين رأسي بعقال ملكي من الذهب وأحمل خنجراً من الذهب.

وكانت هذه المجالس لا تخلو طبعاً من أحاديث ومسامرات. وكثيراً ما رأيت فيصل يجذب القبائل إليه بسحر بيانه وببلاغته وتودده وكثيراً ما يلهب هذه القبائل الجديدة ويستفزها بمنطقه القوي وبصراحته المعهودة.

ولكن فيصل لم يظهر من القوة مثل ما أظهر في ذلك المجلس الذي عقده أخيراً.

ولم يظهر من حرارة الوطنية مثل ما بدا منه في ذلك الاجتماع، هذه الحرارة المتقدة التي أذابت قبائل الرولا، وصهرتها، هذه الوطنية التي لمسها هؤلاء البدو من فيصل فكانوا ينزلون عند مشيئته في كل ما يأمرهم به، وكانت محبتهم له خالصة نقية.

أخذ فيصل يحدث هؤلاء البدو عن "الوطنية" وتدرج في حديثه إلى تاريخ العرب، ومجد العرب ثم تمهل قليلاً فقد كان شديد الإحساس واسع الخيال يكاد مجرد ذكر الماضي البعيد بما فيه من مفاخر وأمجاد يحزنه ويبكيه فهو يقارن بين حالة العرب قديماً وحديثاً.

ووجد هؤلاء الشيوخ في حديث فيصل ما يبعث فيهم الحياة وما يستفزهم للجهاد في سبيل استرداد ذلك المجد التالد القديم فانطلقت ألسنتهم في الأحاديث عن تضحياته في سبيل هذه القومية العربية؛ قال لهم بجلاء إنه حرم نفسه من كل شيء لأجل إسعادهم ولكنهم لن يسعدوا إلا إذا عاشوا أحراراً.

ثم ساد الصمت من جديد وتركهم يتخيلونه وهو يطوف الليل والنهار يعلمهم ويعظهم ويأمرهم ويتودد إليهم تركهم يتخيلون الفكرة التي يرمي إليها ذلك الرجل الطموح. هذه الشخصية الغنية التي تحضهم حضاً شديداً على أن لا يروا الأمر إلا بعين واحدة. وأن يعملوا متكاتفين متساندين وأن يوحدوا شعورهم وهدفهم ويعيشوا ويموتوا في سبيل تحقيق هذا الهدف وهو تحرير الوطن وإسعاده.

ولم يتصور العرب أمامهم فيصل اللحم والدم، فيصلاً الماثل بشخصه يلمسونه ويرونه ويسمعون صوته وإنما تخيلوا أمامهم فيصل الفكرة، فكرة القومية فهو إذن باعث القومية في بلاد العرب وفي سبيلها قد ضحى بكل ما يملك من ثروة ومن ملاذ العالم.

عدت إلى الجويرة ذلك المساء، ووصلت ليلاً إلى العقبة بالطائرة وسمعنا أن قوة بكستون سافرت إلى المدورة وأنها تنوي مهاجمتها.

وقد تم فعلاً ما أراد بكستون فبعد أن قذفت الطائرات بعض القنابل استسلمت المدينة بسهولة ولم يسقط منا سوى أربعة قتلى وعشرة جرحى بينما كانت خسارة الأتراك 21 جريحاً و150 أسيراً غير المدافع الخمسة التي استولينا عليها.

وانتقل بكستون مع رجاله إلى الحفير فاستراحوا فيها يوماً ثم انتقلوا إلى بئر السبع حيث كنت أنتظرهم مع جويس.

وكان الإنجليز عادةً يطلقون الرصاص على الحيوانات التي لا يرجى نفع منها فاقترب عبد الله مني وسألني عن السر في إقدام الإنجليز على هذا العمل فقلت إن العرب قد اعتادوا على الإجهاز على الجرحى الذين يعلمون أنهم يقاسون من العذاب ما يجعلهم يفضلون الموت عليه فأجابني أنهم يفعلون ذلك لتخليص الجريح من العذاب الأليم ومع هذا فهو يعتقد أن ذلك من الأعمال الشائنة إذ يندر أن يوجد رجل حي لا يفضل الموت التدريجي في الصحراء على الإجهاز عليه دفعة واحدة لأن الحياة عزيزة وإنه من الرحمة أن يترك الجريح حتى يموت من نفسه. فقلت له إن الإنجليز يرون أن في الموت السريع رحمة وأنهم يقتلون كل شيء ما عدا الإنسان الذي يتركونه حتى يموت مهما كان يقاسي من عذاب.

وكان رجال بكستون من المقاتلين الأشداء كما أن خطط هذا القائد كانت موضع إعجابنا جميعاً فهو دائم التوفيق ولم يكن في حاجة إليّ أو إلى جويس ودوناي ويونج.

تركته وقصدت أبا اللسان مع السيارات المسلحة.

وغادرنا جويس ليعرض أسنانه على أحد الأطباء في مصر.

وعاد دوناي ليبلغ اللنبي أخبارنا ويؤكد له أن الأمور تسير سيراً طيباً وان أوامره تنفذ وتطاع بمنتهى الدقة.

الفصل الثاني والعشرون

واقبلت سفينة جويس من جدة تحمل بريد مكة ففتح فيصل "قبلته" ؛ وكانت جريدة القبلة هذه لسان حال الملك حسين بل كانت الجريدة الرسمية الوحيدة وإذا به يرى منشوراً ملكياً فقرأه فوراً وإذ الشريف حسين يقول في جملة أقواله إن الجهلة يدعون جعفر باشا القائد العام للجيش العربي الشمالي بينما نحن نقول إنه لا يوجد أي منصب كهذا في الجيش فأرقى درجة فيه هي درجة "قائد في الجيش العربي" وعليه فالشيخ جعفر قائد كغيره من القواد لا يمتاز عنهم في شيء وهو أدى واجبه كما أداه سواه من الضباط .

أذاع الملك حسين هذا البيان في الوقت الذي بلغه خبر تقديم نيشان لجعفر باشا من الحكومة الإنجليزية على يد اللنبي في حفلة لطيفة تدل على تقدير الإنجليز لذلك القائد العربي الباسل الذكي دون أن يعلم ابنه فيصل بشيء من هذا وكان قصده طبعاً من إذاعته لهذا البيان أن يكيد السكان العرب الذين يقيمون في شمال شبه الجزيرة . وأن يظهر سخطه على الضباط السوريين والعراقيين الذين كانوا موضع احتقاره لتراخيهم . كما يقول . ولشدة تخوفه منهم ومن أعمالهم .

كان الشريف حسين يعلم أنهم يقاتلون لا إرضاء لأطماعه في السلطة والسيادة بل لتحرير بلادهم دون تفكير في هذا الكهل الذي بلغت مطامعه إلى درجة لا يمكن قمعها أو ضبطها ؛ أجل . كان الحسين جموحاً . لا ينقاد لأحد .

وقرأ جعفر ما نشر في الجريدة الرسمية فقدم استقالته حالاً لفيصل وتبع هذه الاستقالة استقالة ضباط عديدين.

ورفض فيصل قبول هذه الاستقالات مذكراً إياهم بأن والده لم يصادق على تعيينهم فهم إذن مسؤولون أمامه فحسب وأنه وحده الذي أُسيء إليه بإذاعة هذا المنشور الذي يقصد منه التقليل من شأن جعفر باشا فوقع حديثنا من نفوس الضباط موقعاً طيباً، وهدأت أعصابهم.

وأبرق فيصل إلى مكة يخبر والده بما جرى فتلقى الرد برقياً وفيه أتهم الحسين ابنه بالخيانة وذكر أنه يتبرأ منه ويحرمه من الحقوق فأجاب فيصل على هذا برغبته في التنازل عن قيادة الجيش في جبهة العقبة فما كان من الحسين إلا أن عين زيداً مكان فيصل. فرفض زيد على الفور مظهراً تضامنه مع أخيه وهنا هاج الحسين وماج وأخذ يمطرنا برسائل برقية تحمل كل ما يمكن أن يقوله الرجل الذي تملكه السخط والحنق وشلت حركاتنا الحربية في أبي اللسان شللاً فجائياً.

وأبرق إليّ دوناي، من العقبة، قبل أن تقلع السفينة، يسألني في غم وكآبة إذا كان انقطع كل أمل في التوفيق بين الحسين وابنه فيصل فأجبته بأن الأمور كلها معلقة في كفة القدر وأنه ربما تمكنا من الخروج من هذا المأزق الذي وقعنا فيه.

وكان امامنا ثلاثة مسالك نتبعها:

المسلك الأول أن نضغط على الملك حسين ونجبره على سحب البيان الذي أذاعه عن طريق التهديد والوعيد.

والمسلك الثاني أن نتجاهل هذا البيان ولا نقيم له وزناً.

والمسلك الثالث أن نعلن رسمياً بأن فيصل قد أصبح يعمل مستقلاً استقلالاً تاماً عن أبيه.

وكان لكل مسلك أنصاره يؤيدونه ويتشيعون له من إنجليز وعرب.

وأبرقنا إلى اللنبي نسأله تلطيف الموقف ووضع حد لكبرياء الحسين وعناده؛ وكنا نعلم بأن الحسين صلب مكابر. وأنه داهية يحب الخداع والمكر. وإنه قد تنقضي الأسابيع قبل أن يعتذر وكان بإمكاننا أن ننتظر هذه المدة، وأن نصبر عليه حتى يتعذر لو كنا في موقف غير موقفنا ولكن ماذا نفعل ونحن بحاجة لأن نظهر في مظهر المتضامنين المتكاتفين.

وكان أول عمل أقدمت عليه أن أرسلت رسالة خاصة إلى نوري الشعلان أخبره فيها بأنه ليس في وسعي مقابلته في الاجتماع الذي سيعقده رجال قبيلته في "الكاف" واخبرته بأني سأذهب إلى الأزرق وأبقى مدة تحت تصرفه وكان عملي هذا من قبيل التذرع أو الاحتيال حتى خشيت أن يرتاب نوري في انقلابي هذا فيأبى مقابلتي.

وكنا نعتمد على قبائل الرولا اعتماداً كبيراً في هجومنا على درعا في السادس عشر من أيلول، بل إننا كنا نقدر قوتهم بالنصف.

وكان علينا أن ننقل إلى الأزرق كل أمتعتنا وطعامنا وبترولنا وذخيرتنا وقد قام يونج بهذا العمل على وجه حسن ولكنه كان شرساً قاسياً.

وإني لن أنسى وجه نوري السعيد الذي كان يتألق ويبرق بعد مؤتمرنا المشترك عندما التقى بجماعة من الضباط العرب جاءوا يشكون من يونج هذا. فهش نوري في وجوههم وبش وقال بلهجة ودية:

ـ "لا بأس أيها الرفاق فإنه يحدث الإنجليز باللهجة نفسها التي يحدث بها العرب".

والحقيقة أننا كنا نسير على مبدأ ثابت وهو أن نصدر الأوامر للعرب عن طريق

زعمائهم وحدهم لهذا لم يكن هناك أي مجال للبحث في قضية الطاعة أو العصيان فإنهم كانوا ينفذون أوامر زعماءهم فقط.

وكان على الجيوش أن تنتقل للأزرق في اليوم المناسب.

وأخذ نوري على عاتقه تحقيق هذا الغرض ونوري من القواد الذين إذا قالوا فعلوا وقد أبدى موافقته على الانتقال إلى الأزرق.

وأهم ما انصرفت إليه مساعدة فيصل على استرداد سيادته التي فقدها بسبب بيان أبيه. وكانت كل محاولة نقوم بها بين درعا ودمشق فاشلة حتماً؛ إذا لم تكن مؤيدة من فيصل وعلى الأخص عند الهجوم على دمشق.

أجل كنت أتنظر من العرب الهجوم على دمشق ومن أجل هذا انضممت إليها. وقاسيت ما قاسيت في سبيل تحقيق هذا الهدف.

وكان من المستحيل علينا الهجوم على دمشق دون وجود فيصل معنا ليجني ثمرة أتعابه وثمرة جهود الجماعات العاملة وإياه على تحرير بلاد العرب.

وتعاهدت مع فيصل على أن يكون الواحد منا أميناً لصديقه حتى النهاية. وكان اللنبي وولسون يبذلان جهدهما لتطييب الأجواء بين الملك حسين وابنه. وكانت الخطة التي وطدنا العزم على اتباعها إذا فشلت جهود اللنبي وولسون أن نعد فيصل بتأييد الحكومة البريطانية له مباشرة وبمساعدته على دخول دمشق دخول الظافر المنتصر وتتويجه ملكاً... هذا ما كان في نيتنا أن نفعله ولكنني أردت أن أتجنب الاصطدام بالحسين إلا إذا اضطررت اضطراراً ورأيت نفسي أمام الأمر الواقع.

وكان تاريخ الثورة العربية ناصعاً لهذا لم تشته نفسي أن ينفصل الأب عن ابنه هذا الانفصال المحزن، على الأقل قبل أن يتم لنا الظفر. وقبل أن نجني ثماره.

وكانت برقياته التي يرسلها تأتينا عن طريق مصر ومن مصر باللاسلكي للعقبة ثم تُحمل إليّ بالسيارة لأقرأها وأسلمها لفيصل. لهذا عمدت إلى حذف الفقرات غير المرغوب فيها وكانت العبارات التي تبقى لا تعني شيئاً... بل مجرد كلام فارغ... فكان فيصل يقرأ هذه البرقيات ويعيدها مذهولاً ويطلب تصحيحها وإعادتها إليه.

أما عملي هذا فكان يهدئ أعصاب فيصل. ويخفض من حدة ضباطه الناقمين على الحسين.

وبقيت اياماً العب هذا الدور وبقي فيصل لا يعلم شيئاً عن السب الذي تحمله رسائل الحسين وكان كل ما يعرفه أن برقيات مكة قد ضربت شوطاً بعيداً في التحريف والاضطراب حتى أصبح لا معنى لها ولم تكن تعنى مكة بإعادة هذه البرقيات مصححة بل كانت ترسل مكانها برقيات جديدة تحمل عبارات كلها جفاء وخشونة ولا تختلف في لهجتها عن البرقيات الأولى فكنت لا أسلمها إلا بعد أن العب دوري بحذق.

وأخيراً انفرجت الأزمة ووصلتنا برقية بإلغاء الأوامر السابقة وإعادة الضباط إلى أماكنهم. وأرسلت البرقية لفيصل بعد أن وضعت عليها هذه العبارة التي تدل على مبلغ اهتمامي بالقضية "مستعجل جداً" وكان جالساً في خيمته وسط ضباط الجيش كلهم.

سلم السكرتير البرقية لفيصل فأخذ يقرأها والعيون كلها متجهة إليه تراقبه مراقبة شديدة كما أن عبارة "مستعجل جداً" كالبهار زادت البرقية نكهة ولذة. وضاعفت من اهتمام فيصل بها بل جعلته يتوقع شيئاً ساراً.

وبعد أن أتم قراءة البرقية أخذ يتطلع إليّ وبدت دلائل الدهشة على وجهه

وأخذ يطيل النظر إليَّ. فإن الكلمات التي جاءت في هذه البرقية كانت تدل على تواضع ورقة وإذعان ولا تنس أنها من والده العنيد.

واعتدل فيصل وعاد إلى تلاوتها بصوت مرتفع ثم قال في رجفة تدل على شدة تأثره: لقد أنقذت هذه البرقية شرفنا وصانت كل حقوقنا.

وهنا بدأت دلائل الانشراح على الوجوه، وانحنى فيصل يهمس في أذني قائلاً:

لقد تعهدت لك بأن أسير طوعاً لنصائحك في هذا الشهر ألا يكفيك هذا؟ لقد فعلت ذلك لأنك تحافظ على كرامتي أكثر مما تحافظ على كرامتك، ولأنك تفضل مصلحتي على مصلحتك.

ثم نهض بقوة وقال بلهجة الرجل الواثق من نفسه: والآن أيها السادة، احمدوا الله، واعملوا.

واستأذنت وانصرفت وكان جويس قد عاد إلينا من مصر. ووعد فيصل بأن يأتي ومرشال معه للانضمام إليَّ في اليوم الثاني عشر من أيلول.

تركت المعسكر يسوده الانشراح واتجهت إلى جهة الشمال في اليوم الرابع من أيلول لألمّ شمل بدو الرولا وأجمعهم تحت قيادة نوري الشعلان للهجوم في الوقت المعين على درعا.

الفصل الثالث والعشرون

سافرت بالسيارة مع ونترتون وناصر وكان اللورد ونترتون من الضباط المختبرين العاملين مع بكستون.

أما الشريف ناصر فأشبه بالحربة في الجيش العربي، منذ أيام المدينة، وقد رأينا أن ننتفع به في مهمتنا هذه.

وفي الواقع أن الشريف ناصر قد أظهر كفاءة نادرة في دمشق كما أظهر كفاءة نادرة في المدينة، والوجه، والعقبة، والطفيلة وفي كل معركة اشترك فيها وفي كل عمل أقدم عليه فهو في الحقيقة من الرجال النادرين الذين يحق للعرب أن يباهوا بهم.

كانت سياراتنا تقطع 76 ميلاً في الساعة بقيادة السائق "جرين" وهو من خيرة السواقين فلم يكن بمقدور الشريف ناصر أمام هذه السرعة إلا أن يلوح بيده كلما وقع نظره على صديق.

ولما وصلنا إلى "بير" سمعنا من بني صخر أن الأتراك قد جاءوا فجأة في اليوم السابق من الحسا إلى الطفيلة فخشينا أن يحتلو الجويرة. بل كانت العقبة نفسها مهددة ولكن الذي أدخل الاطمئنان إلى قلوبنا أن الأتراك كانوا لا يعرفون شيئاً عنا فاختبأنا في مكان يطل على عمان ودرعاً.

كنا اثني عشر إنجليزياً مع ناصر وأحد عبيده نقضي النهار في التجوال والاستحمام عند الغروب، كما نقطع الوقت في التفكير والنوم والراحة شاعرين أننا في أمان.

وكانت الخطة التي رسمناها أن نقوم بخدع حربية ونتظاهر بالهجوم على عمان. وباقتلاع الخطوط القريبة من درعا ولم نذهب في التفكير إلى أبعد من هذا.

وكانت ألوف الجنيهات الإنجليزية التي تحمل صورة الملك جورج تلعب دورها فنغمر عرب بني صخر بالذهب في نظير ما عندهم من الشعير ولم يكن ذلك عن حاجة لنا في الشعير بل استمالة للقلوب بالذهب إلى القضية العربية، والعمل على تحرير شبه الجزيرة.

قلنا لهم إننا بحاجة إلى هذا الشعير بعد خمسة عشر يوماً وإننا لا نطلب منهم إلا أن يبقوا هذه الأخبار مكتومة ولكن دياب وهو زعيم من زعماء الطفيلة، رجل اشتهر بعدم الثبات يميل مع الرياح أينما مالت فلم يثبت معنا للنهاية فنقل الأخبار فوراً إلى الكرك.

وارتدى هورنبي الثياب العربية وأخذ يستعد لهجمة عنيفة على مأرب وكانت خطته أن يبدأ بذلك الهجوم في اليوم التاسع عشر ولكنه لما سمع عن موعد هجوم اللنبي رأى ان يبقى في أريحا لتعود إليه قوتنا إذا فشلنا في درعا.

أما الأتراك فلم يبالوا بهذه الحركات كلها فتقدموا إلى الطفيلة واضطر هورنبي للدفاع عن الشوبك، وصد الأتراك عنها.

وأقبلت الطائرات في اليوم العاشر من أيلول من العقبة.

وفي اليوم الحادي عشر وصلت السيارات المسلحة تحمل جويس وسترنلج، ولكن لم يأتِ فيصل معها.

ووصل يونج، وبيك، وسكوت، ومعهم الأمتعة والمؤونة والذخيرة.

واحتشدت الأزرق وضاقت أنفاسنا لكثرة من جاءوا من الأهلين.

وفي اليوم الحادي عشر وصلت طائرة من فلسطين تحمل إلينا رسالة علمنا فيها بمرض دوناي وأن الضابط "الخام" الذي حل مكانه قد قاسى كثيراً بسبب عدم ملائمة الطقس لصحته.

ووصل فيصل في اليوم التالي مع نوري السعيد وجميل المدفعي وبيساني. ووصل في عصر ذلك النهار نوري الشعلان مع طراد وخالد وفارس، ودرزي وخفاجي وعودة أبو تايه ومحمد الدحلان وفهد وأدهب وزعماء الذبن وابن باني أمير سرحان، وماجد بن سلطان زعيم قبيلة العدوان القريبة من السلط للوقوف على الحالة ولاستقاء المعلومات عن هجومنا المنتظر على عمان.

وفي ساعة متأخرة من النهار دوى الرصاص في الفضاء من جهة الشمال وعلمنا أن طلال خير الدين رفيقي القديم جاء ومعه 40 أو 50 من الفرسان من سكان القرى يسيرون وراءه وكان الدم يكاد يتدفق من وجهه ودلائل البشر للقائي بعد طول الانتظار تتجلى عليه.

وأقبل عدد كبير من الدروز والسوريين والنصارى والحوارنة فتضخمت جماعتنا وازداد عددها.

ورأينا أكياس الشعير ترد إلينا باستمرار وبكثرة.

وكان العرب جميعاً يشعرون بالقوة وقد شبعت بطونهم ولم يعد هناك أي مجال للتبرم أو الشكوى من شيء ولكنني كنت وحدي الشاكي فإن الازدحام حرمني من اللذة التي كنت أشعر بها من بقائي في الأزرق وكانت نفسي لا تحتمل البقاء وسط الازدحام الشديد فهربت إلى الوادي وتجولت حتى وصلت إلى عين الأسد ورقدت هناك طول النهار في عريني القديم بين الطرفاء. حيث كانت الريح تتلاعب بالأغصان الخضراء المتربة فتحدث صوتاً كالذي يسمعه من يقيم تحت

الاشجار فهمست في أذني أنك متعب قد أرهقت جسمك إلى حد الموت في سبيل العرب.

وكان طراد هو الذي يقود فرسان الرولا وكان يونج يسير وراء هؤلاء الفرسان في سيارة فورد.

وكنا في ذلك الحين نطل من فوق الآكام فخيل إلينا أنهم قد احتلوا السكة الحديدية دون أن يطلقوا رصاصة واحدة ولكننا لما أطلنا النظر شاهدنا فجأة نيراناً تضطرم وفرساننا الأبطال الذين كانوا يتجولون متباهين بقوتهم معتزين بالنصر الذي أحرزوه يختفون.

تقدم نوري السعيد وأخذ يطلق بعض طلقات فأقبل بدو الرولا وعلمنا أنه لم يقتل منهم سوى رجل واحد وأن العشرة أميال الممتدة من جنوب دمشق قد أصبحت تحت تصرفنا منذ الساعة التاسعة ويكفي أن يعلم القارئ أنه الخط الحديدي الوحيد لفلسطين والحجاز حتى يتصور مبلغ السرور الذي غمرنا وليدرك أن كل ما كنت أحلم به قد تحقق وكل ما كنت أردده على مسامع الجنرال اللنبي قد وقع فعلاً بمثل هذه السهولة وبمثل هذه السرعة.

واندفع العرب كالسيل من فوق الجبال، وتجمعوا حول رأس تل عرار وأصبح بإمكان جنودنا أن يروا درعا ومزاريب والغزالة بعيونهم المجردة ولكنني كنت أرى ما هو أبعد من هذا فكنت أنظر إلى جهة الشمال إلى دمشق الفاتنة، دمشق التي كانت القاعدة التركية، دمشق التي كانت الصلة الوحيدة بين سوريا واستنبول وألمانيا؛ كنت أرى أن هذه الصلة قد انقطعت وأن الخطوط الحديدية الواقعة في جهة الجنوب إلى عمان ومعان والمدينة قد قطعت، وأن ليمان فون ساندرز قد حوصر في الناصرة، وأن نابلس قد انقطعت عن المدن الأخرى.

نحن اليوم في السابع عشر من أيلول، ذلك اليوم الموعود، اي قبل هجوم اللنبي بقوته الكاملة بـ48 ساعة وسيضطر الأتراك في بحر هذه المدة إلى إدخال تعديل كبير على سياستهم لمقابلة هذا الخطر الجديد الذي يتهددهم ولكنهم لا يستطيعون إجراء أي تعديل قبل هجوم اللنبي.

وكانت تتوق نفسي لاقتلاع الخطوط الحديدية كلها في لحظة ولكنني وجدت أن الحالة قد هدأت، وأن الجيش قد قام بقسطه من العمل، وأن نوري السعيد قد ركب مدافعه حول متاريس عرار لصد كل هجوم من جهة درعا، والوقوف في وجه كل من تحدثه نفس بالخروج عن هذا الحصار وأخذت أسائل نفسي عن السر في انقطاع حركة التخريب، واقتلاع القضبان الحديدية. فلم تمض الساعة حتى كنا قد خرجنا أفواجاً لتأدية هذه المهمة الشيقة.

وأخذت أفحص درعا بمنظاري لأرى ما يخبئه لنا الأتراك في ذلك النهار فوقع نظري على شيء أقلقني فقد رأيت حركة غير عادية في المطار، شاهدت جماعات تسحب تسع طائرات.

وتقدمت جماعة صغيرة من المشاة وأخذت تطلق الرصاص علينا مع أننا نبعد عنها مسافة أربعة أميال والقطارات التي تصل غير مسلحة، وكانت دمشق نائمة في هدوء ونحن نؤمل اقتلاع ستة كيلومترات من القضبان الحديدية يتطلب إصلاحها أسبوعاً كاملاً.

واجتمعت بنوري السعيد، وجويس لتدبير خطة معينة للاستيلاء على اليرموك فإن الطيارات كانت لاتنقطع عن مراقبتنا وقذف القنابل علينا ونحن نسير في سهول جرداء لا ملجأ فيها.

وبينما كنا في حيرة من أمرنا حلت المشكلة على أهون سبب فإن الطيار

جونور كان وحده في الأزرق فلما سمع عن حوم الطيارات التركية حول درعا صمم على مقاتلتها فأنقذنا من مأزق حرج وجاء إلينا في وقت اسودت الدنيا في وجوهنا.

ومع أن طائرته من النوع العتيق فقد استطاع أن يدهش الأتراك.

حامت الطائرات التركية حول هذه الطائرة التي جاءت على غير انتظار ولكن طيارنا طار إلى جهة الغرب فحلقت الطيارات التركية مقتفية أثرة وانقذنا بهذه الوسيلة.

وجمع نوري 350 جندياً من النظاميين مع مدفعين من مدافع بيساني وأسرع بهذه القوة الصغيرة إلى ما وراء تل عرار وانطلق الفلاحون وراء الجنود النظاميين.

وجمعت حرسي بعد ساعة لنقصد مزاريب قبل غيرنا ولكننا سمعنا أزيز الطائرات من جديد ولشد ما كانت دهشتنا إذ رأينا جونور يعود إلينا حياً وقد أحدقت به ثلاث طائرات تركية.

وهبط طيارنا وقذف إلينا برسالة يقول فيها إنه استهلك كل ما يحمل من بنزين فأشرنا له بالنزول في مكان عيناه فنزل وجرح قليلاً. فقدم له جويس سيارة اتجه بها إلى مكان قريب من درعا ولكن الأتراك أطلقوا الرصاص عليه فنجا بأعجوبة أيضاً.

وكان رجالي ينتظرونني فوق التلال وكان جويس لا يزال مختفياً في تل عرار ومعه مائة من رجال نوري السعيد، ينتمون إلى قبيلة الرولا وبعض الشراكسة ومعه السيارات المسلحة بينما نحن اتجهنا صوب فلسطين.

وكان رجالي لا يفرقون في شيء عن البدو فصممت على السفر بسرعة إلى مزاريب متخذا أقرب الطرق وأقصرها لأننا تأخرنا كثيراً ولكن لسوء طالعنا رآنا

الأتراك فأقبلت طائرة وحامت حولنا وألقت القنابل علينا . وضاعت القنبلة الأولى والثانية والثالثة دون أن تؤذي أما الرابعة فسقطت في وسطنا فمزقت لحوم جملين ونجونا . أما البدويان فقد قفزا في الحال وركبا وراء صديقين من أصدقائهما .

وكنا نعرف الطرق التي نسير فيها معرفة جيدة لا يعوقنا سوى الفلاحين الذين يعترضوننا في الطريق لمحادثتنا فكنا نطلب منهم أن يلحقوا بنا إلى مزاريب .

جاء هؤلاء لمساعدتنا . مظهرين لنا كل إخلاص وولاء .

وكانت عيوننا قد اعتادت رؤية بدو الصحراء . أصحاب الأجسام السمراء الهزيلة النحيلة فلما وقع نظرنا على هؤلاء الشبان أصحاب الوجوه الموردة التي يتدفق الدم منها والشعر المجعد الطويل والأذرعة الممتلئة . والسيقان البدينة . خلنا أنفسنا أمام فتيات لا أمام فتيان رأيناهم وقد شمروا أثوابهم . إلى فوق الركب لئلا تعيقهم . وأبى الأشداء منهم إلا أن يجروا وراء جمالنا السريعة وسط الحقول .

ولما وصلنا إلى مزاريب أخذنا نروي ظمأنا ونسقي جمالنا . وكنا قد قضينا ذلك اليوم الحار بطوله دون أن نشرب .

وفجأة سمعنا حركة في المحطة وأخبرنا بعض أصحاب السيقان البيضاء بأن الأتراك احتلوا محطة سكة الحديد ومع هذا فقد وجدنا دافعاً يحفزنا للاقتراب من هذه المحطة .

وكان عبد الله هو الذي يقود الجماعة لأني صممت أن لا أخاطر بنفسي فوجد عبد الله ورجاله مقادير وفيرة من الحنطة والدقيق وبعض الأسلحة والخيول والحلي فأقبل البدو من كل حدب وصوب تجذبهم هذه الأسلاب وكان من بين هؤلاء السلابين طلال الذي جاء يركض ركضاً متواصلاً .

غيرنا المجرى وسرنا وسط الأعشاب البرية حتى وصلنا إلى المحطة التركية التي تبعد ثلاثمائة يارد .

وتقدم طلال في جرأة نادرة ومغامرة غريبة، كان الأتراك عن يمينه وعن يساره وهو يبتسم قائلاً "كل شيء طيب. كل شيء طيب. إنني أعرف ناظر المحطة معرفة شخصية!

ولم نتقدم أكثر من مائة ياردة حتى أطلقوا علينا ما يقرب من عشرين رصاصة فارتمينا حالاً على الأرض بين الأعشاب البرية ولم نصب بأي أذى.

وأقبل بقية رجالي عندما سمعوا هذه الطلقات فأمرتهم بالعودة لأني خشيت وجود مدفع في أبنية المحطة.

وأقبل نوري السعيد في الوقت المناسب مع ناصر وأخذنا نعالج هذه الأمور المضطربة كلها.

وذكر نوري أن لا ضرورة للبقاء في مزاريب إذ أن غرضنا الاصلي نسف الجسر.

وأطلق بيساني مدافعه فاستسلم الأتراك ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى 40 جندياً.

وتقدم نوري واستقبل هؤلاء الأسرى فأظهر في حسن معاملته لهم نبلاً وشهامة.

ولما سقطت هذه المحطة الغنية في أيدينا هجم عليها مئات الفلاحين من حوران ينهبون ويسلبون وكان الرجال والنساء والأطفال ينهشون كل ما يجدونه نهشاً ويتخاطفونه في جشع غريب حمل هؤلاء حتى الأبواب، والنوافذ بل والسلالم، لم يتركوا شيئاً يمكن أن يحمل إلا سلبوه ومع هذا فالأشياء التي تركوها وراءهم كثيرة ولكنهم لم يتركوها إلا بعد أن أتلفوها.

وأخذت أتلهى مع يونج بقطع أسلاك التلغراف وقد فعلنا هذا ببطء لنضاعف من كيدنا للألمان وعلى الأخص لنثير غضب ليمان فون ساندرز الذي كان يعيش في الناصرة كالأسير.

وبينما نحن نمرح ونلهو زارتنا طائرة لم يبال بها العرب الذين كانوا قد انصرفوا إلى تهشيم علب الأطعمة المحفوظة، وزجاجات الشراب المتنوعة وقد فعل العرب ذلك لارتيابهم بكل شيء.

وفتح بعض البدو علب اللحوم فكانوا يضطرون إلى رميها حالاً عندما يسمعون رفاقهم يصرخون في وجوههم أتأكلون لحوم الخنازير. شاهدتهم يبصقون ما في أفواههم ويقذفون بالعلب.

أما نوري فكان لا يبالي بهذه الأقاويل كلها فقد انصرف إلى حشو خرج جمله بكل ما وجده في طريقه.

وتركنا رجالنا يخبزون الخبز ويعدون لنا عشاءً فاخراً.

وانصرفت همتنا إلى الهجوم على جسر شهاب عند انسدال الظلام ولكن انهماك رجالنا في تحضير الطعام عاقنا كما زحف علينا جيش من الضيوف فإن النار التي أشعلناها كانت كإعلان لنا جعل نصف سكان حوران يتوافدون علينا.

وفي الواقع أننا صببنا كل ما معنا من بترول وأحرقنا كل ما معنا من وقود.

وارتمى رجالنا على العشب الأخضر الطري بجوار البحيرة يستمتعون بالراحة بعد أن وجدوا أن الغنيمة "محرزة" وتزيد القابلية للطعام.

أما الزوار الذين جاءوا إلينا فكانوا جواسيسنا الذين نرسلهم للمراقبة والتجسس فمن الضروري أن نزيد حفاوتنا نحوهم.

وأخذت على نفسي مقابلة كل واحد من هؤلاء الجواسيس ليفرغ ما في جعبته من الأخبار ثم عمدت إلى جمع هذه القصص كلها وفحصها لأقف منها على الحقيقة.

وكان هؤلاء الزوار يتوافدون من الشمال على خيولهم أو جمالهم أو أقدامهم. أقبلوا بالمئات. وقد بلغ الحماس فيهم مبلغه. جاءوا وهم يظنون أننا قد احتللنا البلاد احتلالاً نهائياً وان ناصراً سيختم انتصاراته بالاستيلاء على درعا في تلك الليلة بل إن الحكام والموظفين جاءوا إلينا ليسلمونا المدينة وليؤكدوا إخلاصهم لنا.

وأخيراً أقبل زائر شاب من تل شهاب، وكانت قريته في طريق الجسر ولا بد من المرور فيها. إذ كانت كمفتاح له فأخذ يصف لنا المكان ويتحدث عن العدد الكبير من الحراس الذين يحرسونه وكنا نشك في صحة أقوال هذا الشاب لأن والده كان قد قتل منذ أمد قريب وكان خصماً لنا لهذا لم نكن نطمئن لولاء ابنه الفجائي ومع هذا فقد حاول هذا الشاب أن يؤكد لنا إخلاصه بقوله إنه سيغيب ساعة واحدة ثم يعود مع الضابط الذي يقود الحامية وأن هذا الضابط هو أحد أصدقائه فتركناه ينصرف بسلام ليأتي إلينا بصديقه الضابط التركي وطلبنا من رجالنا أن يعودوا إلى الرقاد والاستمتاع بالراحة إلى أن تنقضي الساعة ويعود ذلك المغامر.

وقد صدق الشاب وعاد مع الكابتن (....) وهو أرمني يريد أن يلحق الأذى بالأتراك مهما كلفه الأمر.

وكان عصبياً إلى درجة لا تحتمل؛ قال إن القواد الذين معه من الموالين للأتراك وأنه وحده الناقم عليهم وأشار علينا بالانتقال إلى مكان قريب من القرية والرقاد هناك في مكان منزوٍ بينما يأتي معه ثلاثة أو أربعة من أشجع رجالنا ليختفوا في غرفته وإنه سيعمد إلى الحيلة فينادي على جنوده الأتراك واحداً واحداً ليأتوا لمقابلته وعندما يدخل الجندي التركي يكتفه هؤلاء الأربعة ويوثقون ذراعيه وكان عمله هذا مخاطرة كبيرة فوافقنا على اقتراحه فوراً وأظهرنا تأييدنا لهذه الفكرة الجهنمية.

جرى هذا الحديث في الساعة التاسعة. وفي الحادية عشرة تماماً كان علينا أن نختفي حول القرية وننتظر من الشيخ أن يصحب رجالنا الأقوياء إلى دار القائد الأرمني.

وخرج الأرمني مع الشيخ. وعلى وجه كل منهما ابتسامة الرضا بينما أخذنا نحن نوقظ رجالنا النائمين بجانب جمالهم المحملة وكان الظلام دامساً.

وملأت جيوبي مواد مفرقعة. وطلب ناصر من رجاله أن يعمدوا إلى الصمت وأن يغلقوا أفواه الجمال لئلا توقعنا في نكبة بهديرها.

وزحفنا في بطء وعناية وكنت أسير حافياً مع ناصر.

وسارت الجمال في هدوء كعادتها عند سيرها ليلاً وإذا براحل ينزل عن جمله بسرعة البرق ويفاجئني بمسك ذراعي ثم يشير إلى دخان أبيض يتصاعد في طبقات الجو من الوادي فأيقنت أن قطاراً قد وصل فطلبت من رجالنا الاختفاء خشية أن نكون قد وقعنا في مكيدة.

وكانت الليلة كثيرة الضباب فيبست عباءاتنا الصوفية وأخذنا نرتجف من شدة البرد.

وأقبل الشيخ يقول بأن خطته قد فشلت وأن القطار الذي وصل يحمل كولونيلاً ألمانياً وكل الألمان والأتراك الموجودين في "العفولة" وأن ليمان فون ساندرز هو الذي أرسل هؤلاء الجنود لإنقاذ درعا لعلمه بالاضطراب الذي وقع فيها وأن هؤلاء الجنود قد قبضوا على الضابط الأرمني لأنه تغيب عن مركز عمله وأن المدافع موجودة بوفرة والخفراء يظهرون نشاطاً خارقاً وأن في الطريق عدداً لا يحصى من الطلائع على مئة ياردة منا.

وأخذ يحدثني على هذا النحو : فلم أتمالك نفسي من الضحك ولكنني كنت طبعاً أضحك في هدوء وشر البلية كما يقول العرب ما يضحك.

أما نوري السعيد فصمم على استعمال القوة لتحقيق ما يريد وكانت قنابلنا كافية وأسلحتنا متوفرة ولكنني كنت أحرص كل الحرص على أن لا نشتبك مع الأتراك في القتال حفظاً لأرواح رجالنا واكتفينا بأن نتلهى بتعطيل الخط الحديدي وكان وصول حامية العفولة خدمة قيمة أسديناها للجنرال اللنبي فقد أرحناه منها.

وبعد حديث قصير مع نوري صرفنا الشيخ الذي بذل جهده في خدمتنا ولكن الظروف أبت إلا أن تعاكسه ثم طلبنا إلى رجالنا أن يتراجعوا في هدوء ليبتعدوا عن الخطر ولنقض ليلتنا في سلام وهدوء.

الفصل الرابع والعشرون

وصل "بيساني" قبيل الفجر مع المدافع، وجنود نوري باشا السعيد من تل "أعرار".

وكنا قد كتبنا لجويس أننا سنعود في اليوم التالي إلى جهة الجنوب لإتمام تطويق درعا واقترحت أن ينتقل مباشرة إلى "أم طائية" وينتظرنا هناك فكنا نرى أن هذا المكان هو خير مكان يصلح لتلاقينا، وجمع شتاتنا، نظراً لكثرة مياهه، ووفرة مراعيه ولأنه وسط بين درعا وجبل الدروز، وصحراء الرولا لهذا قررنا أن نحتشد فيه وننتظر ما يصيبه اللنبي من التوفيق.

وكان استيلاؤنا على أم طائية هذه بمثابة فصل الجيش التركي الرابع المرابط وراء الأردن.

وقد مكننا موقفنا من تحديد الخطوط الحديدية التي اقتلعناها وقد نجح الأتراك في إصلاحها وترميمها بعض الشيء.

وجمعنا قوانا بجهد وسرنا كأننا جماعة من الشاردين الذين يهيمون على وجوههم، ووجهتنا محطة مزريب.

وكانت الطائرات التركية تئز فوق رؤوسنا وتجد في البحث عنا لهذا رأينا أن نعيد من كان معنا من الفلاحين إلى قراهم وعن طريق مزريب.

وعاد الطيارون يروون أن الجنود الذين رأوهم من الكثرة إلى حد لا يتصوره العقل، وأن رجالنا لا يقلون عن ثمانية أو تسعة!

بلغتنا هذه الأخبار فأردنا أن نزيد في حيرتهم. ونبقيهم في ذهولهم غارقين فطلبنا من مدفعية الفرنسيين أن يدمروا صهاريج المياه التي في مزريب ويحدثون أقصى ما يمكنهم من الضجيج بعد مغادرتنا للمكان بساعات.

خرج الألمان في ذلك الحين من تل شهاب قاصدين درعا فهالهم الضجيج الذي سمعوه ولم يدروا سببه وحيث أن هؤلاء الجنود الألمان لم يدركوا مزاحنا هذا، ولم يألفوا مداعباتنا فقد خيل لهم أن الخطر عظيم وبقوا في مكانهم لا يتجاسرون على التقدم وكنا في خلال هذه المدة قد قطعنا شوطاً بعيداً لجهة نصيب وقد أنهكنا التعب فوصلنا إلى قمة الأكمة عند العصر وسرحنا الفرسان لينالوا قسطاً من الراحة بينما نحن نركز مدافعنا في أول مرتفع صادفناه، وبمكان مستور، وطلبنا من رجال المدفعية تصويبها على أبنية المحطة البعيدة عنا مقدار ميل.

ثم أخذنا نطلق النيران على الخنادق فقابلنا الأعداء بنار حامية دلت على مكابرة وعناد.

وتحصن جنودنا بمكان منيع. فإنه لم يكن في نيتنا أن نحتل هذه المحطة بل كان قصدنا الاستيلاء على الجسر العظيم الواقع في الجهة الشرقية.

وقد سبق وأقام الأتراك الاستحكامات لحماية الجسر وصيانته فوزعوا الجنود في القرية وجعلوهم يختفون وراء اسوارها.

وكلفت قسماً من حرسي الذهاب إلى مكان يبعد عن الاستحكامات مقدار رمية حجر وأن يأخذوا معهم كمية كبيرة من البارود والمواد المفرقعة وكانت ليلة لطيفة هجر الأتراك فيها استحكاماتهم فكانت لنا فرصة لنسف الجسر فوضعنا المفرقعات عند ركائز الجسر التي يبلغ سمكها نحو خمسة أقدام.

وكان موقفنا من الجهة الحربية حرجاً: إذ كان علينا أن نقيم مقابل أم طانية

حتى يتقدم اللنبي إلى الأمام وينجدنا : لهذا صممت على أن لا أبقي فيه حجراً على حجر.

وكان نوري باشا في غضون ذلك يستعجل الطوبجية ليصلوا تحت ستار الليل إلى الخط الحديدي وينتظروا هناك.

وبت انتظر إشارة من نوري باشا حتى إذا ما تلقيتها كانت الثمانمائة رطل من المواد المفرقعة قد انفجرت كلها دفعة واحدة.

وقد بلغ من عظم الانفجار أن خدرت كل أعصابي وكنت على بعد 20 ياردة منها.

ولما سمع نوري باشا هذا الدوي قلق عليّ خشية أن تكون قد نزلت بي بلية.

وكان رجال الحرس يتجولون فوق التلال مع طلال فوقفت مع نوري باشا بجانب الثغرة التي فتحتها المفرقعات والتي كانت يوماً ما جسراً.

وعند ذلك أعطينا الإشارات الكهربائية لرجال الحرس كي يوافونا وأطلقنا عدة طلقات.. ثم سرنا في الفضاء صوب "أم طائية" وقد بلغ الجهد والإعياء منا مبلغه فتوقفنا ورقدنا على الأرض لنستريح ولم يغمض لنا جفن لأننا شعرنا أننا قد فقدنا عادة النوم.

وكيف يمكننا الراحة والضيوف يأتوننا من كل صوب يتسقطون أخبارنا.

وقد راجت الإشاعات وقتئذ بأننا لا نكتفي بالاحتلال بل نعمد إلى السلب والنهب. وأننا بعد أن نظفر بما تصل إليه أيدينا نفر هاربين كما ولى الإنجليز هاربين من السلطة تاركين حلفاءهم العرب يدفعون الثمن عالياً.

وأخذ هؤلاء الزوار يعلنون ولاءهم لنا جهاراً ويؤكدون بأنهم خدامنا الأمناء الطائعين.

بيد أننا استقبلناهم استقبالاً جافاً خشناً لا عهد لنا بمثله مع غيرهم فعمدوا إلى الانتقام منا بأن حرمونا النوم وأجبرونا على البقاء ساهرين متنبهين.

وينبغي أن لا يغيب عن ذهن القارئ أنه سبق لنا البقاء ثلاثة أيام بلياليها دون أقل استراحة فكان لهذا الجهد العنيف الذي بذلناه أثره على أعصابنا. كنا قد أنهكنا قوانا في التفكير، وإعطاء الأوامر، وتنفيذها فعز علينا أن تضيع هذه الليلة الرابعة سدى، ونحرم من النوم في نظير جذب الرفاق، ومصادقتهم.

وأخذني الشريف ناصر ناحية واسرَّ إليَّ بأن القرويين يتذمرون ويشكون؛ فأطلقت حرسي بينهم ليختلطوا بهم وليأتوا إليّ بحقيقة الخبر فعادوا إلي يقولون إن سر شكوى الفلاحين هو خوفهم من عودة الأتراك فإذا اضطررنا لمحاربة هذا العدو فلابد من أن نلحقهم النكبات خصوصاً وقد راعهم أن وجدوا سيارات جويس المسلحة قد عادت أمس ثم جاءوا على حوادث صغيرة ضاعفت من هواجسهم وفي الحقيقة كانت كلها وليدة الصدف ولكن المخاوف هي التي جسمتها وضخمتها فتقدمت إليهم مع عزيز فرأيتهم يتباحثون في موضوع إرسال وفد منهم إلى الأتراك في طلب الرحمة والعفو، وقد هبطت مع رفيقي عليهم دون أن يحسوا بنا أو يلاحظونا فكان مجيئي وحيداً مع رجل واحدا مدعاة لخجلهم؛ إذ أيقنوا أني لولا ثقتي بهم ما غامرت بالمجيء وحيداً إليهم.

وقضينا ساعة كاملة نتحدث في شتى المواضيع في أثناء تناول القهوة ولم يشيروا بشيء إلى مسألة اتصالهم بالأتراك كأنهم لم يقدموا على الارتماء في أحضانهم صاغرين مستسلمين.

وبعد أن أيقنت أنهم قوم متقلبون مراوغون يلبسون لكل حالة لباساً وأن زيارتي القصيرة الفجائية قد أعادت الطمأنينة إليهم قمت أريد الانصراف. وما كدنا

نبتعد حتى سمعنا دوياً هائلاً فعرتنا رعشة إذ كنا مجردين من أقل وسائل الدفاع بينما أخذت القنابل تترامى وتنفجر قريبة منا .

وأخيراً تمكنا من الوصول إلى أم عطية سالمين وأبلغنا جويس أخبارنا والحقيقة أننا أثبتنا للأتراك أن الطائرات التركية ضعيفة فبإمكاننا مهاجمة درعا بالسيارات المسلحة.

ثم رقدت في ظل سيارة ونمت نوماً عميقاً بالرغم من الضجيج المستمر وبالرغم من تنقل الطائرات التركية حولنا .

لقد كان من الواجب أن أرتاح لأتمكن من اداء مهامي . وقد نمت من الصباح حتى العصر .

الفصل الخامس والعشرون

كانت مهمتنا من الوجهة الحربية أن نحتفظ بأم طائية فبها نستطيع أن نتحكم بدرعا وخطوطها الحديدية الثلاثة كما نشاء .

وكنا نقول في أنفسنا : إذا استطعنا أن نبقى أسبوعاً آخر نخنق الجيوش التركية خنقاً مهما كان الدور الذي يلعبه الجنرال اللنبي ضئيلاً زهيداً . ثم لا نلبث أن نعود فنقول بأن أم طائية من الأماكن الخطرة ونحن نعلم أننا أضعف قوة من الأتراك وليس ما يدخل الاطمئنان على قلوبنا المضطربة ومع هذا فكانت آمالنا معقودة على قوة الطيران ولكن ماذا يكون حظنا لو بقيت قوة الطيران تتمادى في إظهار عجزها؟

كان الأتراك يملكون تسع طائرات على الأقل ومعسكرنا على بعد اثني عشر ميلاً من المطار التركي في صحراء منبسطة . ليس فيها سوى ينبوع ماء واحد وحولنا قطعان كبيرة من الجمال والخيول .

وكان إطلاق الأتراك القنابل علينا لا يدع لنا أحداً من الجنود غير النظامين الذين كانوا عيوننا وآذاننا وكانت عودتهم إلى دورهم تفسد علينا كل أعمالنا كما أن قرية جائب وهي أول قرية احتمينا بها تفتقر الافتقار كله للتحصين .

لهذا كان واجبنا الأول أن نطلب من اللنبي تقوية استحكاماتنا الجوية وقد فعلنا فأرسل إلى الأزرق إحدى طائرات البريد .

وكان الجسر الواقع عند الكيلومتر 149 قد أصلح تقريباً فوجب أن نحطمه مجدداً ثم نحطم جسراً آخر في الجنوب لنمنع القطارات من الوصول إليه لإصلاحه .

واشرت على جويس أن يطلب من القوات المصرية والشركسية العودة إلى العقبة. وعرضت عليه أن يعيرني سيارة من السيارات المسلحة لأذهب معهم إلى أول محطة يصادفونها.

وقصدنا ناصر ونوري السعيد وأخبرناهما أني سأعود في اليوم الثاني والعشرين ومعي الطائرات التي تنقذنا من قنابل الأتراك.

قصدنا الوادي. وأخذنا نتجول ثلاث ساعات باحثين عن القبضان الجديدة فلا نجدها. وأخيراً شاهدنا نوراً فسرنا نحوه فوجدنا أنفسنا أمام "مفرق" فتراجعنا مسافة ميل وانطرحنا فنمنا ثلاث ساعات نوماً عميقاً قبل أن ينبثق نور الفجر. وقد استيقظت منتعشاً. واستطعت أن أعرف المكان الذي قضينا فيه ليلتنا وكانت هذه هي الليلة الخامسة التي أُحرم فيها من حصة النوم المعتادة.

ثم تقدمنا حتى وصلنا الأزرق عصر اليوم فالتقينا بفيصل ونوري الشعلان اللذين كانا يتلهفان لسماع اخبارنا ثم زرت مرشال في المستشفى الوقتي.

ووصل جويس على غير موعد فقد صمم أن ينتهز فترة السكون هذه فيقصد أبا اللسان لمساعدة زيد وجعفر المتقدمين نحو معان لمساعدة هورنبي وعرب بني صخر.

ثم وصلت طائرة من فلسطين وسمعنا لأول مرة أن الجنرال اللنبي قد انتصر انتصاراً باهراً وأنه سحق الأتراك سحقاً وأن اكتساحه لقواتهم كان فوق ما كنا نتصور بل فوق ما يمكن أن يصدق.

أيقنا أن وجه الحرب قد تبدل. وأن النحس الذي لازمنا طويلاً قد فارقنا دفعة واحدة.

وأسرعت إلى فيصل أبلغه هذا الخبر المفرح وأشير عليه بأن يعلن الثورة العامة. وأن ينتفع من هذا الموقف الذي وجدنا أنفسنا فيه.

وبعد ساعة واحدة كنت في طريقي إلى فلسطين على سيارة تابعة لقوة الطيران في الرملة فلما بلغت إلى القيادة العليا إذا بي أجد الجنرال اللنبي. هذا الرجل العظيم هادئاً لا يزدهي تيهاً للنصر الذي أحرزه بل أخذ يحدثني عن الظفر الجديد الذي يترقبه والنجاح الواسع المدى الذي ينتظره.

وكانت خطة اللنبي الحربية معقدة كل التعقيد، غامضة كل الغموض، ومع هذا فلم يكن هناك أي قائد مهما بلغ من تشدده في تطبيق الفنون الحربية على وجه الدقة إلا وقد شعر بسرور عظيم لقيام اللنبي بهذه الحملة الواسعة النطاق، وبإحراز هذا النجاح الذي يكاد يكون تاماً. ولكن نجاح اللنبي كان يرجع إلى ذكائه ومقدرته وصواب حكمه على الاشياء، أكثر مما يرجع إلى تطبيق الفنون الحربية التقليدية المنطبقة على العلوم.

وأخذ اللنبي يصف لي باختصار الحالة الحاضرة، وما ينوي القيام به في المستقبل. كانت فلسطين الخالدة ذات التاريخ القديم قد أصبحت في يده، وكان الأتراك يتقهقرون ويهربون بين التلال وهم ينتظرون أن يتراخى اللنبي في اللحاق بهم أو يتغاضى عن تتبع آثارهم ولكن شيئاً من هذا لم يقع فإن بارثلماوس وإيفانز كانا يتأهبان لمطاردتهم من ثلاث نواح.

الناحية الأولى، عن طريق الأردن إلى عمان، يقوم بهذه المطاردة جماعة من النيوزيلنديين وعلى رأسهم شاتيور.

والهجوم الثاني عن طريق الأردن إلى درعا، ويقوم بهذه الحملة بارو على رأس فرقة من الهنود.

والحملة الثالثة عن طريق الأردن إلى القنطرة يقوم بها شوفيل على رأس فرقة من الأستراليين.

وتم الاتفاق على أن يستريح شاتيور في عمان وأن يتجه بارو وشوفيل إلى جنوب دمشق وأن تنحصر مهمتنا في مساعدة هؤلاء الثلاثة وأن لا أتحدث عن الاستيلاء على دمشق. إذ كان يعد يومئذ من المستحيلات.

وأخذت اشرح للجنرال اللنبي آمالنا ومطامحنا، وأكشف له عن أغراضنا ومرامينا. وقلت له في عبارات صريحة إن مساعينا كلها قد تحطمت وذهبت هباء منثوراً وأن سر فشلنا إنما يرجع إلى عجز قوة الطيران عجزاً فاضحاً مزرياً فضغط في الحال على زر جرس ولم تمض دقائق قليلة حتى كان سالمون وبرتون يتحدثان معنا وكانا من الطيارين المشهورين الذين أدوا للجنرال اللنبي خدمات ساعدت على إنجاح خطته الحربية.

وإن قوة اللنبي إنما ترجع لمقدرته العجيبة على الانتفاع بكل شيء: المشاة من الجند. والفرسان المدفعية، البحرية، السيارات المسلحة، وسائل الاحتيال والخداع والتمويه، الجنود النظاميين: أجل، كان ينتفع بكل هذا على أتم وجه، وهذا هو سر نجاحه. وهذا موضع نبوغه.

نجح اللنبي ولكن الأتراك انهزموا من أمامه وجاءوا لمحاربتنا فأسرعت إليه شارحاً هذا الموقف الجديد فكان يسمع أقوالي ويصغي إليها باسماً وأخيراً سمعت سالمون يقول بأن الطائرات سترسل فوراً لإنقاذنا وهذه الطائرات هي التي جعلت التقهقر التركي يتحول إلى تبديد تام، وهزيمة شنيعة: هذه الطائرات هي التي دمرت المواصلات التلفونية والتلغرافية، وهي التي بعثرت جموع الجند وقد القت الطائرات تسعة أطنان من القنابل الصغيرة اليدوية وكان مجموع عدد الطلقات 50 ألف طلقة.

وبعد أن اختفى الدخان، وصفا الجو، رأينا أن الاستحكامات الحربية التي شيدها الأعداء قد ذابت وصهرت، وأن الجيش التركي المعتز بقوته وبما عنده من

مواد وذخيرة قد أصبح جماعات مبعثرة تتألف من أفراد دب الخوف فيهم فأجبرهم على الارتجاف وأقسرهم على الارتعاد. كنت تراهم يفرون وسط التلال الفسيحة المترامية يحاولون أن يجدوا مكاناً ينزوون فيه ضناً بأرواحهم المعرضة للخطر كما أنه لم يجسر أي قائد من قوادهم على جمعهم من جديد أو لمّ شملهم بعد ذلك الاندحار المخيف.

وأقبل مشاتنا صبيحة اليوم التالي فطفنا ذلك الوادي فإذا الصمت يسوده أكثر من أي وقت مضى وأنه إذا كان لم يعرف الهدوء في تاريخه الماضي فقد عرفه وقتذاك واستطعنا أن نغنم عدداً كبيراً من البنادق والمدافع و50 سيارة لوري وحوالي ألف عربة شحن كما أنهم تركوا لنا أمتعتهم مع كل ما يملكون.

وكانت الدار التي اختارها اللنبي لرئاسة الجيش أصلح ما يمكن فالهواء الرطب المنعش يتخللها وهي مدهونة بالدهان الأبيض الجميل ولم يكن بوسع الذباب أن يضايقنا في أثناء استمتاعنا بالساعات الهادئة التي كنا نقضيها فيها وكانت الرياح تهب على الأشجار القائمة حول الدار فتحدث صوتاً موسيقياً ينشرح له الصدر ويزيل الغم من القلوب.

وشعرت أنه ليس من الأمانة في شيء، وليس من الولاء في قليل أو كثير، أن أتمتع بأغطية الموائد البيضاء المكوية. وبشرب القهوة في أوقاتها ويقوم الجنود على خدمتي بينما رجالنا في أم طائية يرقدون كالحيوانات بين الأحجار لا يجدون أمامهم سوى الخبز الجاف ويقضون الوقت في ذعر وخوف من أن تأتي طائرة فتمطرهم بوابل من القنابل.

أجل، كان هذا من أكبر العوامل التي جعلتني لا أهنأ بما أتمتع به من حياة ناعمة مرفهة فأصبحت قلقاً مضطرباً لا يقر لي قرار بل أني بعدما قضيت مدة طويلة في

الصحراء فامتلكني سحرها وفتنني جمالها، بالرغم مما فيها من حصر وقيد، كنت أشعر بأن الزهور والرياحين، والأعشاب الخضرة النضرة إنما تزيد في قلقي وتململي وتهز أعصابي هزاً عنيفاً بدلاً من أن تهدئها.

وكانت صداقة كلايتون وديدز ودوناي من أكبر العوامل على انشراحي وكان شعور اللنبي، قائدنا العام بقوته، مما يدخل الاطمئنان إلى النفس، ويريح الرجل المتعب المنهوك.

وأخذ برثلماوس ينشر الخرائط أمامنا ويفيض في شرح الخطط الحربية التي ينوون تنفيذها. وأخذت أدلي أنا بمعلوماتي عن الأعداء؛ والحقيقة أنني كنت خير ضابط من ضباط الاستخبارات الذين يعملون معه بل كان يعدني أقدرهم واكثرهم كفاءة.

ولم يدع لي حديث برثلماوس أدنى شك في أننا منتصرون ومع هذا فإني كنت أعتقد أن في أيدي العرب أن يختاروا بين أمرين: إما أن يجعلوا هذا الظفر عادياً وإما أن يعرضوا معنا حياتهم للخطر في معركة جديدة فيجعلوها نصراً نهائياً حاسماً، كانت الأمور قد خرجت من أيدينا وانتقلت إلى أيدي العرب ولكن هؤلاء العرب كانوا يشعرون كما أشعر بأن قواهم البدنية قد أرهقت، وقواهم الروحية قد زهقت وكانوا بحكم فطرتهم يتهربون من المواقف الخطرة، ويتجنبونها كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

ووصلت طائرتان استراليتان قبيل الفجر يقود الأولى طياري القديم روس سمث وكانت طائرته هي الوحيدة من نوعها في كل مصر ويلقبونها "بؤبؤ عين سليمان" فكان استخدامه لها في حمل أمتعتنا وحوائجنا من أكبر الدلائل على حسن التفاته لشؤوننا واهتمامه بأمورنا.

ووصلنا إلى أم طائية بعد ساعة واحدة ووجدنا الجيش قد رحل إلى أم السراب فشاهدنا عدداً من السيارات التي تستخدم في الدفاع وكان العرب قد اختفوا عندما اقبلت طائرتنا ارتياباً. أما الجمال فكانت مشتتة في السهل تمرح كما تشاء.

ولما شاهد يونغ مقدمنا دلنا في الحال على المكان الذي نهبط فيه: وقاس روس سمث طول الفسحة التي تركت لنا وعرضها فأدرك في الحال عيوبها ونقائصها ولكن ماذا عساه يفعل؟

وأعلمنا يونغ أن الأتراك لم يهدأوا أمس واليوم الذي قبله بل أطلقوا القنابل فقضت على حياة عدد من الجنود النظاميين وبعض رجال المدفعية وأن الدنيا قد ضاقت في وجوههم فلم يجدوا بداً من الرحيل تحت ستار الظلام الدامس إلى أم السراب ولكن الطيارين الأتراك، البلهاء، كانوا لا يزالون يمطرون أم طائية بوابل من القنابل.

وسمعت عن ما فعله ونترتون وكيف تمكن من نسف جزء من السكة الحديدية وكيف التقى في طريقه بجندي لا يعرفه فأخذ يحادثه بلغة عربية ركيكة عن نجاحه في مهمته فأخذ الجندي يشكر الله ثم اختفى دون أن يحس به وبعد لحظة سمع الرصاص يدوي عن يمينه ويساره واستطاع أن ينسحب بشق النفس دون أن يلحقه أي أذى وإن كانت حياته معرضة للخطر. ولا أدري ما الذي أغراه بالتحدث عن أعماله إلى جندي لا يعرفه.

وأقبل الشريف ناصر فأخذ يحدثنا عن رفاقنا. فيقول هذا جرح، وذاك قتل. هذا أصابته عاهة مستديمة في جسمه، وهذه القبيلة على أتم استعداد للقتال، وتلك انضمت إلى الأتراك منذ أمد قريب، وثالثة غلب اليأس رجالها فعادت: نعم أقبل الشريف ناصر يحمل إلينا كل الإشاعات التي تتناقلها الألسن وكان حديثه شائق وممتع.

على أن وصول الطائرات الثلاثة الجدد، هذه الطائرات التي كانت تبرق بريقاً خاطفاً قد أعادت للعرب ثقتهم بأنفسهم وجددت قواهم، واذهبت عنهم اليأس.

وأخذت ابعث فيهم الآمال فأروي لهم بأسلوب خيالي قصة ظفر اللنبي الذي لا يكاد يصدق. قلت لهم في حماس:

استولينا على نابلس.... (هتاف).

استولينا على عفولة.... (هتاف).

استولينا على بيسان وسمخ.... وحيفا...

فسمعتهم يهتفون ويصرخون ثم هدأت الثورة التي أثرتها بحديثي المهيج هذا ورأيتهم يتقدمون ما تتقدم النار الملتهبة.

وأخذ طلال يطلق الأعيرة النارية في الهواء دون حساب متباهياً معتزاً، وأخذ عرب الرولا يصرخون بأعلى أصواتهم:

إلى دمشق... إلى دمشق.

وفي الحقيقة فإن حديثي المثير قد جعل موجة الغبطة تسري في أجسامهم جميعاً: لم أجد واحداً ممن كانوا يصغون لحديثي إلا وقد عرته رجفة حماس شديدة.

أجل، كانت هذه الأخبار المفرحة هي التي دفعت العرب ليصروا على المطالبة بحقوقهم، ويلحوا فيها إلحاحاً لا يعرفون فيه هوادة ولا ليناً.

أجل، هذه الأخبار هي التي أعادت الثقة إلينا فسرت في المعسكر كله ولا أرى سوى وجوه باسمة مشرقة وأصوات مجلجلة عالية تدل على مبلغ ما يشعر العرب به من السرور.

وصممت على الوقوف مع الشريف فيصل والأمير نوري الشعلان إلى النهاية وكنت على أكثر من اليقين بأن الأمير فيصل هو الذي سيحقق لنا النصر المبين.

وانصرفنا إلى تناول طعام الفطور على الأرض ونحن على تمام الاستعداد لالتهام كل ما يعرض علينا والحقيقة أننا كنا لا نحتاج إلى ما يزيدنا قابلية للطعام ولكننا لم نكد نضع شيئاً في أفواهنا حتى سمعنا أصواتاً تدوي:

طيارة.. طيارة.. فقمنا مذعورين وشاهدنا طائرة مقبلة من ناحية درعا.

ولكننا أدركنا فوراً أنها طائرة من طائراتنا الأسترالية فعدنا إلى الزاد فأكلنا وشربنا الشاي، وهذا كان آخر ما معنا من المؤونة الإنكليزية.

على أننا ما كدنا نلمس شيئاً مما معنا من عنب جبل الدروز الشهي حتى شاهدنا الحارس يطرح عباءته في انفعال ويصرخ بصوت فيه كل دلائل الذعر:

طيارة.. طيارة، كان بيتر قد وصل أولاً ثم روس سمث من بعده وهما يلاحقان طائرة تركية حتى تل أعرار.

أما روس سمث فكان يرغب في البقاء في هذه الجبهة العربية وقد كان يقول بأنه يلذ له أن يقوم بهذه المداعبات فيبدأ كل نصف ساعة بحركة جديدة لمهاجمة الأتراك أو لتخويفهم ولكنه من الناحية الأخرى كان مضطراً للعودة ليحمل البترول والطعام والذخيرة.

وحملتنا الطائرة الخاصة بالأزرق لزيارة الأمير فيصل.

وشعرت منذ ذلك الحين بأن الدنيا قد أصبحت للأشخاص الذين يبرعون في الطيران، هؤلاء الذين يجدون الفضاء متسعاً رحباً.

عدت إلى الأزرق بعد أن تغيبت عنه 30 ساعة ولم تكن عودتي إلا لاستئناف أعمال التخريب في الشمال.

وركبت مع فيصل ونوري الشعلان سيارة فوكسهول لزيارة أم السراب وكانت تجري بنا بسرعة فوق الصخور الصوانية الناعمة: كانت من السيارات القوية وكأن الحظ أبى إلا أن يعاندنا فجاءنا من يوقفنا ويبلغنا بأن نزاعاً خطيراً وقع بين رجالنا وأنه لا بد من الذهاب لفضه قبل أن يستفحل شره فقصدنا تلك الخيام وأمرنا من فيها من الرجال بالسير إلى أم طائية في الحال. وطلبنا منهم أن يخبروا البدو المقيمين فوق تلال عجلون بأن الطرق ستسد في وجوههم ووجوه الجنود الأتراك عندما تحاول أن تلوذ بالفرار فلا تجد سبيلاً إلينا.

وبعد أن انتهينا من مهمتنا هذه على خير وجه سارت بنا السيارة إلى جهة الشمال وهي تنهب الأرض نهباً وتبرق بريقاً خاطفاً للأبصار.

وقبل أن تصل إلى أم السراب بنحو 20 ميلاً أبصرنا بدوياً يجري إلى جهة الجنوب وهو مضطرب في حالة يرثى لها. كان شعره الشائب يطيره الريح وكانت لحيته البيضاء الطويلة تتلاعب بها الرياح. أما رداؤه فقد انتفخ وراءه حتى اصبح كالبلون الصغير فلما شاهدناه رفع ذراعه التي كانت عبارة عن عظام مجردة من اللحم وزعق زعقة قوية قائلاً:

ألا ترون أكبر طيارة في العالم.

ثم واصل ركضه ليذيع هذا الخبر بين أفراد قبيلته.

ومن هذا تستطيع أن تتصور إلى أي حد كانت تؤثر الطائرات في نفوس البدو.

أما أم السراب فكانت في الحقيقة تمتاز بمناظرها المهيبة الفخمة وبالمراعي النضرة التي كانت تكتنفها فتزيدها فتنة.

وقبل أن يقبل الليل كانت الإشاعات من مصادر فيصل قد ذاعت مضخمة وانتشرت مهولة في كل جبل الدروز، وفي غور حوران، ولا تدع أحداً يرتاب في أن

النصر قد أصبح في جانب الإنجليز، وأن لا موضع للريبة بعد أن انجلت الأمور إلى هذا الحد.

وأقبل بورتون نفسه في تلك الطائرة الضخمة ليقدم لنا ما يمكنه من المساعدة فأخذنا نحادثه بينما كان رجالنا يخرجون منها طناً من البترول ومقادير كبيرة من الزيوت، وقطع السيارات والشاي والسكر وما إلى ذلك من الجرابة العسكرية وكوماً من الخطابات وبرقيات روتر والأدوية.

ثم تركتنا الطائرة العظيمة عند الغسق قاصدة الرملة بعد أن تم الاتفاق على إلقاء القنابل ليلاً على درعا ومفرق ليقضى تماماً على حركة الشحن بالسكة الحديدية، ولينهوا الأعمال التي كنا قد بدأناها.

وضم فيصل إلينا رجال الرولا.

وكان من المنتظر أن يزداد عددنا فنصبح حوالي الأربعة آلاف رجل من الاشداء، ثلاثة أرباعهم من المقاتلين اللانظاميين ولكن من الممكن الوثوق بهم والاعتماد عليهم وذلك لأن نوري ذلك الكهل الصلب العسر الذي اشتهر بالصمت والسكون والميل إلى الهجو والتهكم كان رجاله في يده كالآلة يحركها كما يشاء ويستخدمها كما يريد.

وفي الحقيقة أن نوري هذا كان من الرجال النادرين في الصحراء هو تحفة من التحف القليلة، هو رجل لا يريد الجدال، ولا يحب النقاش فإما أن يقبل الشيء وإما أن يرفضه لا يعرف حداً وسطاً بين القبول أو الرفض؛ كان ينتظر الناس حتى يفرغوا من أحاديثهم ثم يعلن إرادته ويبدي رأيه في عبارات قليلة باتة قطعية وينتظر في هدوء قبولها والنزول عند إرادته ومشيئته وكان الناس يطيعونه ويلبون أوامره لا لأنهم يرونها صائبة حكيمة بل بالأحرى لأنهم يخشونه ويخافون منه.

وإذا أردنا أن نصف هذا الرجل في كلمات قليلة فلا نجد أصدق من أن نقول عنه: كهل حكيم، والكهل الحكيم في بلاد العرب لا بد أن يكون منهوكاً يائساً ولكن الذي كان يدعو لعجبنا حقاً وذهولنا هو كيف أحكم صلاته بنا وكيف صبر على حماسنا المتقدم الذي كان لا يتفق مع هدوئه ورصانته.

الفصل السادس والعشرون

وبقيت في خيمة الشريف ناصر مع زواره القرويين الذين يحملون الأخبار على أنواعها وأشكالها وكانت معظمها من مبتكراتهم الخاصة. وتدل دلالة أكيدة على فطنتهم وحذقهم. كما تدل على اهتمامهم وشغفهم بالقضية العربية.

وخرجنا في السيارات المسلحة. ومعنا قوة كبيرة في زيارة علنية للخط الحديدي. والحقيقة أننا كنا قد سئمنا معيشة التكتم هذه. وتاقت نفوسنا لأن نعمل علانية وجهاراً فأتلفنا كيلومتراً من القضبان الحديدية. وأحرقنا البناء الخشبي الذي كان قد أقامه الأتراك مؤقتاً بسبب تدميري مع جويس للجسر قبل هجومنا الأول على درعا.

وكان نوري الشعلان يرتدي في ذلك اليوم عباءة سوداء واسعة. ويقود بنفسه فرسان الرولا الأشداء.

وكانت حركات نوري باشا العسكرية هي القاضية على الأتراك قضاء نهائياً فبعد تلك الحملة الأخيرة التي حملها لم يحاولوا مطلقاً استرداد الخط بين عمان ودرعا.

وخرجت ومع ونترتون وجميل في السيارات لنفحص الخط جنوب محطة المفرق فاستقبلنا استقبالاً حماسياً لا عهد لنا بمثله فكانوا يمطروننا بوابل من الرصاص يصوبونه إلينا في نشاط وحمية وفي شدة وعزم والحقيقة أننا حاولنا أن

نرى المكان الذي كان ينهال الرصاص منه علينا فلم ننجح كما أن هذه الحدة التي كانت تبدو من المقاتلين لم يكن لنا عهد بها أو اختبار: كانت حملة قاسية يراد بها إهلاكنا والقضاء علينا.

ولكننا استطعنا فيما بعد أن نلقي القبض على جماعة من الألمان الذين برعوا في إطلاق الرصاص براعة هائلة.

وقبل أن نقبض على هؤلاء الألمان سرنا في طريقنا تتملكنا الحيرة ويغلبنا الارتباك حتى وصلنا إلى الجسر الذي كان يجذبنا بقوة. الجسر الذي عرض حياتنا للهلاك. ولكن التجربة كانت أقوى من أن نحتملها فلم نبال بالموت.

وتركت السيارة وركبت سيارة أخرى مسلحة ووضعت 60 رطلاً من المفرقعات كانت كافية لأن تنسف الجسر نسفاً ولا تبقي فيه حجراً على حجر.

ووصلنا إلى أم السراب فوجدنا أن الشريف ناصر يريد أن تنصب الخيام من جديد في أم طائية وهي أول مرحلة في طريقنا إلى دمشق فابتهجت كثيراً.

وكنا ننوي أن نقضي ليلتنا في أعمال التخريب ولكننا جلسنا نتسامر. ونقص القصص. ونسرد الحكايات إلى أن انتصف الليل وهذه الذكريات لا تنتهي. وكنا مع هذا كله نعلم أن هندلي بيج سيلقي القنابل على محطة مفرق ولكننا لم نبال في تلك الليلة بسوى لذة السماع. ولذة الحديث.

ونفذ هندلي. ما أرد فكان يقذف القنبلة وراء القنبلة على الخطوط الحديدية إلى أن هدمت قوى الأتراك وخارت. فاستسلموا!.

وراجت الإشاعات بأن الجيش الرابع يتدفق من عمان. تسوده الفوضى.

وعقدنا مجلساً للمداولة في هذه الأمور الطارئة وكان عملنا في مقاومة الجيش

الرابع قد انتهى فإن البقايا التركية التي أفلتت من أيدي العرب وصلت إلى درعا كجماعة من الشاردين عُزل من السلاح لا تقوى على قتال.

وكانت خطتنا الجديدة هي أن نجبر الأتراك على التخلي عن درعا سريعاً حتى نمنعهم عن جمع شتات الهاربين والشاردين ولم شمل الفارين الآبقين فاقترحت أن نسير شمالاً فنعبر "تل عرار" ونصل فجر اليوم التالي إلى الخط الحديدي ومن هناك إلى قرية الشيخ سعد، وقرية الشيخ سعد هذه تمتاز بوفرة مياهها، وبجمال مشاهدها وبأنها من الأماكن التي تصلح للكر والفر غرباً أو شمالاً.

وأيد طلال أقوالي هذه بحمية وحرارة.

أما نوري الشعلان فقد أكتفى بإحناء رأسه دلالة على الموافقة وكذلك نوري السعيد.

وعلى هذا تأهبنا لنضرب خيامنا في ذلك المكان ولم يكن في وسعنا أن نجلب معنا السيارات المسلحة؛ إذ كان الأفضل أن نبقيها في الأزرق إلى أن تسقط درعا وكنا في حاجة إلى الاستعانة بها عند دخولنا دمشق، كما أن الطائرات الإنجليزية كانت قد قامت بحصتها من العمل فطهرت الجو من الطائرات التركية ثم عادت إلى فلسطين لتحمل أخبار انتقالنا إلى قرية الشيخ سعد.

وشاهدنا الدخان يتصاعد في بطء من محطة مفرق التي احترقت واصبحت أطلالاً.

وأقبلت طائرة وأسقطت ورقة عليها سطور رديئة الخط وقد استطعنا أن نفهم منها أن قوة كبيرة من الجنود الأتراك المشاة على وشك مهاجمتنا وهي تسير قرب الخط الحديدي.

والحقيقة أن هذه الأخبار كانت من النوع المقلق مما لا نريد سماعه فإننا لم نكن في حالة تمكننا من القتال.

كانت السيارات المسلحة الطائرات قد عادت.. وكذلك عاد معظم الفرسان والجنود.

وقصدت نوري السعيد الذي كان واقفاً مع ناصر على كومة من الرمال فوق رأس التل، وأخذنا نتباحث ونحن في الحقيقة لا ندري: هل نستسلم للهرب أم نبقى في مكاننا ونترك الأمور للمقادير وقعنا في حيرة عظيمة وبلغ التردد منا مبلغه، وأخيراً رأينا أنه خير لنا أن نطلق سيقاننا للريح فنهرب قبل أن يقضى علينا.

وكان يظهر لنا أن خطة الهروب هذه أحكم ألف مرة من التظاهر بالشجاعة في موقف حرج كهذا. لهذا أمرنا الجنود بالهرب ولكن الأمور لم تكن من السهولة بحيث تنتهي على هذا الوجه: فطلال وفرسان الرولا، وفرسان حوران أرادوا مداعبة هؤلاء الأتراك وإعاقتهم عن اللحاق بنا.

وبينما هم يفكرون في الإقدام على هذه المخاطرة الجهنمية علمنا أن هؤلاء الأتراك لم يكونوا من الجند النظاميين كما كنا نظن، وإنما هم فلول معبثرة ضلت الطريق وتريد اللحاق برفاقها.

واسرنا هذه الفلول التي تعد بالمئات وكان العطش قد أضنى أولئك المساكين، واستولينا على كل ما كان معهم بعد أن ألقينا في قلوبهم الروع والاضطراب.

كان الجنود يلقون كل ما بأيديهم قبل أن نقترب منهم حتى بنادقهم ويجرون خائفين صوب درعا وهم يتوهمون أنهم سيجدون فيها أماناً ونجاة.

ومع هذا فإن التوقف قد عاقنا وكنا نخشى الوقوع في أيدي الأتراك ولهذا كنا

نعمد على الدوام إلى إرسال جماعة من المشاة من أهل البلاد تؤكد للقرى التي نمر ليلاً بها أننا لسنا أتراكاً.

وكان طلال، وناصر، ونوري الشعلان، قد تأخروا عنا فوقفنا ننتظرهم، وكان الظلام دامساً، فأخذوا يطلقون الرصاص علينا وانضمت جماعتهم إلى جماعتنا وسارت هذه القوة المشتركة إلى جهة الشمال وسط القرى المحروثة في عناية. هذه القرى الآمنة التي كان أهلها يستمتعون بلذة العيش الهادئ، وقد جمعوا غلالهم والقش قد نما ونضج.

ورأينا بعض الفلاحات العربيات يمتطين الحمير في طريقهن إلى الآبار للاستقاء فلما شاهدننا أخذن يصرخن في وجوهنا بأن طائرة قد هبطت منذ أمد قريب بالقرب من مكاننا فأسرع "بيك" فوجد حقيقة أن طائرة قد وصلت قادمة من درعا بعد أن أصيبت في محركها وفيها طياران أستراليان وقد تملكهما السرور الممزوج بالدهشة من وجودنا في ذلك المكان.

وبعد أن تعاونا جميعاً على إصلاح الخلل الذي حصل في الطائرة طلبنا من النساء أن يقدمن لها ما تحتاج إليه من الماء وعادت إلى درعا سالمة.

وكانت لا تمر لحظة دون أن ينضم إلينا عدد جديد من الرفاق والأنصار؛ كانوا يتركون قراهم ويهرعون إلينا على أقدامهم للانضمام إلى جيشنا وكان السواد الأكبر منهم من الشبان المغامرين المقتحمين.

ووصلنا ظهراً إلى حقل زرع بطيخ أخضر فلم تكد عيون الجنود تقع على هذا البطيخ حتى هاجموه وكانوا يأكلون بشهية غريبة ويقولن إنهم "يتجسسون" على الخط الحديدي والحقيقة أنهم كانوا لا يبالون بالموت وكانوا عرضة للسقوط في أيدي الأتراك كل لحظة ولكن الخوف كان قد زال من قلوبهم ولا يهمهم سوى أن

يملأوا بطونهم من البطيخ وهم يتطلعون في الوقت ذاته إلى الخط الحديدي الراقد في هدوء يلمع في ضوء الشمس.

وقصدت نوري الشعلان، وعودة، وطلال، وطلبت منهم أن ينتفعوا من القرى المحيطة بنا ويضموا رجالها إلينا.

أما طلال ذلك الشاب الذي يتقد حماساً ونشاطاً فقد وعد بمهاجمة أذرع، مستودع الغلال في الشمال.

واختار عودة الذهاب إلى قرية الغزالة وهي من المحطات الواقعة جهة الجنوب.

وفضل نوري أن يكتسح الخط الأساسي مع رجاله من جهة درعا وكانت هذه كلها اقتراحات طيبة تدل على جرأة عظيمة وميل للمخاطرة، كما تدل على ذكاء وفطنة.

وقام الزعماء الثلاثة بتنفيذ هذه الخطط وحاولنا نحن إعادة تنظيم فرقنا ورجالنا والسير فيما بعد في الطريق التي خلف قرية الشيخ مسكين المتهدمة في ضوء القمر فكانت برك المياه التي صادفناها تربك جنودنا الذين كانوا قد أصبحوا يعدون بالآلاف وعلى هذا توقفنا حتى ينبثق الفجر وقد نام أكثر رجالنا على الأرض.

وكان القمر قد غاب وانتشر الظلام وكان البرد قارساً إلى أقصى حد.

وأخذت أحث حرسي فتمكنا من دخول قرية الشيخ سعد عند الفجر.

وعندما مررنا بين الصخور خلف الأشجار شاهدنا وقت طلوع الشمس دلائل الحياة ظاهرة جلية.

وخرج كثير من البدو من خيامهم ينادوننا لننزل ضيوفاً عليهم وعادت الجماعات التي صرفت الليل في أعمال النهب تحمل الشيء الكثير من الأسلاب.

وكان عبد القادر الجزائري قد احتل أذرع ولكنه أظهر ضعفاً ووهناً وقد بقي محتلاً لها مع خدمه وحشمه، ومع المتطوعين الذين قدموا أنفسهم إليه من تلقاء أنفسهم وجنوده.

ولكن لما جاء طلال انضم المتطوعين إليه، وهرب الجنود. وكان عدد حشمه ضئيلاً فاضطر لهجر المكان دون قتال.

أما رجالنا فكانت الغنائم قد أثقلتهم فلم يعد بوسعهم أن يلحقوا أو يفكروا في اللحاق به.

واقبل عودة يتباهى ويتفاخر فكان قد استولى على قرية الغزالة عنوة واقتداراً، ونهب أحد القطارات المتروكة. فوجد كميات كبيرة من البنادق ووقع في يده مائتا أسير بينهم بعض الألمان.

وعاد نوري الشعلان يبلغنا بأنه قد أسر أربعمائة أسير، واستولى على عدد من البغال والمدافع.

أما الجنود الأتراك إجمالاً فقد هربوا إلى القرى القاصية وأقاموا فيها ليضمنوا سلامة أرواحهم وما يقتاتون به.

وأخذت طائرة إنجليزية تحوم فوق رؤوسنا وهي لا تدري إذا كانت حقيقة القوة العربية أم لا.

وفي الحال أخذ بونغ يلوح لها لتنزل فدنت منا وأسقطت لنا رسالة وقفنا منها على خبر استسلام بلغاريا للحلفاء، ولم نكن قد علمنا قبل الآن بوقوع اي هجوم في البلقان لهذا لم يكن لهذا الخبر أية قيمة في نظرنا.

ولم يكن هناك أدنى شك في قرب نهاية الحرب العالمية وانتهاء حربنا أيضاً.

وأخذنا نترقب هذه النهاية، وننتظر إعلان الصلح، وتجمعت فرق الجيش كلها واحتشدت في الأدغال واكتظت. فإن كل فصيلة قد انتخبت أفضل مكان خالٍ سواء كان بجوار أشجار التين أو تحت أشجار النخيل أو الزيتون التي كانت غاصة بالطيور فطارت وهي تصرخ في خوف وذعر.

أما رجالنا فقد ساقوا حيواناتهم إلى جدول المياه الذي كان يسير متعرجاً بين الأشجار النضرة والزهور وبساتين الفاكهة هذه الأشياء التي كانت تبدو غريبة في نظرنا بعد أن قضينا السنين في التجوال في الصحراء المملوءة بالصوان القاسي، والرمال التي لا تحدها العيون.

وأقبل سكان قرية الشيخ سعد يشاهدون جيش فيصل ودلائل الحياة بادية على وجوههم، جيش فيصل الذي كانوا يرونه شيئاً خرافياً اشبه بالأساطير. والذي كانوا يسمعون عنه عن طريق الأقوال المنقولة بالتواتر، جيش فيصل هذا قد أصبح الآن في قريتهم يقوده رجال لهم شهرتهم البعيدة، وصيتهم الذي ذاع وهم طلال، وناصر، ونوري، وعودة، هذه الاسماء المخيفة الهائلة، التي كانت تملأ نفوس البدو رهبة.

وأخذت أتطلع إلى هؤلاء القرويين وأحسدهم على حياتهم البسيطة الهادئة.

ولشد ما كان استغرابنا إذ شاهدنا ونحن فوق التلال جماعة من الجنود النظاميين في ثيابهم الرسمية من أتراك ونمسويين وألمان مع ثمانية مدافع محملة على البغال كانت تسير في مشقة وعناء صوب دمشق بعد أن هزمها اللنبي فأصبحت يائسة قانطة كانت تسير في بطء على اعتقاد أنها لا تبعد 50 ميلاً عن أي ساحة من ساحات القتال.

وكانت جيوشنا في حالة التعب والنصب فلم نفعل شيئاً ولكن درزي وخفاجي

وبعض أفراد العائلة امتطوا خيولهم في سكون وهدوء، وانقضوا عليهم. أما الضباط فقد أظهروا التمرد فقُتلوا فوراً، وأما الجنود فأبقوا على أرواحهم بأن طرحوا أسلحتهم على الأرض ولم تمض خمس دقائق حتى كانوا قد سلبوا، وأمروا بالسير بنظام إلى حديقة اتخذناها سجناً مؤقتاً لأسرانا ويا له من سجن جميل.

وفي الحقيقة أن الأيام التي قضيناها في قرية الشيخ سعد كانت سعداً علينا فالغنائم التي غنمناها فوق ما كنا نحلم.

وشهدنا بغتة ثلاثة أو أربعة أكوام سوداء تتحرك إلى جهة الشمال وخيل إلينا أن ثلاثة جماعات من الأعداء قد أفلتت منا فأطلقنا عليهم بعض عرب الحويطات فعادوا بعد ساعة يضحكون ملء أفواههم وكل منهم يقود بغلاً أو كديشاً وما إلى ذلك من الحيوانات المنهوكة المجروحة، من بقايا الجيش المهزوم، وكان أصحاب هذه الحيوانات البائسة بعض الجنود العزل من السلاح الذين كانوا يهربون من الأنجليز.

أما عرب الحويطات فقد زدروا بهم إلى درجة أن أبوا أن يأخذوهم أسرى.

وابتسم رحال ابتسامة تشف عن تهكم مر وقال في سخرية.

لقد تركنا هؤلاء إلى أولاد القرى وبناتها ليكونوا لهم عبيداً.

وجاءتنا الأخبار أن جماعات تركية تهرب إلى القرى من هجمات سوفيل فأرسلنا بعض الفرق المسلحة من القرويين الذين انضموا إلينا في قرية الشيخ مسكين.

وتضخم عددنا فأصبحنا حوالي 60 ألفاً من الجنود المسلحين.

ورأينا دخاناً كثيفاً يتصاعد من فوق التل المطل على درعا.

وأقبل رجل يخبر طلال بأن الألمان قد أشعلوا النيران في الطائرات، وفي مستودعات المؤونة والذخيرة، وإنهم على تمام الأهبة لإخلاء المدينة والجلاء عنها.

وأقبلت طائرة إنجليزية ورمت لنا رسالة بأن جيوش "بارو" قد اصبحت قريبة من الرمثا وأن فصيلين من الفصائل التركية، الأولى مؤلفة من أربعة الاف مقاتل. والثانية من ألفين قد ارتدتا قاصديتن إلى درعا ومزريب على التوالي لمقابلتنا وجهاً لوجه.

وكان يبدو لي أن هؤلاء الستة آلاف هم كل من تبقى من الجيش الرابع. ومن درعا ومن الجيش السابع، وإننا إذا قضينا عليهم نكون قد حققنا هدفنا ولكننا لم نرسل إليهم سوى خالد على رأس قبيلة الرولا، وعدد من القرويين الشماليين لمضايقتهم ونهب الجناحين الميمنة والميسرة وسلب مؤخرة الجيش.

وقاتل العرب مستبسلين وكان العرق يتصبب بغزارة من وجوههم والتراب قد سفع حناجرهم وجففها. وشهوة الانتقام تحرقهم.

وقد قلت لهم بأننا لسنا في حاجة إلى أسرى. وهذه كانت المرة الوحيدة التي لا تفكر في الأسرى ولم يأت الغروب حتى كان الذعر قد استولى على الجيش كله.

وأقبل القرويون من كل الجهات وكل خمس أو ستة بسلاح واحد، ثم تمكنا بعد قليل من سلب الأعداء سيوفهم، وبنادقهم، وآلات القتال التي يحملونها.

وبعد ساعة أخرى كان القرويون الذين يسيرون على أقدامهم قد وجدوا حميراً يركبونها بدلاً من المشي.

وبعد قليل تركوا هذه الحمير إذ وجدوا خيولاً وكميات كبيرة من البنادق.

ولم يقبل الليل حتى كانت هذه الخيول تنوء بما تحمل من غنائم وأسلاب.

وكان هذا السهل الغني قد تغطى بجثث القتلى من الرجال والدواب.

أما طلال فقد أظهر أنه زعيم من أقدر الزعماء وأبرزهم وأنه فارس جميل جبار ورفيق بشوش مجامل بل زميل رائع.

وحاول الأعداء التوقف عن القتال عند الغروب ولكن خالد وجماعته أبوا إلا أن يجبروهم على مواصلة القتال، وأن يقسروهم عليه فقاتل منهم من قاتل وبقي بعضهم دون قتال إذ كان التعب قد غلبهم على أمرهم فارتموا على الأرض وناموا وهم لا يبالون بما يجري حولهم.

وكان الجيش التركي قد اختل نظامه وسادت الفوضى فيه واستحكمت كما أن العرب كانوا مبعثرين، مشتتين على نقيض الفرق الألمانية التي ظلت للحظة الأخيرة محافظة على نظامها بدرجة تدعو لإعجابنا بالرغم من بغضنا لها ونقمتنا عليها.

أجل، لقد كان الألمان يبعدون عن وطنهم أكثر من ألفي ميل وكان لا أمل لهم في النصر. وكانت حالتهم من التضعضع تسحق أقوى الأعصاب. ومع هذا فلم يستسلموا ولم يخوروا..

كانت الفرق الألمانية متماسكة متحدة ولما هجامناها توقفت وردت نيراننا بأحمى وأشد منها ولم يظهر على الجنود الألمان أي دليل من دلائل الخوف.

ولم يقعوا في خطأ العجلة والسرعة أو التردد ولم يستسلموا للصراخ والهرب: كان سكوتهم مجيداً حقاً.

وعند الغسق راجت إشاعة بأن درعا قد أصبحت خاوية، وأن طراد شقيق خالد قد أمتطى فرسه وقصد تلك المدينة ليقف على الحالة بنفسه وكنت أخشى أن يلحقه أذى. فإن الأتراك كانوا لا يزالون في ذلك المكان يحاولون الاحتفاظ به؛ كانوا يكافحون لصيانة الخط الحديدي وتلال إربد.

وطلبت من خالد أن يسرع لمساعدة شقيقه فلم تمض ساعة حتى كان قد جمع مئات من الفرسان والجمالة وسار إلى درعا فوجد أن طراد لا يزال بخير. واشترك الشقيقان مع عرب الرولا في نهب المستودعات التي كانت تحترق معرضين أرواحهم

للخطر ولكنهم كانوا يتوهمون الموت مستحيلاً ومع هذا كانوا يسقطون بالعشرات وكانت جثثهم تتناثر ذات اليمين وذات اليسار.

وكانوا يرون أن حياة أعدائهم كألعاب الأطفال فيكسرونها بسهولة ويلقون بها في ازدراء. وحاول القرويون قتل من معنا من الأسرى ولكننا أبينا ذلك عليهم.

وخرج الشيوخ الكبار يطاردون الأتراك وكان غيابهم مع أنصارهم وحاشيتهم من الاسباب التي أفقرت المعسكر العربي من زعمائه.

وكانت غريزة حب الثأر قد استيقظت والأحقاد الدفينة تنبهت في الصدور بسبب الدماء الكثيرة التي أريقت في ذلك النهار.

وأخذت القبائل تفكر في التشفي بعضها من بعض بسبب الأحقاد والضغائن النائمة منذ أجيال. وقد عانى ناصر ونوري السعيد ويونغ وونترتون صعاباً كثيرة حتى تمكنوا من تهدئة الأعصاب الثائرة والعمل على نشر روح الألفة والصفاء بين العرب.

ووصلت في منتصف الليل فوجدت أن رسل طراد قد وصلوا من درعا وانضم ناصر إلى طراد.

وكنت أتمنى أن أتذوق طعم النوم إذ هي الليلة الرابعة التي أحرم فيها الرقاد بسبب السفر المتواصل ولكني لم أكن أحس بالتعب فنهضت حوالي الساعة الثانية بعد منتصف الليل وركبت جملي وقصدت درعا مع عدد قليل من رجالي فدخلتها عند الفجر.

الفصل السابع والعشرون

اخذ الشريف ناصر يفكر في اختيار حاكم حربي لدرعا، وعدد من رجال البوليس لحراسة هذه المدينة وحمايتها وقد وافقته على كل آرائه الناضجة وشجعت أعماله.

وفي نصف ساعة كنت قد رتبت الخطة التي أرى تنفيذها فيما لو اضطررنا للتخلي عن درعا فلم يكد يطلع عليها ناصر حتى ذهل ذهولاً عظيماً.

وأخذت أفتش عن الجنرال "بارو" وأقبل رجل يقول لي بأن الإنجليز اطلقوا الرصاص عليه في أثناء هجومهم على المدينة ومد جبهة القتال ولكن هذا القول كان طبعاً من مخيلته فإني علمت فيما بعد أن الجنرال قد ركب سيارته وأخذ يتفقد النقط العسكرية فلما اجتمعت به قال لي إنه ينبغي وضع خفراء في القرية لحفظ النظام وخشية هياج العامة فوضحت التدابير التي اتخذها الشريف ناصر وقلت إن العرب قد ولوا واحداً منهم ليكون حاكماً حربياً على المدينة فوافق على هذا العمل مسروراً.

وقد أخذت أقنع العرب، وأوثر فيهم ليعتقدوا بأن الجنود الهنود الذين كانوا معنا هم ضيوفنا، وينبغي أن نقدم لهم كل مساعدة ممكنة في كل ما يقدمون عليه.

ولم يمض وقت طويل حتى اختفى كل ما كان في القرية من دجاج كما سرقت أشياء أخرى كثيرة فكان سلوك هؤلاء الهنود يخالف سلوك قائدهم الإنجليزي الذي

حيا العلم العربي وأظهر تأييده للشعور القومي. كما أن أعمال الهنود هذه لم تكن لتزيد الصلات بينهم وبين العرب تحكماً ووثوقاً.

ولكننا في الوقت نفسه لم نكن ننهب دجاجاً كما كان يفعل الهنود، بل نأسر رجالاً، ونستولي على كميات وفيرة من البنادق.

وكان عدد أسرانا قد تضخم فاصبحوا يعدون بالألوف وقد سلمنا عدداً كبيراً من هؤلاء الأسرى للإنجليز.

ووصلت أخبار الظفر هذه للأزرق ولكنها وصلت مضخمة مهولة.

ووصل فيصل بعد يوم واحد، في سيارة فوكسهول فخمة، وتركنا الجنرال بارو، بعد أن ارتوى وملأ معدته وكان العطش قد بلغ منه مبلغه كما كان يكاد يقتله الجوع، للاجتماع بشوفيل بالقرب من دمشق، للاتفاق معه على وضع خطة معينة للدخول إلى المدينة معاً، وقد طلب إليّ أن أنظم جناح الميمنة وكان هذا الطلب يتمشى مع رغباتي إذ يجمعني بناصر الذي كان يضايق الجنود الأتراك المقهورين ويخفض من عددهم بالهجوم عليهم نهاراً وليلاً.

وكانت الأعمال لا تزال متراكمة عليَّ تضطرني أن أبقى ليلة أخرى.

وكان سلوك الضباط الإنجليز مع بقية الجنود مصدر فزع ورعب فإنهم لم يألفوا من قبل أن يروا مظاهر عدم المساواة جلية إلى هذا الحد فقد كنت في الحقيقة أعاملهم أحسن معاملة، ولا أجعلهم يشعرون بأني أمتاز عنهم في قليل أو كثير، بل كنت أحياناً أنام معهم على الأرض.

وجاء عبد الله بوعاء من الفضلة مملوء أرزاً مطبوخاً طبخاً جيداً فأكلنا هنيئاً. وكنت في الحقيقة ثملاً من النصر الذي أحرزناه ونسيت كل ما صادفته خلال السنتين الماضيتين من تعاسة وشقاء.

وأخذت تمر أمامي صور المدن التي زرتها واحدة واحدة وأخذت أذكر الأصدقاء واحداً واحداً. تذكرت الأحياء. وتذكرت الأموات الأعزاء الذين فقدتهم في هذه المعارك.

حاولت النوم ولكنه كان يهرب مني كلما توددت إليه وتلطفت فاستيقظت قبل أن ينبثق نور الفجر. وركبت سيارتي مع سترلنج قاصداً دمشق.

وشاهدت "بارو" يغسل جواده لشدة ولعه به فسألني مدهوشاً؟

- متى تركت درعا؟

قلت: هذا الصباح:

- واين ستبيت هذه الليلة؟

- في دمشق!

وتركته متابعاً طريقي تاركاً في كل قرية بعض ملاحظات للحراس الإنجليز. كنت أعلمهم عن مكاننا والمسافة التي بيننا وبين الأعداء، وما إلى ذلك من الأخبار التي تهمهم.

ومن الأمور التي تضايق سترلنج والتي كانت في الوقت نفسه تزعجني أن يفرط "بارو" في الحذر فقد كان يأمر الرواد والكشافة أن يطوفوا الأودية الفارغة لفحصها فحصاً دقيقاً وأن يتجولوا في التلال المهجورة، بل كان يحترس حتى عند مروره في القرى الموالية.

وبينما كنا نستمتع بحياة الراحة هذه كان ناصر، ونوري الشعلان، وعودة مع رجالهم يقاتلون الجيش التركي قتالاً متواصلاً ويبدون من الشجاعة ما أدهشنا. واجبرنا على الاعتراف ببسالتهم وحذقهم وقد قضوا ثلاثة أيام كاملة يعرضون أرواحهم للموت.

وبينما كانت سياراتنا تنهب الأرض سمعنا أصوات الرصاص تدوي وشاهدنا قنبلة محشوة من نوع "شرنبل" وظهر فجأة قائد تركي على رأس فرقة مؤلفة من ألفي مقاتل كانت تسير فرقاً شتى، في حالة رثة وبين حين وآخر تطلق بعض مدافعها الجبلية.

ورأينا بعض الفرسان العرب يهرولون إلينا، وكان ناصر أول من وصل على جواده.

ولحق بنا نوري الشعلان مع ثلاثين من أتباعه.

وأخذت أحدثهم عن القوات الإنكليزية وقرب اتصالها بنا فقد كانت خلفنا وأن كل ما أرجوه أن يبذلوا قصارى جهدهم لإعاقة الأتراك عن التقدم ساعة واحدة ولم أكد أتم عباراتي هذه حتى رأيت ناصر ونوري الشعلان يتركانني فجأة ويسرعان لتلبية هذا الرجاء والعمل على إعاقة الأتراك وصدهم فشعرت في ذلك بأنهم من الرجال الذين يعتمد عليهم في الظروف الحرجة وأننا مدينون في الحقيقة لهم بالنصر الذي أحرزناه؛ كنا نعجب بتضحياتهم وجرأتهم وثباتهم وولائهم.

وقد شعرت هذه الليلة بحنين غريب لبلادي وبرغبة حارة لرؤية أعزائي ولكنني لم أكن قد أتممت الرسالة التي جئت بها ولم تكن مهمتي قد انتهت وإن كانت الدلائل كلها تدل على أنها قاربت على الانتهاء.

الفصل الثامن والعشرون

أصبحنا على أبواب دمشق وكان هذا الظفر الذي فزنا به نتيجة منطقية لعبقرية اللنبي والمجهودات التي بذلها برثلماوس فقد استطاعا أن يحكما خطتهما الحربية باتقان فقادا الاستراليين إلى شمالي دمشق قبل أن تدخلها الفرق الجنوبية.

وكان القواد العرب ينفذون أوامر اللنبي على وجه السرعة وكان سر قوة اللنبي أنه يثق في القواد العرب ويعتقد اعتقاداً جازماً في مقدرتهم.

وكان اللنبي يريد أن نكون حاضرين عند دخوله دمشق لأنه كان يعرف مكانة دمشق في نفوس العرب فإن دخولهم هذه المدينة الكبرى ظفر لا مثيل له.

وكان دخول فيصل على رأس الجيش العربي من أكبر العوامل التي دفعت الأهلين لأن يفتحوا الأبواب في وجوهنا ويقابلونا بترحاب عظيم.

كان رسلنا يروحون ويجيئون في حرية مطلقة. دون أن يخشوا بأساً. وإن كانوا يمرون في بلاد معادية لنا. وكنا نقيم رجالاً يديرون المدن دون أن نبقي فيها حاميات لتحرسها.

ولم يكن أمامنا سوى ليلة واحدة لدخول الجيش الإنجليزي دمشق صديقاً مسالماً. لا غازياً فاتحاً.

وكان هذا العمل في حد ذاته يتطلب انقلاباً فكرياً. كما يتطلب انقلاباً سلوك

الأهلين والحق أننا كنا نعتمد الاعتماد كله على اللجنة الفيصلية التي كانت تعمل في دمشق منذ شهور لتأييد فيصل وتحضير العقول لقبول هذه الأفكار الجديدة، هذه اللجنة التي نجحت في جمع السلطة كلها في يدها بعد أن انهارت قوة الأتراك وضاع سلطانها ولم يعودوا شيئاً مذكوراً.

وكان علينا أن نداوم الاتصال بهؤلاء الوطنيين لنعلمهم بنيات الحلفاء، وبما يطلبونه منهم.

وعلى هذا أرسل ناصر، أحد فرسان الرولا إلى دمشق، ليبحث عن علي رضا، رئيس تلك اللجنة الوطنية، أو عن مساعده شكري الأيوبي.

وليؤكد لهما بأن النجدة لا بد أن تصل غداً إذا نجحت اللجنة في تأليف حكومة وطنية فوراً وهذا ما تم فعلاً في الساعة الرابعة من عصر ذلك اليوم، وقبل أن نقدم على شيء.

وكان علي رضا في خارج دمشق إذ كان الأتراك قد نجحوا في اللحظة الأخيرة فزينوا له قبول وظيفة قائدة عام للجيش التركي المتقهقر من الجليل قبل وصول شوفيل.

ووجد شكري في إخوته الجزائريين أكبر مساعدة وعلى الأخص محمد سعيد، وعبد القادر ورفع العلم العربي قبل الغروب ويقال إن آخر قائد حياه متهكماً مستهزئاً ولكن رفع ذلك العلم كان خاتمة للعصر الماضي الملوث وفاتحة عصر جديد مشرق منير.

وأخذت أقنع ناصر بالعدول عن دخول دمشق في تلك الليلة المضطربة الهائجة، اعتقاداً مني بأن الفوضى تعمل عملها في كل أنحاء دمشق وأنه ينبغي أن يحتفظ بمهابته فيدخل العاصمة عند الفجر حرصاً على كرامته.

وأوقف ناصر، ونوري الشعلان الجمالة الذين ينتمون إلى عرب الرولا القادمين معي من درعا وأرسلهم في دمشق لمساعدة شيوخ الرولا.

ولما انتصف الليل، ارتمينا على الأرض لنستريح قليلاً.

وكان عدد رجالنا أربعة آلاف، وكنت اريد أن أنام استعداداً للغد ولكن لم استطع إلى النوم سبيلاً بالرغم من كل المحاولات التي بذلتها، كانت دمشق مطمح أنظارنا وهدفنا الذي نصبو إليه منذ سنتين قضيناهما في تعب مضنٍ وقلق مميت.

وكان عقلي تلك الليلة يفكر في كل ما حدث خلال هذه المدة، مر عليّ كل شيء. كأنني كنت أمام شاشة بيضاء أتطلع إلى الافلام السياسية.

وكانت الكسوة التي قضينا فيها ليلتنا تكاد تختنق من كثرة ما فيها من الأشجار والنباتات والمخلوقات المرصوف بعضها فوق بعض كجبال من اللحوم البشرية.

لم يكن من الهين عليّ أن أنام رغم محاولتي النوم عدة مرات.

وكان الألمان قبل مغادرتهم دمشق قد عمدوا إلى إضرام النار في مستودعات الذخيرة فكنا نسمع بين الفينة والفينة أصوات الأنفجار، ونرى الدخان يتصاعد إلى طبقات الجو مع ألسنة النار المندلعة فتهتز الأرض تحت أقدامنا.

والتفت إلى أسترلنج وقلت في صوت حزين: دمشق تحترق وأخذت أتخيل هذه المدينة تتحول إلى كومة من الرماد، ثمناً للحرية التي تطلبها وتكافح في سبيلها.

وعند الفجر سرنا إلى الآكام القريبة منا المشرفة على المدينة ونحن ممسكون قلوبنا بأيدينا خشية أن تقع عيوننا على خرائب دمشق، كنا نتوهم أن دمشق قد تهدمت وخربت، وأننا سنجدها أطلالاً ولكن نواظرنا بهجت بمرأى بساتينها

الهادئة الساكنة وحدائقها المكسوة بالاخضرار؛ شاهدنا المياه المتدفقة تنعكس عليها اشعة الشمس فتلألأ كالدر، بل كانت دمشق أجمل ما وقع نظرنا عليه حتى ذلك الحين. فكل شيء فيها فتنة وسحر.

وكان القرويون، في حقولهم، يفتحون صدورهم لاستنشاق هواء الصبح العليل المنعش بادئين أعمالهم اليومية المرهقة.

وأقبل أحد الفرسان مهرولاً وحياني تحية تدل على مرح وسرور وقدم لي بعض عناقيد العنب اللذيذ، وقال: إن دمشق ترحب بكم.

وكان هذا الرسول قد جاء من قبل شكري الأيوبي، وحملنا هذه الأخبار لناصر ليدخل دمشق دخول الظافر وليكون ذلك جزاء للتضحيات الغالية التي ضحاها في الخمسين معركة التي خاض غمارها.

وكان نوري الشعلان بجانب ناصر في ذلك الحين فسألني أن أسمح له بأن يعدو بجواده لآخر مرة، واختفى بعد أن أثار عاصفة من الرمال.

وعثرنا مع أسترلنج على ينبوع صغير فتوقفنا وأخذنا نغسل وجوهنا ونحلق ذقوننا بينما بعض الجنود الهنود يتطلعون إلينا مشدوهين وكنت في ثياب عربية صرف أما أسترلنج ففي ثياب ضابط إنجليزي ما عدا غطاء رأسه.

وأخذت سيارتنا تسير هادئة في الشارع الطويل الموصل إلى أبنية الحكومة الواقعة على ضفاف نهر بردى ورأينا الطريق مزدحماً بعدد لا يحصى من الأهلين اصطفوا على الجانبين وأخذوا يطلون من النوافذ والبلكونات وسطوح المنازل.

وكان كثير منهم يصرخون، وهتف البعض لنا بأسمائنا واحداً، واحداً، واكتفى الباقون بالتطلع إلينا والسرور يغمرهم ودلائل الفرح تشرق من عيونهم.

ولما وصلنا إلى أبنية الحكومة، وجدنا العامة قد احتلوا درجاتها وهم يضجون، ويرقصون ويغنون فشققنا لنا طريقاً إلى الغرفة التي كان فيها ناصر ونوري الشعلان وكان جالساً بجوارهما عبد القادر الجزائري عدوي القديم، وشقيقه محمد سعيد الجزائري.

ولما وقع نظري على هذا المشهد أصبت واستولى عليّ الذهول.

ورأيت محمد سعيد قد قفز من مكانه وصرخ قائلاً بأن أحفاد الأمير عبد القادر وشكري الأيوبي سليل بيت صلاح الدين قد أسسوا الحكومة ونادوا بالحسين ملكاً على كل العرب أمس! وأن الأتراك والألمان سمعوا ذلك بآذانهم قبل رحيلهم من البلاد.

وبينما كان محمد سعيد يلغو ويهذر التفت شكري إليّ ولم يكن رجلاً سياسياً ولكنه كان محبوباً يعد في نظر العرب في مقام "الشهداء" بسبب ما قاساه من عذاب (جمال) فأخبرني أن الجزائريين هم وحدهم بين سكان دمشق وقفوا بجانب الأتراك ولكن لما رأوا الأتراك هاربين عادوا إلى لجنة فيصل المنعقدة سراً وتحكموا في كل رجالها، وأخذوا يديرون الأمور طبقاً لما يشتهون.

أما هؤلاء الجزائريون فكانوا من المتعصبين تعصباً دينياً شديداً وكانت أفكارهم بعيدة عن المنطق، فالتفت إلى ناصر ونظرت إليه نظرة فهم منها أنه من الضروري وضع حد لأعمال هؤلاء الجزائريين منذ البدء. والحقيقة أن سلوكهم هذا لم يكن محتملاً.

وكان عودة أبو تايه وسلطان الأطرش زعيم الدروز يحاول كل منهما تمزيق الآخر بينما يحف أتباعهما بهما فقفزت في الحال من مكاني لأفصلهما وأجبرت عودة على التراجع بينما تقدم حسين الأطرش فأخذ سلطان الأطرش من بين الجماهير المحتشدة وأدخله غرفة أخرى.

وأخذت أبحث عن ناصر وبعد القادر، ليتوليا شؤون الحكم ويعملان على استتباب النظام والهدوء. فلم أعثر على أحد منهما فإن الجزائريين كانوا قد أغروا ناصراً وأخذوه إلى دارهم ليقدموا له شيئاً من المنعشات.

ورأيت أن شكري هو أنسب رجل للحكم. وكان في شوارع دمشق ربع مليون نسمة على الأقل.

وكانت مظاهر الفرح تعم دمشق من أقصاها إلى أقصاها، وأخذ الدمشقيون يقذفون بطرابيشهم في الجو من شدة تأثرهم وانفعالهم والدمشقيات ينزعن النقاب عن وجوههن وينثرن الورد وقام الرجال يفرشون الطرقات بالسجاد. وكانت الضحكات ترن في الفضاء، وتتطاير رائحة العطور الدمشقية البديعة فتتنعشنا وتشرح صدورنا.

وأخذ بعض العامة يجرون وراءنا وأمامنا وهم يضجون هازجين وكانت زغاريد النساء تملأ الفضاء وهتف الدمشقيون:

ليحيى فيصل!

ليحيى ناصر!

ليحيى شكري!

ليحيى أورنز! (يقصدون لورنس).

وكانت أحياء دمشق كلها قد اكتظت بالرجال والنساء والأطفال لا يحصى لهم عدد حتى تعذر على الإنسان أن يجد موطئاً لقدميه في شوارع دمشق الطويلة، وعلى الأخص في حي الميدان وقرب القلعة.

وأخبروني أن شوفيل على وشك الوصول وكانت سياراتنا قد التقت به في الضواحي الجنوبية فلما جاء أخذت أصف له هياج الشعب وتأثره وكيف أن حكومة ذلك

الحين لا تستطيع إدارة البلاد وأني أخذت على عاتقي مهمة حفظ النظام وأن كل ما أطلبه منه هو أن يبعد رجاله عنا وأن الحدث الذي وقع لدمشق ليس له مثيل في الستمائة سنة الماضية كلها وإن أهل دمشق لا يمكن أن يقبلوا النظم التي يفرضها عليهم فليبقوا أحراراً يفعلون ما يريدون وأن مظاهر الفرح الصاخبة ستهدأ من نفسها .

الفصل التاسع والعشرون

الخاتمة

كنت أريد مقابلة عبد القادر فبحثت عنه فلم أجده فأرسلت من يفتش عنه، وعن شقيقه، وناصر. فعادوا يقولون لي إنهم نائمون ولم يكن هناك من هو أحق بالنوم مني ولكنني بدلاً من ذلك انصرفت لتناول الطعام مع أربعة أو خمسة من الرفاق في صالون أنيق بديع التنظيم ونحن جلوس أمام مائدة مذهبة.

وبعد دقائق قليلة أقبل أحد الجزائريين وقال في هياج وغضب إنهم على وشك أن يحضروا وكان قوله هذا غير صحيح وكنت أعلم أنهم رفضوا المجيء فقلت لا تمضي نصف ساعة حتى يكون الجنود الإنجليز قد وصلوا وعندئذ استطيع إجبارهم على الحضور فوراً فتركني وركض في الحال. واقبل نوري الشعلان وسألني في هدوء عن طلباتي فقلت:

خلع عبد القادر ومحمد سعيد وتعيين شكري مكانهما ريثما يصل فيصل.

وكان حديثي معه في منتهى اللطف فإنني كنت أريد المحافظة على شعور الزعماء العرب. ولأنه لم يكن في وسعي في ذلك الحين أن أعمل شيئاً لو قاوموني فسألني إذا كان من المحقق أن الإنجليز سيصلون فأجبته بالإيجاب وأن الخطر ليس في عدم مجيئهم بل في عدم رحيلهم بعد قدومهم ففكر قليلاً ثم قال سيكون تحت أمرك رجال قبيلة الرولا وخرج يعد هؤلاء الأشداء وينظم أمورهم.

وأقبل الجزائريون لملاقاتنا مع حرسهم، وكان الشرر يتطاير من عيونهم، وهم يودون البطش بي ولكنهم شاهدوا نوري الشعلان وسط أفراد قبيلته، ونوري السعيد مع جنوده النظاميين وحرسي الذين لا يبالون بالموت فأيقنوا تماماً أن المغامرة غير مجدية. وأن الأفضل لهم أن يستسلموا وأن يستكينوا ومع هذا فقد كانت هذه المقابلة هائجة عاصفة.

ولما كنت وكيلاً عن فيصل أعلنت باسمه أن الحكومة التي كانت في دمشق قد ألغيت. وعينت شكري باشا الأيوبي حاكماً حربياً للمدينة على أن يكون نوري السعيد قائداً عاماً للجيوش وعزمي باشا مساعداً له وجميل باشا مديراً للأمن العام. اما محمد سعيد فقد تهكم عليَّ ما شاء له التهكم وطلب من ناصر أن يساعده ضدي.

وقام عبد القادر فأخذ يسبني سباً قبيحاً ولكني لم أبال بما يقول فكان صمتي وعدم مبالاتي به من الأسباب التي زادته هياجاً فجن جنونه وقام يحاول أن يطعني بخنجره ولكن عودة حال دون قصده.

وطلب نوري الشعلان أن يقفل باب الجدال وقال إن عرب الرولا هم عربه وهو لا يريد من أحد التعرض لهم فنهض الجزائريون وخرجوا من الغرفة ودلائل التمرد بادية على وجوههم، والضغينة تملأ قلوبهم.

وقد حاول البعض أن يغريني بالقبض على هؤلاء الجزائريين وإعدامهم جميعاً ولكني لم أكن الجأ إلى القتل كوسيلة من وسائل السياسة وما كنت أحب أن أظهر للعرب أني أتخوف من أذاهم أو أبالي بضررهم.

وانصرفنا للعمل وتنظيم شؤون الدولة لتأليف حكومة عربية موطدة الأركان، وعقد صلح نزيه يرضي العرب ويتمشى مع مصالح الإنجليز.

نظمنا البوليس. وانتخبنا المدير العام له. وعينا المناطق لمساعديه. وحددنا الرواتب. والمسؤوليات. ولكن اعترضتنا مشكلة المحافظة على صحة الأهالي فقد كانت الشوارع مملوءة بالأطلال والخرائب. وبالدم وببقايا الجيش المنهزم. كانت الشوارع غاصة بالعربات المتروكة والامتعة المهجورة والجثث. وكان التيفوس والدزنطاريا والأمراض الجلدية منتشرة بين الأتراك تحصدهم حصداً فأخذ نوري يعد جماعات كبيرة من الأهلين لتنظيم الطرق والأماكن العامة. وانتشر الأطباء يوزعون الأدوية ويقدمون النصائح ويحاولون إنقاذ البلاد من الحالة الصحية السيئة التي تشكو منها.

ثم إنصرفنا إلى معالجة السجون وكانت قد أصبحت خاوية لأن الحراس قد هربوا والنزلاء قد اختفوا واعترضنا كثير من المشاكل كمشكلة الطعام وحاجتنا الماسة إلى الزاد وإلى كثير من الأمور ولكن مشكلة العملة كانت من أعقد المشاكل لأن الاستراليين قد نهبوا ملايين الأوراق المالية التركية وكانت هذه هي وحدها التي يستعملونها وقد خفضوا من قيمتها إلى حد أصبحت فيه لا تساوي شيئاً. وقد أعطى أحد الجنود الأستراليين ورقة مالية قيمتها مائة جنيه لصبي مسك جواده ثلاث دقائق.

ولكن هذه العراقيل وغيرها قد ذللت بفضل رقة سترلنج وأنسه ولطفه، ومقدرة يونغ وكفاءته وتنظيمه، وذكاء كركبريد ومواهبه؛ هؤلاء الذين سندوا الضباط العرب. اصحاب العقول الصافية والقلوب النقية.

وتركت دمشق في الرابع من تشرين الأول، والسوريون يتمتعون بحكومتهم الوطنية التي بقيت ما يقرب من سنتين.

تركت سوريا وعلى رأسها صاحب الجلالة الملك فيصل؛ تركتها دولة مستقلة

حرة، بعيدة عن كل تدخل أجنبي وكان السوريون لا يقبلون مجرد الإصغاء لمشورة يقدمها لهم أجنبي.

سوريا التي خرجت من الحرب متهدمة خائرة اقوى قد أصبحت مستقلة.

وبينما كنت جالساً وحيداً في غرفتي سمعت صوت المؤذن قد ارتفع يدعو الناس للصلاة إلى الله وكانت أنوار المدينة تسطع والناس يلهون ويقضون الساعات الأخيرة من الليل في المرح الذي يغمرهم؛ أصغيت لصوت المؤذن وكان شجياً حلواً وكانت كلماته ظاهرة مفهومة؛ إذ كان المسجد قريباً مني. فسمعته يقول في وضوح وخشوع: الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله. حي على الصلاة حي على الفلاح. الله أكبر لا إله إلا الله.

ورأيت القوم يتهافتون على المسجد للابتهال إلى الله الذي كتب لهم الظفر وأعاد لهم حريتهم المسلوبة كاملة غير ناقصة وليس أحق من الله بالشكر والحمد.